تأملات في الدين والحياة

أ.د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)
تأملات في الدين والحياة

(١)

ما بين ظلمتي الرحم والقبر لحظات من عمر الزمن ...

(٢)

القرآن الكريم وهو يقص علينا أنباء الأمم الغابرة ... وهو يشرّع لنا نظم حياتنا الدنيا ، ما يلبث أن ينقلنا ، بشكل مفاجئ ، إلى يوم الحساب ... دائماً يحدث هذا ... النقلة المفاجئة إلى يوم الحساب وكأنه واقع اللحظة ... الحقيقة المطلقة التي يغدو ما قبلها سراباً لا يملك أي ثقل حقيقي ... أي قدرة على الديمومة والاستمرار ... إنه يتفلت قبالة الوعي بالمصير الذي ينتظر كل واحد منا هناك ... ما الذي يدلّ عليه هذا ؟!

(٣)

والفارق بين الزمن الأرضي والزمن الكوني كبير كبير ، يصعب على الخيال أن يتصوره أو يلاحقه ، فكيف بالمعادلات الرياضية والأرقام ؟ لقد كشفت بحوث شرودنجر وبور وهايزنبرغ واينشتاين جانباً من الظاهرة ، لكنها لم تصل إلى القرار ... والقرآن الكريم يرحل بنا هو الآخر عبر هذا الفارق الشاسع بين الزمنين ، حيث يصير اليوم الكوني الواحد كألف سنة مما نعد ، بل كثمانية عشر ومائتين وخمسين ألفاً يوماً أرضياً : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿ ١ ﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿ ٢ ﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿ ٣ ﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿ ٤ ﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿ ٥ ﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿ ٦ ﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿ ٧ ﴾ !!(سورة المعارج : الآيات ١-٧).

في المنظور القرآني ينحسر اليوم الأرضي حتى ليغدو ساعة من زمن ... حفل تعارف لا يكاد أحدنا بعد ارفضاضه ، أن يتذكر حتى الأسماء التي تعرّف عليها ... ما الذي يدّل عليه هذا ؟

(٤)

الحياة الدنيا عروض مسرحية على شاشة الزمن ... لا تملك سوى الطول والعرض ، وليس ثمة بعدهما أي عمق حقيقي على الاطلاق ... يمثل كل واحد منا دوره سريعاً ثم ما يلبث أن

يغيب عن العيان لكي يخلي المكان لغيره أولئك الذين سيعيدون الدور نفسه ... أما الحياة الحقيقية ذات الطول والعرض والعمق ... الحياة المترعة بالأحاسيس والمشاعر والملذات الكبرى الدائمة ... الحياة التي تتجاوز السطح إلى الأعماق فهي هناك ﴿ ... لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة العنكبوت : الآية ٦٤) ... وان من الجهل الذي يغطي على الرؤية الصائبة لحقائق الأشياء ، والذي يخيل لكثير من الناس أن فرصتهم الحقيقية في الحياة هي هذه التي يمثلون فيها أدواراً ليست لهم ... انما هم ممثلون مستأجرون ، يقدّمون ادوارهم دونما أي احساس بأنهم هم ... بأنهم يعبرون عما يجري في عروقهم فعلاً ... ثم ما يلبثون أن يرحلوا !!

(٥)

هنالك مقاطع وآيات قرآنية تثير الدهشة حقاً ، لا يملك الإنسان وهو يعاينها إلاّ أن يأخذه إعجاب من نوع عالٍ ، يصعب التعبير عنه بالأحرف والكلمات ... ذلك أنه يتعامل مع كلمات الله (جلّ في علاه) ... وإلا كيف يقدر الإنسان على أن يعبر عن احساسه وهو يتلو هذه الآيات ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴿٥﴾ (سورة العاديات : الآيات ١-٥) وكأنه يحيا لحظات الصراع المحتدم في قلب المعركة ، بجرس الكلمات ، بسرعتها المتلاحقة ، بالفاء التي لا تترك أيما فاصل بين الفاعل والمفعول ، وبإيقاعها الذي يضع الإنسان فعلاً في لحظة الاحتدام التي يلتقي بها في ساحة الموت طرفا النزال ؟

ترى كم من أمثال هذه المقاطع المرسومة بكلمات الله يلتقي معها الإنسان وهو يرحل في كتاب الله وآياته البيّنات ؟ كثيرة ... كثيرة جداً ... ويكفي أن يرجع الإنسان إلى القرآن الكريم ببصيرةٍ نافذةٍ لكي يتلقى منه القيم والتعاليم ، ويعاين اللوحات التي تكاد تجسد الحالة وتضعها شاخصةً قبالة السمع والبصر ... وها كم مقطعاً آخر من بين العشرات والمئات من المقاطع : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ (سورة الغاشية : الآيات ١-٧) ... ويقف الإنسان مشدوهاً ازاء هذا التقطيع المنغّم

في الجمل القرآنية ... ذلك الذي يرسم الصورة بأكبر قدر من الايحاء والتأثير ، ويعرف المصير الذي سيؤول إليه الكفار المارقون وكأنه يتشكل قبالتنا اللحظة الراهنة !!

(٦)

كناقوط الماء الذي يضرب على الجملة العصبية للإنسان دون أن يتركها لحظةً واحدة ، محفزاً إياها على مواصلة العمل ، والكتابة ، والتأليف ، منذ لحظات التفتح الأولى على خبرات الحياة وحتى تدّس أنوفنا في التراب ...

ذلك هو قدرنا ، أن نظل نكتب ونكتب ، ونواصل الرسم بالكلمات ، والتعبير عن التصوّرات والقيم والأفكار ، دون أن نفئ ولو لحظة واحدة إلى الاسترخاء بعيداً عن هموم الكتابة والتأليف ، وإلاّ فان ناقوط الماء سيستمر على ضرب جملتنا العصبية لكي تواصل العمل ليل نهار فلا تكف عن الاستمرار لحظةً واحدةً !

إنه جهد ممتع ، ذو ثمار حلوة كالعسل المصفى ، لكنه يعرف كيف يفترس الأعمار ، ويفرق بين الزوج وزوجته ، وبين الأب وبنيه ، وبين الرجل واصدقائه ... بل بينه وبين الملذات المباحة للحياة الدنيا ...

إنه ناقوط الماء !

(٧)

كلما أوغل الإنسان في رحلة العمر ، وأطل على الشيخوخة ، وادرك أن ساعة الرحيل قد أوشكت ... ولحظة الفراق قد حانت ، تضاءلت في احساسه قيمة الحياة الدنيا ، تكشفت أوراقها الواحدة تلو الأخرى ، لكي ما تلبث أن تقف عاريةً من أي غطاء ... لا تملك أي قدرٍ من الإثارة والإغراء على الديمومة والاستمرار ... ها هي ذي على حقيقتها ... حقيقتها تماماً ، مجردةً من أية زينة أو زخرف أو متاع ... وحينذاك ... حينذاك فقط ، يدرك الإنسان كم هي تافهة الحياة المسماة بالدنيا عن قصد مسبق ... فهي في الحقيقة على امتدادها لسبعين أو ثمانين عاماً لا تعدو أن تكون الأدنى في سلّم الدرجات التي أريد للإنسان أن يرتقيها كي يجعل من حياته تجربةً تستحق أن تعاش ... لكي يمنحها معنى ... انها تتضاءل وتتضاءل في لحظات المغيب هذه حتى لا يكاد يتبقى منها اي شيء يغري بالاستمرار والبقاء ... ايما شيءٍ على الاطلاق !

(٨)

عبر حلم سريع ، أو شئتم رؤية حقيقية ، اتيح لي أن اطلع على نار جهنم ... فيا للويل لقد جيء بقدر هائل يصعب قياسه ، يتصاعد منه اللهب المتوهج والنار المتلظمة ويتطاير دخان اسود بلون الليل ... ووضع قبالتي وقيل لي ها هي ذي نار جهنم ... لم انبس ببنت شفة منتظراً مصيري ، وأنا ارنو بوجل واشفاق إلى هذه المحرقة الكبرى التي تعجز الكلمات عن تصوير هولها المريع ... ثم ما البث أن استيقظ من الحلم ، أو الرؤية ، دون أن تمسني النار ، فيا الله على هذه الفرحة الطاغية التي غمرتني وأنا افتح عيني وقد زالت عني تلك الجمرات المتوقدة للجحيم ... وما لبثت أن اسرعت إلى أحد الأصدقاء الملمين بتفسير الرؤى والأحلام ، لكي يطمئنني بجملة من الآيات القرآنية انني نجوت من الهلاك ... فيا الله على هذا العفو الكبير والسخاء الهائل الذي لو بذلت حياتي كلها للحصول على رشفة منه ، للاقتراب من ظله الظليل لما وفيت بها ... لا والله !

(٩)

لا أدري كيف يبيح الإنسان لنفسه هدر الزمن ... لكأنه يحكم بالإعدام على الفرصة الذهبية التي منحه الله إياها ، يغيبها في التراب ... تمر الساعة والساعتان ، واليوم واليومان ، والشهر والشهران ، والسنة السنتان ، وهو جالس في مكانه لا يبذل ايما جهد للتحرك ولو خطوةً واحدةً إلى الأمام ... بل إن بعضهم يرمي في سلّة المهملات عمره كله دون أن يفكر لحظةً واحدةً علام اعطي هذه الفرصة ، ولماذا ؟!

أعرف العديد من الناس فقدوا بمرور الوقت الاحساس بالزمن ، فليس ثمة عندهم ما بين اليوم والأمس والغد ايما فارق على الاطلاق ! ورسولنا (عليه أفضل الصلاة والسلام) يعلمنا أن من تساوى يوماه فهو مغبون ... فكيف بمن تتساوى أيام عمره كله ؟!

(١٠)

هنالك نمط من الناس لا يعجبهم شيء في حياتهم الدنيا قدر اعجابهم بالتحدث عن أنفسهم ، عن منجزاتهم ... عن تفاصيل مياوماتهم لحظةً بلحظة ودقيقةً بدقيقة ... يا الله على هذه الشهية للحديث ، حتى ولو كانت في أمور أتفه من أن يشار إليها بكلمةٍ واحدةٍ ... المهم أن يتدفقوا عبر المجالس واللقاءات في الحديث فلا يكاد يوقفهم شيء على الاطلاق ... لكأنهم وقد استأثروا بالحديث حكموا بالإعدام على ألسنة كل الحضور معهم ، واعتقلوها في أفواههم ،

فلم يتركوا لها أيما فرصة للمشاركة فيما يدور ... انها نوع من الأنانية المفرطة التي لا ترى إلا ذاتها ، ولا تدور إلا حول ذاتها ... فليس ثمة من علاج لهذا المرض المستعصي إلا بقلع ألسنة هؤلاء ، وإذ يستحيل ذلك فليس ثمة سوى اقامة جدار عازل ، كسور برلين ، بينهم وبين أولئك الذين كتب عليهم أن تحاصرهم أحاديث الآخرين.

(١١)

وهنالك نمط من الناس تمرّسوا على التساهل في المواعيد التي يضربونها للآخرين ... تطلب من أحدهم ، تتوسل إليه ، ترجوه ، أن يأتيك تحديداً في الساعة العاشرة صباحاً ... تترك كل أعمالك ، تضعها جنباً ، وتجلس مشدود الأعصاب بانتظار ذلك الذي ضربت معه موعدك ذاك ... فاذا بالوقت يمرّ ... وتمضي عقارب الساعة بعيداً عن مكانها المحدد ، فيزداد توتر اعصابك ... ثم إذا بك بعد ساعة وربما ساعتين ، تفاجأ بقرع جرس الباب ... ها هو ذا الزميل العزيز قد جاء ، بعد أن أخلف موعده معك ودفعك إلى زاوية الانتظار القاسية ، وقد افلتت من يديك المشاغل والهموم ... ها هو ذا الزميل العزيز الذي لا تفوته صلاة ، يدخل عليك هاشاً باشاً وكأنه لم يقترف خطأ ، بل كأنه قد أخذ رخصة من رب العباد (جلّ جلاله) بأن يسمح له بإخلاف موعده ذاك ؟ وتجاوزه الساعة والساعتين ... أتراه لم يستمع لحديث الرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذّب ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف) !؟

(١٢)

عبر خمسين عاماً من عمري وأنا اكتسح خصومي عبر جدلي معهم ... اكتسحهم اكتساحاً ... ولا يقرب قراري ، عبر مناقشاتي كافة إلا أن أخرج منها جميعاً منتصراً ... ثم ما لبثت بعد هذه المسيرة الطويلة من الحياة أن يتبين لي خطأ موقفي ذاك ، وانني كنت باكتساح خصومي وإثبات موقفي اخسرهم ... ربما للأبد ... ذلك أنني كنت اترك في حلوقهم مرارة الاحساس بالهزيمة التي تعرف كيف تزرع الأحقاد والكراهية في قلوب الآخرين ...

أخيراً أدركت خطأ موقفي ذاك ، وفئت إلى طريق آخر ... طريق مغاير وبزاوية قدرها مائة وثمانون درجة ... أن أعطي خصومي الفرصة لإثبات قناعاتهم ، أن ابدي شيئاً من التساهل في قبول بعضها ... ان اشعرهم بأنهم هم الآخرون على حق وأن نقاشنا وجدلنا المحتدم يتحرك وفق نوع من تكافؤ الأدلة فلا يؤول إلى هزيمة طرف على الاطلاق !!

(١٣)

يا الله على هذه المنة الكبرى التي تطوقنا بها إرادة الله (جلّ في علاه) ، الذي يعلم (سبحانه وتعالى) من خلق وهو اللطيف الخبير ... فها هنا تحت مظلة الله ، وبالرؤية الواقعية التي تتعامل بها كلماته ، يجد الإنسان المؤمن الطريق مفتوحاً أمامه للخلاص ، مهما مارس من خطايا وآثام صغيرة ... من اللمم بالتعبير القرآني ، تلك التي لن ينجو منها أحد من الناس ، إلاّ أنبياء الله (عليهم السلام) ... فها هنا لا يجد المؤمن نفسه محاصراً بالخطيئة التي تطوقه من أطرافه الأربعة وتسدّ عليه الطريق ... انه مفتوح على مصراعيه لتجاوز الأخطاء وإلغائها من الحساب ... وتلقي جملةً أخرى من الأخطاء وإلغائها هي الأخرى من الحساب ... فليس ثمة حتى اللحظات الأخيرة جدار يقف بين الإنسان المؤمن وبين الخلاص ... إنه الطريق العريض المفتوح على مداه ... فهل ثمة من كرم أكبر وأكثر سخاءً من هذا الذي منحنا الله إياه ؟!

(١٤)

منذ أول كلمة أتيح لقلمي أن يخطها قبل أكثر من ستين عاماً وحتى هذه اللحظات التي ادوّن فيها هذه الكلمات ، قررت أن تكون كل كلمة اكتبها ، بل كل حرف اخطه ، منذورةً لله ، منطلقة من مفاهيم التوحيد وسمائه الكبيرة ، وفضائه الواسع الذي لا تحدّ حدود ...

إن حياتي مترعة بالأخطاء ، محاصرةً بجبال من اللمم ، وليس ثمة غير الكلمة من مطهر قد يكون وسيلةً نجاتي يوم الحساب !

هكذا كنت أقول في نفسي ... ومضت الأيام والشهور والسنين وأنا منكب على الكتابة والتأليف دقيقةً بدقيقة وساعةً بساعة ويوماً بيوم ، واغراءات الكتابة باسم الله تتزايد ، والحاحها يمسك بخناقي فلا يدعني ارتاح إلا أن أمسك بالقلم واكتب ... اكتب ... اكتب ... غير مكترث لأي شيء آخر غير الكتابة ...

في الفلسفة والمنهج ، والبحث التاريخي ... في الجدل الفكري ... في المعطيات الأدبية تنظيراً وتطبيقاً وإبداعاً ... في الرواية والقصة والمسرحية والشعر والسيرة الذاتية وأدب الرحلات وأدب الحوار ... كان قلمي يلهث وأنفاسي تتقطع وأنا أواصل المشوار إلى أين ؟!

يبدو أن لا نهاية لهذه المسيرة المتواصلة إلاّ أن يدس أنفي بالتراب ... وها أنا ذ أدلف إلى التاسعة والسبعين من عمري ، لا أزال أواصل الطريق مبتغياً وجه الله وحده ، متجاوزاً اغراءات الحياة الدنيا ، وعبثها ، وسخفها ، وتقطعها ، وانصرامها ... إلى هناك حيث تعرّش الكلمة كما أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ

﴿ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ... ﴾ (سورة إبراهيم : الآيتان ٢٤-٢٥).

ولكن السؤال الذي ظل وسيظل يؤرقني : هل ستكون كلماتي التي نسجتها حرفاً حرفاً على مدى سبعين عاماً ... هل ستكون كذلك ؟!

(١٥)

من الله وحده أريد الثمن يوم الحساب ... فهل ستشفع لي جهود ستين عاماً من الكتابة المتواصلة التي نذّرتها لله (جلّ في علاه) ، أم أنها ستكون باطل الأباطيل وقبض الريح ؟

كل ما أرجوه وأتوق إليه واتشبث به وأعض عليه بالنواجذ أن تكون الأولى ... وحينذاك سألقي قلمي وأرتاح منتظراً الجزاء الأوفى الذي يكافئ جهدي ذاك. ويظل السؤال المؤرق معلقاً على رقبتي ، يمسك بخناقي ، ويأخذ بتلابيب جملتي العصبية التي انعدم فاصل الألم بينها وبين العالم : ترى هل سأحظى بالمطلوب ؟

لقد تجاوزت بسبب من حساسيتي الفائقة تجاه هذه المعادلة الصعبة الكثير الكثير من الاغراءات المادية والأدبية ، وخرجت منها بعد كفاح مرير منتصراً ، ومنتظراً في الوقت نفسه وعد الله ...

فهل سأحظى بالمطلوب ؟!

(١٦)

ثلاثة عشر مداخلة جراحية اجتزتها في حياتي ... وهو رقم أظنه كبيراً في حساب المداخلات الجراحية بموازاة ضيق في النفس أمسك بخناقي منذ طفولتي وحتى هذه اللحظات ... ترى أيكون ذلك جواز سفري إلى الجنة ؟

إنه والحق يقال طموح كبير ، أكبر بكثير من كل ما لاقيته وقدمته في حياتي ، وبالتالي فان تحوّله إلى أمر واقع مسالة فيها ألف نظر ونظر ، ومن ثم يظل السؤال معلقاً : هل ستراه يتحقق ؟

ثمة منفذ كبير قد يقرّبني مما أرجوه وأتوق إليه : انهم قاعدة قرائي الذين ينتشرون في آفاق الأرض ... ومن يدري فلعلهم في اعقاب كل قراءة مقال ما أو كتاب من الكتب ، يدعون لي بالنجاة في ظهر الغيب ... فمن يدري لعل دعاءهم يستجاب واكون قد اجتزت الامتحان العسير !

(١٧)

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿ ٢٢ ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ ٢٣ ﴾ (سورة الحديد : الآيتان ٢٢-٢٣) ...

وإنها والله للآية التي تعرف كيف تحرّر الإنسان من الأسى والطغيان ... الألم المحض على ما فات ، الفرح الطاغي بما سيأتي ، فيتعرض للانطفاء ... ذلك أنه ما من صغيرة أو كبيرة في حياة كل واحد منا إلا وقد ثبتت عليه من قبل أن يبرأ الإنسان ... ومن ثم فعلام هذه الجرعات الهائلة من الندم والأسى التي يكاد كل واحد منا يتلقى حفناتها المريرة ساعةً بعد ساعة ويوماً بعد يوم ؟

إنها والحق يقال آية تحرير الإنسان من الحزن والقلق والهواجس والهموم ، ودفعه إلى الحياة وقد تجاوز كل هذه العوائق حراً متوازناً وسعيداً ، غير نادم على ما فات ولا خائف مما سيأتي ... وعلام ؟ ولم ؟ ما دام أن كتاب عمره بكل تفاصيله وحيثياته قد مهر عليه من قبل أن يبعث إلى الوجود ؟!

(١٨)

إذا أردنا اختصار حياة الإنسان بكلمات قلائل قلنا بأنها معادلة الصراع القاسي والجهد الموصول والكدح اللا نهائي على المغانم التافهة من مال وولد وتكاثر وزينة وزخرف وقوة وسلطة وجاه ... ثم ما تلبث أن يتبين عدم جدواها ... ربما بعد تعرضها للتآكل السريع ... ربما بعد انكسارها على حين غفلة ... ربما بعد استيقاظ الإنسان على حفنة من الأوجاع أو سقوطه فريسةً للموت المفاجئ !

إنها معادلة محزنة وخاسرة بكل المعايير ... وما أكثر الذين ابتلوا بها فانتهت حياتهم المكافحة إلى اللا شيء ، وخرجوا من الدنيا غير مأسوف عليهم ... أو تناوشتهم الآلام من كل جانب ففقدوا القدرة حتى على توظيف دينار واحد من الملايين التي كدحوا من أجلها بالحق والباطل ، من أجل التمتع بلقمة طيبة ... لقمة واحدة فقط ... يغادرون الدنيا ويتركون ما جمعوه من ذهب وفضة واكداس الدنانير لذريتهم التي تعرف كيف تشتت هذا الذي أفنوا أعمارهم في جمعه ، وكيف تضيّعه في الموبقات !

(١٩)

عشرات ومئات وألوف من الأخطاء والأوهام والتمنيات والمخاوف والندم والآلام نجتازها في حياتنا ونتجرع من جرّائها المرارات والأحزان ... وعندما ينكشف الستار ، وتتمزق الحواجز ، ويجد الإنسان نفسه يقف عارياً أمام الحقائق ... يتبين له أنه كان واهماً ، وأن تصوره لما مارسه من أخطاء كان أكبر من حجم الأخطاء بكثير ... بكثير جداً ... بل ربما لم تكن هناك أساساً ما خيّل إليه الوهم أنها أخطاء ... أخيراً تتكشف الحقائق أمام كل واحد منا ، ولكن بعد فوات الأوان ، وبعد أن تكون قد افترست من اعمارنا الشيء الكثير ... وليجرب كل واحد منا أن يقوم بمحاولة لإحصاء هذه المتاعب الموهومة التي دمرت عليه أمنه وسعادته ، فان سيعجز عن حصرها لأنها تتدفق كالسيل ولن يوقفها عن الهدير إلا صوت واحد يملك القدرة على صناعة المستحيل ، ذلك هو الايمان !

(٢٠)

بعض الناس يجتاحهم بين الحين والآخر ما يسميه الأطباء بالمغص الكلوي ... إن آلامه الجسدية لا تطاق ، وهي إذا أردنا الحقيقة فوق طاقة الإنسان على تحمل الأوجاع ... يتلوى من الألم الذي يتجاوز الحدود ، ويخور كخوار الجمل طالباً النجدة ، قليلاً من التخفف من شد الأوجاع التي لا ترحم والتي بيدها أن تستجيب للنداء وألا تستجيب فيستمر الخوار والتلوي ، حتى إذا اكتملت دورة المعاناة وكفت الأوجاع أحس الإنسان بأنه قد انتقل من الجحيم إلى النعيم ، ومن لفح النار إلى برد السلام والاسترخاء ...

وكنت دائماً أقول أن هناك ما هو أشد فتكاً من المغص الكلوي ... ما اطلق عليه اسم (المغص النفسي) فهو والحق يقال أكثر لعنةً من كل ما يجتاح الإنسان من الآم قاسية ، ذلك أنه يضعه على حين غفلة عند مفترق طريق وعليه أن يختار أي الطريقين يسلك ، ويتحتم أن يتم ذلك بأسرع وقت وإلا فاتته الفرصة ... وهو يقف حائراً عاجزاً عن الاختيار حيث يجد نفسه في حالة تكافؤ الأدلة ويصعب عليه بل يستحيل الاختيار ... وإلا خسر كل شيء !

ترى كم من المرات في حياة كل واحد منا وجد الإنسان نفسه يتخبط في بئر المغص النفسي ... يبحث عن مؤشر للخلاص ولا من مجيب ؟!

(٢١)

عبر حياتي التي أوشكت أن تبلغ الثمانين ، رفضت الكثير من اغراءات الحياة الدنيا وطيباتها التي يصطرع عليها الآخرون ، واعتذرت عن العديد منها ، واقتنعت بالخلو إلى نفسي وقناعاتي الذاتية وكتاباتي المتواصلة التي تمزج الليل بالنهار.

كنت أحس في أعمق طبقة من وجداني أن أي تساهل ازاء هذه الاغراءات ، أي قبول لها ، أو انخراط في زخرفها ، سيشطرني شطرين ، سيجعلني أعاني ازدواجاً يصعب علي تحمله ... وكنت أقاتل بضراوة لحماية توحّدي هذا من أية محاولة للاختراق ، حتى لو كانت مبررة لا شبهة فيها ، ومع ذلك حاولت ما وسعني الجهد أن أتجاوز هذا كله ... نعم ... فانني والحق يقال لم أبلغ المنتهى في موقفي هذا ، وكنت أجدني مندفعاً بين الحين والحين بقوة لا ترحم للاستجابة للإغراء ، لكنها كانت حالات قليلة لا تتجاوز أصابع اليدين ، ومضت سفينة حياتي تجتاز البحار دون أن تقدر على سحبها إلى القرار أية قوة في الأرض ... أية محاولة للاستدراج مترعةً بالإغراء والاغواء ، ذلك أن الذي كان يحرسني من السقوط هو إرادة الله (جلّ في علاه) ... فما أعظمها من منة وهي تسوق مركبي عبر العواصف والانواء سبعين سنة من الكفاح إلى شاطئ الأمن والتوحد والسلام.

(٢٢)

في كتاب (سيرتي الذاتية) ما قلت كل شيء مما خبرته أو عايشته في حياتي خشية من تضخم الكتاب الذي كاد أن يبلغ الألف صفحة عدداً ... وها أنا ذا عبر هذه التأملات الموجزة في الدين والحياة استدرك بعض ما فاتني هناك ... وما فاتني هناك كثير كثير يصعب الامساك بخيوطه كافة ، ولكن كما يقول المثل فان ما لا يدرك كله لا يترك جلّه ...

(٢٣)

الدعوات المتواصلة للمشاركة في المؤتمرات الدولية والندوات ، ولإلقاء المحاضرات في هذه المؤسسة أو المعهد أو الجامعة أو تلك ، تنهال علي كالسكاكين الحادة ، وأجدني مرغماً لأسباب عديدة عن الاعتذار عن تلبيتها بعد أن أكون قد تجرعت حفنات من المرارة والعلقم ، وأنا أرى اصدقائي ومعارفي يهرعون بشهية تفوق الوصف لتلبية كل دعوة ، بعيداً عن أية حساسية قد تسببها الاستجابة ، وما أكثر الحساسيات السياسية والفكرية التي تمسك بزمام هذا المؤتمر أو تلك

الندوة ، فيما يدفع الإنسان إلى التفكير مرةً ومرتين وعشرين مرة قبل أن يستجيب لها ويحزم حقائبه ويهرع لتلبيتها ...

انني أذكر على سبيل المثال كيف تلقيت عبر سنةٍ واحدة (٢٠١٧-٢٠١٨م) ما يزيد عن العشرين دعوة ، كلها اعتذرت عنها ، وظللت جالساً في مكاني منكباً على الكتابة والقراءة والتأليف ، لكي ما تلبث مداخلتان جراحيتان في الشرايين جعلتاني أعاني من عدم القدرة على السير خطوات دون أن تحاصرني الأوجاع وترغمني على الجلوس ... ومن يدري فلعلي وجدت في ذلك الفرصة التي كنت انتظرها منذ زمن بعيد ... أن ترغمني ظروفي الصحية على الاعتذار عن الاستجابة للدعوات ... أتراها مفارقةً غير مبررة بأي معيار من المعايير ؟ ولكنها بالنسبة لي على الأقل تجيئ لكي تنقذني من الحيرة والتردد ازاء كل دعوة تأتيني من هنا أو هناك ...

(٢٤)

لست ادري لماذا أمسك بخناقي هاجس من نوع غريب ... أن أواصل الكتابة والتأليف حتى أصل إلى الكتاب رقم (١٠٠) ، وها أنا ذا إذ أدوّن هذه التأملات أكون قد استجبت للنداء وبلغت المطلوب بفضل من الله ومنّة (جلّ في علاه) ...

والإنسان عموماً تستهويه الأرقام ، والأسباب عديدة متشعبة ، ولكن يبقى أهمها على الاطلاق هو ذلك الاغراء الذي يشكله الرقم (١٠٠) فيدفعه إلى بذل المستحيل للاستجابة لندائه ...

يا الله على هذه المنحة الإلهية التي دفعتني ومكنتني من أن أحقق طموحي هذا ، وأنا أتذكر المرات العديدة التي جاوزت العشرين عدداً والتي أفلت عبر كل واحدة منها من قبضة الموت ... واتساءل بيني وبين نفسي أتراها إرادة الله ؟!

(٢٥)

الحمد لله ... ها هي ذي أعمالي تغادر المحلية إلى العالمية ، حيث تنهال علي الطلبات من شتى بقاع الأرض تطلب ترجمتها إلى اللغات الأخرى : من اندونيسيا وماليزيا ... من كازاخستان وداغستان وروسيا ، من انكلترا وفرنسا ، من كردستان وتركيا ، من البوسنة والهرسك، وغيرها من البلدان في مشارق الأرض ومغاربها ، والذي يهمني من هذا كله هو ايصال حيثيات المشروع الحضاري الذي قدر لهذا الدين أن ينوء بحمله ، إلى سمع العالم ووجدانه ... فاليوم نحن بأمس الحاجة إلى ايصال خطابنا إلى الآخر بقوة الفكر وليس بقوة السلاح ، حيث الفارق

الكبير بيننا وبينهم ... فبقوّة الفكر ، وبما ينطوي عليه مشروعنا الحضاري من قدرة على المشاركة العالمية في إعادة صياغة المصير البشري ، يمكن أن نحقق شيئاً من المطلوب وما ذلك إلا بفضل من الله ومنة منه (جلّ في علاه) ...

(٢٦)

هنالك نمط من الناس يملكون شهية هائلة للكلام ... للتحدث عن كل شيء ... للاستئثار بالحديث في المجالس والمنتديات بحيث أنهم لا يتركون ايما فرصة ... ايما فرصة على الاطلاق للآخرين لكي يدلو بدلوهم ، وقد سبق وأن تمت الإشارة إليهم ... ولكني هنا أريد أن أضيف ظاهرة عجيبة يمارسها هؤلاء وهي أنهم يتدفقون في الكلام المتواصل حتى وهم يتناولون الطعام ... ولقد ابتليت عبر حياتي ولقاءاتي بالعديد منهم ، حيث كان أحدهم يطبق علي من جميع الجهات وهو يندلق بكلماته المتواصلة دون أن يمنحني الفرصة المتعارف عليها لكي استلذ بلقمتي ... يمسك بخناقي ولا يدعني إلا وقد انتهى موعد تناول الطعام ... فلو أن أحد هؤلاء تمعّن فيما يخرج من فمه ، وهو يتحدث ، من بقايا الطعام المتطاير الذي يدفع إلى التقزز والغثيان ، لربما توقف قليلاً عن اندفاعه في القاء الرشاش المقرف على جيرانه وهو يوزع كلامه بشهية تفوق شهيته للأكل ، ذات اليمين وذات الشمال !

(٢٧)

لو أردنا أن نختزل رحلة حياتنا الدنيا بكلمات قلائل ... لو اردنا أن نعتصر خلاصتها بأقل العبارات وأكثرها دلالةً ، لقلنا بأنها رحلة الكدح المتواصل ، والمتاعب المتجددة ، والمنغصات المتعاقبة ، والأوجاع المتلاحقة ، وانطفاء الفرح ... ثم المغادرة !

أتستحق حياة كهذه أن نعض عليها بالنواجذ ؟ أتستحق أن نتقاتل من أجلها ويفترس بعضنا بعضاً ؟ أتستحق هذا اللهاث المتواصل الذي لا يكف عن الركض المحموم حتى تدس أنوفنا في التراب ؟ أتستحق أن ندوس من أجلها على القيم والمقدسات ، وأن نسعى للتسلّق بالحق والباطل لكي نبلغ مداها ؟ أتستحق أن نرفع السكاكين والبنادق والرشاشات في وجوه بعضنا ، ويذبح بعضنا بعضاً من أجل حفنة من الدنانير لا تعدو أن تكون أوراقاً لا قيمة لها مكدسةً في الخزائن والمجرات ؟ أتستحق هذا الكدح والعناء كله ؟!

(٢٨)

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (سورة الانشقاق : الآية ٦).

بهذه الكلمات القلائل في مبناها والمترعة بالكثير الكثير من الدلالات في معناها ، يختصر الخطاب الإلهي رحلة حياتنا الدنيا ، بما أنها كدح متواصل ، ومشقة ، ومعاناة ، ومتاعب ، وأوجاع وآلام ... بما أنها ركض حتى اللهاث صوب أهداف سرعان ما يتبين لنا أن هناك وراءها أهدافاً أخرى ، وأنه يتحتم علينا أن نسارع للوصول إليها ... ولكن يبقى معيار هذا الكدح الذي سيلقانا به الله (سبحانه وتعالى) يوم الحساب ، هو النيات التي تكمن وراءه ، فان كانت خالصة لوجهه الكريم فلسوف تلقى جزاءها الكبير الذي تعجز الكلمات عن الاحاطة به ووصفه ... وان كانت لغيره فلسوف يكون جزاؤها من جنس ما يكمن خلفها من رغبات ومصالح وأهواء ... ولنا الويل إن مال بنا الميزان يوم الحساب صوب هذا الاتجاه الذي ينذر بالفتنة والعذاب ... لنا الويل !

(٢٩)

(كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها) هكذا يريد معلمنا الكبير (عليه أفضل الصلاة والسلام) أن يضعنا على الحافة بين الحياة والموت ... لحظة التشييع ، وعند الوقوف على حافات المقابر لتوديع قريب أو صديق ... انها الخط الفاصل الذي لا يكاد يرى بين الحياة والاستمرار وبين الموت والفناء ... بين الحضور المنظور وبين الغياب الذي لا تدركه الأبصار ... بين الأرض الصلبة وبين السماوات القصية التي تنطلق فيها الروح متحررة من شد الوحل ولزوجة الطين.

ولكن آه من العيون التي لا ترى ، والقلوب التي علاها الصدأ فلم تعد تنبض إلا بالقريب العاجل وتلتصق إلا بالحسي المنظور ... فلو أن أصحابها ، وهم يقفون على الحافة بين الحياة والموت ، ويرون بأم أعينهم كيف يغيب اقرباؤهم واصحابهم في التراب ... لو أنهم جعلوها ترى وتبصر ... لو أنهم كسروا طبقات الصدأ الذي أحاط بقلوبهم وبصائرهم ، وجعلوها ترى الحقيقة كما أريد لها عبر هذه اللحظات أن تكون ، لعادوا إلى ديارهم وقد انقلبوا على أنفسهم فتخففوا من لعنة الحقد والكراهية ، ومن سموم اللهاث المتواصل وراء اغراءات حياة دنيا لا تساوي جناح بعوضة ... فها هي ذي عند التشييع تكشف عن وجهها فاذا هي لحظة عابرة من الزمن ... وقفة سريعة تحت ظل شجرة خضراء ما يلبث الإنسان أن يغادرها في طريقه إلى ؟! ومرةً أخرى

وثالثة وعاشرة ، آه من العيون التي لا ترى والقلوب التي لا تحس ولا تخفق ... والغفلة التي تعرف كيف تطوق الإنسان من جهاته الأربع !

(٣٠)

من منا لم يتعذب ، ويتناوشه الندم المحض الذي يعز على الوصف ، وهو يتذكر عدداً من اقربائه وأصحابه الذين رحلوا ، دون أن يكون قد احاطهم بما يستحقونه من محبة ورعاية وتكريم ؟ من منا لم يتعذب ويتناوشه الندم المحض الذي يعز على الوصف ، وهو يتذكر أباه أو أخاه أو أمه الذين رحلوا دون أن يكون قد احتضنهم وأشبعهم لثماً وتقبيلاً ؟ فو الله طالما قلت في نفسي لو أن أبي عاد إلى الحياة ، ولو لدقائق معدودات لانكببت على قدميه لثماً وتقبيلاً ... وحينذاك فقط أكون قد وفيت شيئاً من الدين الذي في رقبتي ازاءه !

في مسرحية (بلدتنا) للكاتب المسرحي الأمريكي (ثورنتون وايلدر) وقفة درامية عند هذه الحالة المأساوية المؤثرة ... أن نترك أحباءنا يرحلون دون أن نكون قد عبرنا عن محبتنا لهم ولو بعشر معشارها الذي تستحقه ... هنالك حيث يمسك بخناق الإنسان وسواس تسلطي قاهر ، كأنه يتطلب منهم ، ويتوسل اليهم أن يعودوا مرةً أخرى إلى الحياة فقط لكي يحتضنهم ويطبع قبلات المحبة والعرفان على وجوههم ... ولكن هيهات !

(٣١)

﴿ ... وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾(سورة المؤمنون : الآية ٧٠) تلك هي الثيمة القرآنية التي تتردد بصيغ تعبيرية شتى في كتاب الله (جلّ في علاه) من بدئه حتى منتهاه !

هكذا أريد للحياة الدنيا أن تكون ... أكثريات ساحقة تكره الحق ، وتقاومه ، وتضع الحواجز والمتاريس في طريقه ، وتسعى لوقفه بكل أسلوب ... وأقليات مبدعة تسعى لإعادة صياغة الحياة بما يريده الله سبحانه وتعالى وبما بعث به أنبياءه الكرام ... ويكون الصراع الأبدي بين الفئتين ... الصراع الذي تستمر ناره في الاشتعال عبر مساحات التاريخ البشري كله ... وتبقى العبرة بالنتائج ... أن يتاح للأقليات الانتصار على خصومها الذين يفوقونها عدداً ، وأن تمضي لكي تعيد بناء الحياة وفق كلمات الله (جلّ في علاه) ...

فلا يهولنّا الأمر إذا رأينا بأم أعيننا عبر زمننا هذا كيف أن المساحات السوداء تغطي على قارات الدنيا الست ، وكيف تهرع جماهير الدهماء لسحق كلّ من تسوّل له نفسه بنقلها من

مستنقع السوء هذا إلى عالم الحرية والوضاءة والوفاق ... ولكن السؤال الذي يدوّم فوق رؤوس الفريقين أترى هذا سيدوم إلى الأبد ؟

إن على دعاة الإسلام في اللحظات الراهنة أن ينفخوا في قرائح الشباب روح الثقة والأمل بالمستقبل والا يدفعوهم إلى زوايا اليأس والقنوط ... ما دام أن كل مسلم في هذا العالم هو مشروع مفتوح للصعود ، بما وسعه من جهد ، وبما يقدر على أدائه في وتائره العليا ، فإنه سيلقى جزاءه كاملاً هناك يوم الحساب. فهو ليس مطلوباً منه أن يتلقى الحصاد في حياته الدنيا ، تماماً كما أنه لم يكن مطلوباً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الشيء نفسه ﴿ . . . فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(سورة غافر : الآية ٧٧) ... وحينذاك ... حينذاك فقط سيشمر كل إنسان مسلم عن ساعد الجدّ لتقديم ما وسعه الجهد في بناء العالم الموعود ، والخروج بالبشرية من النُقر الضيقة التي تتخبط فيها إلى سماء الله الكبيرة.

إن الجهد الفردي ، أو الجماعي ، سينضاف بعضه إلى بعض ، لكي ما يلبث أن يشكل نهراً هادراً قد تتغير به المصائر والمقدرات.

(٣٢)

ألا يتحتم علينا أن نتعلم من رسولنا (عليه أفضل الصلاة والسلام) حتى في هذه ؟ فيما يطلق عليه اليوم (اتيكيت الطعام) حيث نرى بأم أعيننا حشوداً من المسلمين ، بل من الذين يحملون هم الدعوة ، لا يكترثون لهذا ، وينقضون على موائد الطعام دونما أي قدرٍ من الاحساس بالمطالب الجمالية اللائقة في تناول اللقمة ، بحيث أنك إذا ألقيت نظرك ازاء بعضهم رأيتهم وكأنهم يلتقون بفريستهم التي انتظروا اصطيادها فينهشون لحمها وعظمها ، وهم ينحنون على موائد الطعام دافعين بأكتافهم جيرانهم ذات اليمين وذات الشمال وكأنهم يريدون أن يحتكروا المائدة لأنفسهم ... ليس هذا فحسب ، بل هم يمضون إلى أبعد من هذا ، فتتدفق ألسنتهم وأفواههم بالكلام المتواصل وبصوتٍ مرتفع ، حيث يتطاير منها فتات الطعام فيتساقط قبالة الآخرين فيما يدعو إلى النفور والتقزز ... بل هم يمضون إلى أبعد من هذا فاذا بهم يمسكون بأعواد الثقاب قبالة الآخرين الذين لا يزالون يواصلون تناول طعامهم لإخراج ما عصي من لحمٍ بين أسنانهم فلا يزيدون ذوي الاحساس المرهف إلا قرفاً واشمئزازاً.

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد علمنا كيف نستقبل موائد الطعام ، وكيف نأكل من أقرب موضع في الإناء ، وكيف نستحيي أن يمضي بنا الشره للطعام إلى مداه ...

وكيف ... وكيف ... فيما يشكل منظومة متحضرة في كيفية تناول الطعام ... افلا يتحتم أن نتعلم منه ؟

(٣٣)

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾(سورة الأعراف : الآية ٣١) .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾(سورة الأعراف : الآية ٣٢) ...

بهذا الأمر الإلهي الحاسم ، وبهذا الانفتاح المدهش على التمتع بطيبات الحياة الدنيا ... هذه هي الأخرى (الثيمة) التي طالما ترددت في كتاب الله من بدئه حتى منتهاه : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... ﴾ وأين ؟ في أخص ما يمس الإنسان المسلم من عبادته وهو متجه لأداء الصلاة !!

فما الذي نلحظه على العديد من أتباع هذا الدين الذين وضعوا على آذانهم شمعاً أحمر لكي لا ينصتوا لنداء القرآن ، فيتجهون للمسجد شعثاً غبراً ، تفوح من بعضهم الروائح التي تزكم الأنوف ، يتجهون لأداء الصلاة وقد اكتست وجوههم بغمامة من العتمة وربما الكراهية ، وغابت السماحة والبشاشة من وجوههم ... فاذا سلمت على أحدهم لم يرد عليك التحية بأحسن منها ولا بمثلها ، بل ان بعضهم لا يرد عليها ، رغم أنهم يعلمون جيداً أنها أمر إلهي ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ... ﴾(سورة النساء : الآية ٨٦) ورغم أنهم طالما سمعوا أحاديث رسول الله التي تأمرهم بإطلاق الكلمة الطيبة على ألسنتهم ، وبرسم ملامح البشاشة على وجوههم : (تبسمك في وجه أخيك صدقة) و(الكلمة الطيبة صدقة) ...

يا الله على هذا الاحساس الإلهي والنبوي الأصيل بالجمال ... بالزينة ... بكل ما يجعل الحياة الدنيا تستحق أن تعاش ... وإلا فهو الخسران المبين !

(٣٤)

ما من سكين أجهزت على مقدرات أمتنا الإسلامية كسكين التشدد ، بشفراتها الحادة التي تعرف كيف تقطع الرؤوس ، بحديدها الملتمظ على سيّال الدم ، المتشهي لسفكه لحظةً بلحظة

ودقيقةً بدقيقة ... ما من سكين ذبحت الصوت المضيء الذي جاء هذا الدين لكي يخرج به الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، كسكين الغلّو والتطرف ... ها هم المتشددون يندفعون عبر تاريخنا كله كالسيل الطامي ، فيكتسحون في طريقهم كل ما هو وضيء نبيل في معطيات هذا الدين الذي طالما نادى كتابه بأنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، ونادى رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأن هلاك الأمم السابقة انما كان بسكين المراء والغلو والتشدد ... وبم يصف كتاب الله رسولنا (عليه أفضل الصلاة والسلام) : ﴿ ... وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ... ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٥٩) ... أفلا يتحتم أن نطبع كلمات الله (جلّ في علاه) هذه على قلوبنا ونضعها على رؤوسنا ونحفرها في وجداننا ، لكي نعرف كيف نستميل الآخر وندعوه للانتقال إلى ديننا والالتزام بمطالب عقيدتنا ؟

إن آداب السلوك المنفتح ، المرن ، السهل ، المحبب ، الميّسر ، هي التي فتحنا بها نصف العالم ، والتي يمكننا بها أن نفتح نصفه الآخر ... فها هم الغربيون بنخبهم ومواطنيهم العاديين يهرعون يوماً بيوم للانتماء إلى هذا الدين ، والذي يقف في طريقهم دائماً هو الغلّو والتشدد فيصدهم عن الذهاب إلى ما يطمحون إليه.

ولكن آهٍ من العقول التي لا تعي ، والقلوب التي علاها الصدأ ، والتي لا ترى إلا في السكين طريقاً لدعوة الآخرين إلى هذا الدين الذي انطلق منذ لحظاته الأولى وهو يحمل لافتته الكبرى : الحنفية السمحاء !

(٣٥)

في حياتنا الدنيا هذه ... عبر علاقاتنا الاجتماعية ... في مياوماتنا ، نلتقي بنموذجين من المعارف والأصدقاء ، وهم على تباين مشاربهم ، واختلاف أذواقهم وعاداتهم ، وتغاير أفكارهم يمكن للمرء أن يلمّهم في سياقين اثنين لا ثالث لهما : الطيب والخبيث !

الطيب الذي يغمرك بالبشاشة ، ويمحضك النصيحة ، ويداوي جراحك ، ويخفف آلامك ... والخبيث الذي يروغ عنك كما تروغ الثعالب ، منتظر أية فرصة لكي يطعنك بأفعاله أو كلماته ... لا يمد إليك يداً ساعة المحنة ، ولا تسمع منه ما يأخذ بك إلى الخروج من المآزق التي وضعك الزمن فيها ... لا تنضح شفاههم إلا بالسّم ، ولا كلماتهم إلا بالسم ، ولا أفعالهم إلا بالسم

... وكأنهم وقد علّقت جراب السم تحت ألسنتهم لا يمكنهم مهما حاولوا إلا أن يمارسوا بها لدغ الآخرين وانتهاز أية فرصة لحقنهم بالسم !!

وحظوظ الناس هي التي تضعهم حيناً في دائرة الطيبين وحيناً آخر في دائرة الخبثاء ... ولكم أن تتصوروا كيف سيرجعون في الحالة الثانية إلى دورهم وهم يعانون من الدوار الذي حقنه السم في دمائهم !

(٣٦)

اللحظات التي أتم فيها انجاز عمل من أعمالي التأليفية هي أسعد اللحظات في حياتي ... اللحظات التي أضع فيها اللمسات الأخيرة على هذا الكتاب أو ذاك وأعده للطبع ، هي أكثر اللحظات فرحاً وبهجة في حياتي ... تتضاءل دونها كل المتع والمكاسب والانجازات الأخرى ، ولا يتبقى في دائرة الاحساس والوجدان إلا شيء واحد ... شيء نادر عزيز ... انني قد انجزت كتاباً وأضفته إلى قائمة أعمالي ومؤلفاتي التي سأرفعها قبالة الله سبحانه وتعالى يوم الحساب قائلاً : ها أنا ذا يا رب العزة والكمال قد انجزت عشرات الكتب التي لا تتحدث إلا بكلمة التوحيد، ولا تدعو إلا لدينك وعقيدتك وشريعتك ... ولا تتمخض بالرد إلا على خصومك من شياطين الإنس فتكشف عن عوارهم ودجلهم وشعوذتهم ، وتبين للناس كم أن صراطك المستقيم هو الطريق الوحيد في هذا العالم ، الذي يقود الإنسان والبشرية إلى الخلاص ... وما دونه سوى التخبط والضياع.

فمن يدري ... لعلها بنبضها المترع بعشق هذا الدين تشفع لي ، لعلها تنقذني من ركام اللمم الذي أحاط بحياتي من أقصاها إلى أقصاها ... لعلها تخفّف عني شيئاً من العقاب الذي استحقه ... ولنا الويل يومها إن جاء الأمر الإلهي برد الرجاء ... لنا الويل !

(٣٧)

لحظة جلوسي منفرداً اطالع بشوق عميق في كتاب ... هي الأخرى تمثل أسعد اللحظات في حياتي ... فهي تساوي عندي الدنيا وما فيها من متع ومباهج وملذات ... منذ زمن بعيد ... زمن الطفولة الذي يشع فرحاً وبهجةً وسعادةً ، كانت قراءة قصة من قصص الأطفال ، أو مطالعة مجلة من المجلات ، تنقلني على أجنحة النشوة إلى عالم آخر غير هذا العالم ، وتضعني في قلب أحداثه ومفاجآته ... فأضحك وأبكي ، وأفرح وأحزن ، وأتوحد وأتشتت ، ماضياً بانفعال يصعب وصفه لكي أعانق مصائر الشخوص والأبطال ...

منذ ذلك الزمن البعيد وحتى لحظات الشيخوخة الراهنة ، كان الكتاب هو محطة الخلاص بالنسبة لي ، من الهموم والمتاعب والآلام ... محطة الاسترخاء والتخفف من عناء الكدح المتواصل واللهاث المحموم ...

وما بين (السندباد البحري) و(ليلى والذئب) و(الوردة البيضاء) وبين (الأجنحة المتكسرة) و(الأرواح المتمردة) لجبران ، و(ماجدولين) و(العبرات) و(الفضيلة) للمنفلوطي ، وبين (مائة عام من العزلة) و(خريف البطريق) لماركيز ، و(قصة مدينتين) لديكنز و(أنا كارنينا) لتولستوي و(البؤساء) لهوغو ، و(زوربا) لكازانتزاكي ... رحلة متطاولة من الشغف بعشق الكلمة التي تنبض بكل ما هو مؤثر وجميل ومشحون في هذا العالم ...

(٣٨)

التقنيات الحديثة تلاحقنا بحصارها ... بضرورات اللهاث المحموم لتلبية طلباتها ... بالركض المتواصل للاستجابة لمطالبها التي ما تلبث أن تنفجر عن المزيد ...

نحن جيل كتب علينا أن نعايش زمنين ... زمن الحياة الهادئة المنسابة ذات الايقاع البطيء ... وزمن الحياة السريعة ذات القفزات الأسطورية المدهشة في عالم الاكتشاف والبحث عن الجديد ... لقد أرهقنا هذا التحوّل الفجائي من حالٍ إلى حال ، وجعلنا نتحسر على الزمن الماضي ، ونعض على فواته أصابع الندم ... ولكن هيهات فها هي مطالب الحياة الجديدة بتقنياتها الأسطورية المتلاحقة كالسيل بكشوفها المدهشة التي لا تنقضي ، تنقض علينا وترغمنا على مسايرتها وإلا تعرضنا للضياع !

وعلى ما في التقنيات الحديثة من مكاسب كبرى ، أبرزها ولا ريب الحصول على المعلومات بسرعة قياسية ، ووضع مكتبات بكاملها بين يدي الباحث والقارئ وهو جالس في بيته ... وتحقيق التواصل السريع بين الأمم والشعوب ، ومنحهم المتعة والفرح والسعادة ... إلا أن ذلك لا يعدو أن يكون أحد جانبي الصورة ... الجانب المضيء ... أما الجانب الآخر المعتم فهو فتح الأبواب على مصاريعها لسرقة أتعاب الآخرين ، ولتحويل أجيال الباحثين من طلبة الدراسات العليا إلى عالة تسرق جهود من سبقهم ، وإلى أنصاف أميين لا يعرفون كيف يتعاملون مع الكتاب ، وحكمها بالإعدام على العلاقات الاجتماعية والروابط الأسرية ، بوضعها في يد كل واحد منهم جهازاً ينكب عليه الساعات الطوال ، وقد أدار ظهره للآخرين ، وانفصل بالكلية عنهم ...

ترى ما الذي سيأتي به الزمن القادم ؟

(٣٩)

أعشق عالم الطفولة ، ذكرياتي عنها تمثل منجماً خصباً من الفرح والغبطة والسعادة والاكتشاف اليومي المتجدد ، وخلو القلب من المتاعب والمنغصات والهموم ... وكلما ضيّقت علي الدنيا أبواب التحرر والخلاص وجدتني أهرع إلى ذكرياتي عن عالم الطفولة استمد منه السلوى والعزاء ...

والآن فان هذا العشق انتقل بالضرورة إلى أحفادي ... انتظر مجيئهم إلى دارنا في نهاية كل أسبوع ... يصعدون بخفة ونشاط إلى مكتبي في الطابق الأعلى لكي آخذهم بالأحضان وأطبع على خدودهم الطرية قبلاتي الحارة ، ثم لأعرض على كل واحد منهم الأقلام الملونة والأوراق لكي ينبطحوا أرضاً وينهمكون بالرسم ثم ما يلبثوا أن يتقدموا إلي بنتاجهم الرائع لكي أبدي رأيي فيه ، ويغادرون مكتبي وهم سعداء !

عائشة وطارق وسما ونور وعادل ورفيدة هذا هو حصادنا الموعود من ابنتي مها وعلا ... ولكل واحد منهم في قلوبنا مكان ... فيا الله على عالم الطفولة وبراءته ... يا الله على أقدار الله التي تصوغ بقدرتها المطلقة استمرارية الحياة وتواصل الأجيال ...

(٤٠)

رحمك الله يا أبي الغالي ... لقد كنت بحق ليس أباً فحسب ولكن مربياً وأستاذاً ... لقد منحت أبناءك هامشاً واسعاً من الحرية وأنت تراقبهم من بعيد ... ومع الحرية اعطيتهم السعادة والفرح بما كنت تغدقه عليهم من الهدايا والطيبات ، وبما كنت تخرج بهم بين الحين والحين للتجوال في أنحاء المدينة وبراريها الجميلة ... بسماحتك في التعامل معنا كلما تجاوزنا في تصرفاتنا الحدود المرسومة ... ببشاشتك التي لم تفارق وجهك لحظةً واحدةً ... وبعلاقاتك الاجتماعية الواسعة مع كل رموز المدينة وشخصياتها ... بركضك المتواصل لحل مشاكل المأزومين والتعساء ... وبالتزامك المدهش في أداء ما أمرك الله به من العبادات ... بقدرتك الفذة على التحقق بالتوازن بين طيبات الحياة الدنيا وبين الاستجابة لنداءات الآخرة ...

لقد كنت بحقّ أباً ومربياً وأستاذاً ... تعلمنا منك الكثير وان كنا قد قصرّنا عن اللحاق بك ... فمن يقدر على اللحاق بالكبار أولئك الذين عرفوا كيف يتعاملون مع الدنيا في سقفها العالي ... من ؟

ومع ذلك فقد بذلنا جهدنا بما نقدر عليه ، وكان في ذلك عزاؤنا أيها الراحل الجليل !

(٤١)

جدّتي لأمي كانت نموذجاً نادراً بين النساء ... لكأنها قدمت إلينا من عصر الخلافة الراشدة ، ونسائها الفريدات ... لقد فتحت صدرها لكل التعساء والفقراء واليتامى والمحزونين ... كانت تأتي بهم إلى دارها الواسع وتسكنهم هناك الأسابيع وربما الأشهر الطوال ... تطعمهم وتكسوهم وتسهر على راحتهم ... وكانت تخرج بين الحين والحين ، مستقلة احدى العربات التي كانت يومها وسيلة النقل الوحيدة في مدينة الموصل ، وهي تحمل أكياس الحنطة والطحين ، وأكداس الخبز واللحم لكي توزعه على الفقراء والمحتاجين ... لم تكن البشاشة تغادر وجهها ... ولم تترك فريضة ولا نافلة إلاّ وأدتّها في وقتها ... وكنا نحن الصغار نأوي إليها ونحن نعرف سخاءها لكي تعطينا مما اختزنته الشيء الكثير الذي كان يملؤنا بالغبطة والسعادة ... وعندما يتهددنا الأب أو الأم بالعقاب ما كنا نجد من يحمينا من غضبهم سوى جدتي ... وعندما كانت تطل على بيتنا بين الحين والحين لكي تبقى الأيام الطوال ، كان ذلك بمثابة الفرحة الكبرى لنا نحن الصغار حيث كنا نسهر في ظلالها الساعات الطوال وهي تقص علينا جملة من الأقاصيص الشعبية التي كانت تحفظها عن ظهر قلب ...

لك الله أيها الجدة الغالية التي اختارت أن يتوفاها الله في دارنا ... وأنا اجلس عند رأسها ادعو الله (سبحانه وتعالى) أن يخفف عنها سكرات الموت ، فإذا بي اسمعها تردد (من الظلمات إلى النور) (من الظلمات إلى النور) ... ثم ما لبثت أن فارقت الحياة ، وسيّال الدموع ينصب من مآقينا ممتزجاً بفرح يصعب وصفه وهي تتلقى الإشارة بالقبول ...

لك الله أيتها الجدة الغالية التي كانت تؤثرني على كل أحفادها بمحبتها الخالصة !

(٤٢)

ويجيئ الدور على أخي الغالي نبيل ... يخترقه الموت في عزّ شبابه ، وعلى حين غفلة ... وتلك هي أقدار الله التي لا راد لها ، ولله ما أعطى وما أخذ ... لم يكن أخاً فحسب بل كان صديقاً حميماً ، وداعيةً إلى الله من طراز فريد ... وكان فوق هذا كله كاتباً وأديباً ... وكنا نجتمع بين الحين والحين لكي نتباحث في شؤون الدعوة والفكر والأدب ، وفي مطالعاتنا النهمة التي لا ترتوي ... وفي تبادل الهموم والأحزان ... بل اننا كنا نقضي الساعات الطوال في اللعب متخففين بذلك من هموم الحياة اليومية ومطالبها التي لا تنتهي.

التقيته عند بوابة جامع الملاح في الحي الذي نسكن فيه ، لحظته يعد أحد الطلبة بأنه سيسعى لحلّ أزمته ... وما لبث أن غادر المكان عائداً إلى البيت ، بينما اتجهت أنا إلى بيت

عمي لتناول الغداء وهناك نادتني زوجتي وهي تحبس دمعتين تريدان أن تنطلقا من أسر الأهداب قائلة : انك يا عماد مؤمن بالله ، وها هي ذي أقداره تضعنا في قلب الفراق ... أخوك نبيل ... وما لبثنا جميعاً أن اجتاحتنا موجة من البكاء الحار ... وهرعت إلى دار الأهل لكي أطبع على جبين أخي وصديقي قبلة الفراق وأنا أردد : رحمك الله أيها الأخ والصديق ، لقد تركت في قلبي فراغاً أحس أن بمقدوري أن أضع قبضة يدي فيه ... لقد كان بحق فراغاً كبيراً !

(٤٣)

كثيرون من اخوتي وأصدقائي وأعمدة الدعوة إلى الله رحلوا عن الدنيا ... الواحد أثر الآخر ... احصيتهم يوماً فإذا بهم قد تجاوزوا المائة عدداً ... رحلوا وتركوني وحدي !

كثيرون ملأوا بكدحهم ونشاطهم في خدمة هذا الدين المساحات الواسعة من حياتهم الخصبة ذات العطاء السخي الوفير ...

كثيرون ممن كنت التقيتهم بين الحين والحين ، أو يجيئون لزيارتي لكي اتبادل معهم الرأي في هموم الدعوة والعمل والفكر والحياة ... وها أنا ذا انفض يدي منهم ... لقد رحلوا وتركوني وحدي ...

عمن أتحدث ؟ وكيف لي عبر اسطر معدودات أن أوجز سفر كل واحد من هؤلاء الذين ملأوا الدنيا بعطائهم وفكرهم وإبداعهم وجهدهم اللاحب في الدعوة إلى الله ؟ ومن ثم سأجدني مرغماً للكف عن التفاصيل والاكتفاء بطرح بعض الأسماء التي كانت أشبه بالقناديل المشتعلة في ليل الزمن المعتم ، فعرفت كيف تضيء السبيل للمدلجين في الظلمات : الشيخ الدكتور فيض الفيضي ، خالد عثمان ، رعد الحيالي ، الدكتور حازم عبد الله ، الأستاذ غانم حمودات ، عمر الصيدلي ، سالم عبد الرزاق ، الدكتور حازم طه ، الأستاذ سعيد الديوه جي ، نكتل كشمولة، يحيى علي ، ثامر عزيز ، الدكتور عدنان السلمان ، الأستاذ عبد الحافظ سليمان ، محمد الحسناوي ، إبراهيم عاصي ، الدكتور جمال عطية ، الدكتور عبد الحليم عويس ، الدكتور اسحق فرحان ، الدكتور إبراهيم زيد الكيلاني ، كمال رشيد ، أديب الدباغ ، أورخان محمد علي ، الدكتور عمر الساريسي ، الدكتور عبد اللطيف عربيات ، فاروق نبهان ، وغيرهم كثيرون ... كثيرون جداً ...

ودائماً أقول في نفسي معزياً إياها : لقد سبقتموني إلى هناك فهل ستأخذون بيدي عندما تحين ساعة الرحيل إلى الله ؟ هل ستأخذون بيدي ؟!

(٤٤)

رحلة الحياة الدنيا لا تعدو أن تكون سلسلة متلاحقة من الأفراح والأحزان ، من الأفعال وردودها ، من المباهج والحسرات ، من الانتصارات والهزائم ، من النور والظلمات ... ولن يكون لأحد كائناً من كان أن يفلت من قبضتها التي تطبق على حياته من بدئها حتى منتهاها ... هكذا أريد للإنسان أن يكون وإلا فقدت الحياة طعمها وعذوبتها ... وإلا أصبحت شيئاً مسطحاً مكروراً لا لون له ولا طعم ولا رائحة.

إن الآيتين القرآنيتين الكريمتين تختصران هذه المعادلة التي كتب على الإنسان أن يدخل أسارها الذي لا مهرب منه : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ (سورة الشرح: الآيتان ٥-٦) وهكذا وعبر مئات الصيغ وربما ألوفها يتكرر هذا الالتحام المكتوب على بني آدم بين اليسر والعسر ... انها – بحق – رحلة عجيب أمرها ، هكذا يتساءل الناس ، ولكنهم لو أنهم أدركوا ما وراء المنظور ، واوغلوا عميقاً في اكتشاف سرّ الظواهر والأشياء التي تحكم الحياة ، لما قالوها ، ولأعلنوا قبولهم إياها لأنهم بذلك فقط سيدركون مغزى الحياة التي أريد لها منذ البدء أن تكون هكذا ... ولأحسوا حتى أعمق طبقة من وجدانهم بأن السعادة الحقيقية ، الفرح العميق ، التوافق والانسجام ... لن تتحقق ويشعر الإنسان بطعمها العذب إلا بعد أن يجتاز سلسلة من الخبرات الصعبة التي يجيئ بعضها مراً كالعلقم ، قاسياً كالجليد المتجمد منذ مئات السنين !

(٤٥)

لو أننا فكرنا قليلاً بطبيعة المتع التي كتب علينا أن نتلقاها ونتعامل معها في حياتنا الدنيا ... لو أننا أوغلنا قليلاً في ملاحقة عمقها الحقيقي ، لو أننا قسناها بالزمن الطويل نسبياً الذي كتب لكل واحد منا ، لوجدناها لا تعدو أن تكون لحظات من عمر الإنسان ... لحظات سريعة الانصرام ما تلبث بعد أن تخفق مرة ومرتين أن تغيب عن العيان.

أكثر من هذا ... هل فكر أحدنا في أننا ونحن نتناول الطعام كواحد من المتع المباحة في حياتنا الدنيا ، نسارع في التقامه وكأننا في سباق مع الزمن من أجل الاجهاز على آخر لقمة فيه ؟ هل فكر أحدنا في مساحة اللذة القصوى ، ما تسميه كتب الجنس بالذروة ، كيف أننا نريد أن نختزلها اختزالاً وكأن هناك فوق رؤوسنا من يسوقنا لكي نقطف الثمرة الحلوة سريعاً ... سريعاً قبل أن تتيبّس وتذبل وتنحسر ... هل فكر أحدنا ونحن نقضي الساعات الطيبة عبر هذه الأمسية أو تلك ، أو خلال هذه الرحلة أو المناسبة الترفيهية ، أو الاحتفالية ، أو تلك كيف أنه

ينظر إلى ساعته ، بين لحظةٍ وأخرى ، وكأنه يستعجل عقربها باللف والدوران لكي يؤول في نهاية الأمر إلى نهاية المناسبة كأنه يتمنى لو تجيئ سريعاً ؟!

فما من متعة ، ما من لذة ، ما من فرصة لإشباع النفس البشرية من الرغبات ، إلا وتجيئ مقترنة بهذه الرغبة في الاختزال ... في الوصول السريع إلى نهاياتها ، في انطفائها في نهاية الأمر ... فما الذي يدل عليه هذا ، إن لم تكن حياتنا قد عجنت بالسرعة والعجلة ، والرغبة المؤكدة في الاتيان السريع على المتع والملذات ؟ ألا يدل هذا على تفاهة هذه الحياة ، وأن علينا أن نضعها تحت أقدامنا بدلاً من وضعها على رؤوسنا ؟ ألا يدل هذا على الفارق الكبير بين هذه الحياة وبين الحياة الأخرى ... الحياة الأبدية التي تتطاول فيها المتع والملذات الروحية والفكرية والجسدية ، وتتطاول حتى لتبدو الآ نهاية لها على الاطلاق !

(٤٦)

الحقد والمحبة ... الكراهية والسماحة ... البغضاء والالفة ... الاثرة والايثار ... الشح والسخاء ... الجبن والشجاعة ... التردد والاقدام ... الشد والاسترخاء ... القلق والانسجام ... النفور والتوافق ... الخوف والاطمئنان ... ولو شئت أن أمضي في استعراض الثنائيات التي تمسك بتلابيب الإنسان لعجزت عن الاحصاء ... وتلك هي مرةً أخرى وثانية وثالثة وعاشرة ، رحلتنا جميعاً مع الحياة الدنيا التي وضعتنا – شئنا أم أبينا – قبالة هذه الحالة المزدوجة التي تسحبنا احداها إلى القعر وتمضي بنا الأخرى إلى السماء !

والرجل الرجل هو الذي يبذل أقصى ما يقدر عليه من جهد لكي يقاوم ، لكي يحول حياته إلى جهادٍ صعب من أجل أن يتجاوز كل عوامل الشد واغراءاته ، يتفوق عليها ويمضي مصعدا إلى السماء ...

الرجل الرجل هو الذي يكافح من اجل مدّ مساحات الايجاب في حياته وتضييق الخناق على مساحات السلب ... فمن يدري لعله يخرج منتصراً في المعركة ، فيكون بذلك قد حقق انتصار خفقة الروح في كيانه على شد الطين ولزوجته وعتمته !

من منا لم يحاول اجتياز هذا الخندق العميق بين الحالتين ؟ ومن منا لم يتعذب وهو ينزلق صوب القاع والظلمات ؟ ومن منا لم يحس بالفرح الذي يجل عن الوصف وهو يجتاز قوى الشدّ ويمضي مصعداً إلى فوق ... إلى سماء الله الكبيرة وفضائها الواسع ... من ؟

تلك هي بإيجاز شديد رحلة حياتنا الدنيا ، وعلينا أن نتعلم من مغزاها ، وإلا فهو الخسران المبين.

(٤٧)

طبعت نفسي على علاقة نادرة بالطبيعة ... على صداقة حميمة بالجمال ... على الفة متميزة بكل ما يخفق في هذا العالم ، مومئاً بلغته الخاصة ، بالمدهش والمثير ... انعدم فاصل الألم بيني وبين العالم ، وأصبحت جملتي العصبية مكشوفةً تماماً لأية لمسة ، لأي نداء ، لأية همسة من همسات دنيا لا تكف عمن يحسن الاصغاء إليها ، عن تقديم أطباقها الشهية التي ما لها من نفاد !

الفة ميتافيزيقية ، إذا شئتم أن تسمونها ، تدخلك في حوار دائم مع الملكوت ... تضعك في كل لحظة ازاء معطياته المتدفقة كالشلال ، لكي تقودك ليس إلى اشباع أحاسيسك المتلهفة للجمال ، بل إلى ما وراء ذلك كله ، إلى الله (جلّ في علاه) الذي ما تنفد كلماته حتى لو استمد حبرها من بحار الدنيا السبعة ... تتجدد وتنبعث وتعدو وتومئ بالعطاء ، وتقول لك بلغة الألوان ، والكلمات ، والكتل ، وعوالم النبات والحيوان ... بأنه ليس ثمة إلا الله وأن لا إله غيره (جلّ في علاه) ...

من أجل ذلك دخلت عبر حياتي كلها من أقصاها إلى أقصاها في حوار يومي دقيقةً بدقيقة ولحظةٍ بلحظة مع الكائنات ... مع كل ما ينبض بالعشق والمحبة في هذا الوجود ... وتقلبت مع كلماتي وأنا أعاني الدهشة والغبطة والفرح ، فانعكس ذلك في أعمالي كافةً قصيدةً وقصةً وروايةً ومسرحيةً ورحلةً وسيرةً ذاتية ... بل إنه مضى لكي ينعكس حتى في أعمالي الفكرية والتاريخية والفلسفية ... لقد تغلغل الاحساس بالجمال في بنيتي ، وساقني إلى ما يريده هو ... إلى سماء الله الكبيرة التي تنبض في كل آنٍ ولحظة بألف نداء ونداء ... وأن علينا ان نستجيب إذا أردنا فعلاً أن نكون أكفاء انسانيتنا التي منحنا الله إياها ... (جلّ في علاه) ...

(٤٨)

ليس ثمة ما يبقى في هذا الكون والعالم سوى الله ... الكل ذاهب ... الكل آيل للضياع ... الكل سيكتسحه الفناء ... ولكل مشروع مفتوح لتقبل الموت والغياب ... ولا يبقى ثمة إلا وجه الله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ (سورة الرحمن: الآيتان ٢٦-٢٧) ...

ما من دولة أو مملكة أو حضارة إلا وجرى عليها القانون نفسه ، امسك بخناقها وساقها إلى التفتت والزوال ... ما من إنسان ، كائناً من يكون زعيماً أو ملكاً أو معبوداً أو قائداً تعبده الجماهير وتضع رؤوسها تحت قدميه ، إلا وتلقى مطرقة الموت فما لبث أن غاب عن الدنيا ...

ما يبدو الآن للوهلة الأولى من تقدم اسطوري في التكنولوجيا والخدمات والبناء والعمارات الشاهقة التي تناطح السحاب والأبراج الهائلة والشوارع الفسيحة والمتنزهات الفارهة والمصانع العملاقة والأجهزة المدهشة ... أنه باق إلى الأبد ، وأنه ماضٍ إلى مزيد من التمخض والابداع والتنامي ، فان كلمة الله (سبحانه وتعالى) ستكتسحه عبر لحظات من عمر الزمن ... ستكنسه من الطريق وتسوي به الأرض ، لكي لا يبقى بعدها سوى وجه الله سبحانه وتعالى ... سوى كلماته التي لا راد لها (جلّ في علاه) : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾(سورة الفرقان: الآية ٢٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴿٨﴾ ﴾ (سورة الكهف : الآيتان ٧-٨) ... الكل باطل الأباطيل وقبض الريح : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(سورة يونس : الآية ٢٤) ...

الدول والممالك والإمارات والحضارات ... الأشخاص والزعماء والأرباب والطواغيت ... العمالقة والأقزام ... الكل ذاهب ، ولا يبقى سوى وجه الله ... لا يبقى ثمة سوى وجه الله (سبحانه وتعالى) !

(٤٩)

يعجبني أن استرجع شريط ذكرياتي بين الحين والحين ، ليس فقط لكي أهرب من واقعي القاسي واستمتع باسترجاع وقائع ومعطيات الزمن السعيد ، ولكن أيضاً لكي أتعلم منه ... فليس ثمة معلم كحياة الإنسان نفسها وهي تتقلب وتموج وتضطرب وتتحول من حالٍ إلى حال ... اهرب إليها كلما ضاقت بي السبل وسدّت أمامي طرق الخلاص ، فأجد فيها السلوى والعزاء ، وأتمنى لو يتاح لي أن ارجع ثانيةً لكي أعيش بعض حلقاتها بكل ما انطوت عليه من سعادة وبهجة وفرح ودهشة وانسجام ورغبة في اكتشاف سرّ الأشياء ولكن هيهات ... وأقول في نفسي : لا بأس ، فانه مجرد تذكرها عبر لحظات الشيخوخة ... مجرد استرجاع وقائعها ومفرداتها وخفقانها ، كما تشكلت بالفعل ، قد يحقق شيئاً من المطلوب.

يوماً بعد يوم أجد خلاصي في استرجاع شريط ذكرياتي ... حينا مع حشود الأصدقاء والمعارف الذين رحلوا عن الدنيا ... وحينا مع الكتب والروايات التي كان لكل واحدةٍ منها طعم في فمي ووجداني لا يمكن أن أنساه ... وحيناً ثالثاً مع رحلاتنا العذبة الشهية إلى براري الموصل زمن الربيع ... وحيناً رابعاً مع جملة من المفارقات والغرائب زمن دراستي الابتدائية أو المتوسطة أو الاعدادية أو الجامعية ... وحيناً خامساً مع أسفاري إلى خارج العراق بكل ما انطوت عليه من خبرات وتفاصيل ... وحيناً وحيناً ... وفي أعقاب كل جولة مترعة من هذه الجولات التي لا تندّ مفرداتها عن ذاكرتي التي احتفظت بها كشيء عزيز ... أرجع وقد استعدت الكثير من فرحي وتوازني وانسجامي مع الحياة وكأنها قد بعثتني من جديد !

(٥٠)

تعرّضت للموت ، ليس مرةً واحدةً أو مرتين أو ثلاث ، وانما عشرات المرات ، وكنت أخرج من كل واحدةٍ منها وأنا أحمد الله وحده على أن منحني بسخائه العجيب فرصة الاستمرار على الحياة !

عشرات المرات وجدتني قبالة الموت وجهاً لوجه لكي ما ألبث أن أفلت من قبضته في اللحظة الأخيرة وأواصل الحياة !

عشرات المرات ويد الله القدير (جلّ في علاه) تمتد لكل تنتشلني من الهلاك المحتوم وأقول في نفسي : ما الذي يدل عليه هذا سوى أن إرادة الله سبحانه وتعالى تحيط بهذا الإنسان أو ذاك ، فتحرسه وتحميه وتنقذه من السقوط في مستنقع الموت ؟!

ربما ... ومن يدري ؟ لأنه شاء سبحانه وتعالى أن يمدّ في حياتهم لغرض ما ، غرض قد لا يتكشف بسهولة لعيوننا التي علاها الغبار وقلوبنا التي أكسدها الصدأ ... ولكنه شيء مؤكد طالما دفعني إلى بذل مزيد من الجهد في الكتابة والتأليف لعلي أفي بشيء من الدين الذي طوقتني به عناية الله ... ومن أجل ذلك ... من أجل أن أكون وفياً مع سخاء الله ، أممت حياتي كلها ، عبر جهد مكافح موصول ، وأنا أعاني الآلام والأوجاع ، وتحاصرني موجات قاسية من ضيق النفس الذي يسد علي منافذ الهواء ، اكافح عبره لالتقاط رشقة واحدة من الأوكسجين الذي يمكنني من مواصلة العمل ...

وها أنا ذا أخيراً بعد أن أوشكت بلوغ الثمانين من عمري ، لا تكف يدي عن الامساك بالقلم الساعات الطوال لكي تنجز الكتاب رقم مائة في سلسلة أعمالي التي لا ابتغي بها سوى أن تكون

وفاء للدين الكبير في عنقي ، ذلك الذي طوقني به الله (جلّ في علاه) ... وهو ينقذني من واقعة الموت المرة تلو المرة ؟

فهل يكون جزاء الاحسان إلا الاحسان ؟ وألا أكون وفياً معك يا من **لا إله إلا أنت ؟!**

(٢)
محاضرات

الكلمة التي ألقيتها في حفل التكريم الذي أقامه مكتب الأردن لرابطة الأدب الإسلامي العالمية

(في ربيع عام ٢٠٠٥م)

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه

أيها الأساتذة والأخوة الأحبة :

الاخوات الكريمات :

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

فلقد خشيت أن تنزلق بي الكلمات ... وتنزاح ، في هذه اللحظات المؤثرة فآثرت القراءة ...

كنت اعتبر نفسي – ولا أزال – تلميذاً لمؤسسي الأدب الإسلامي الكبار ... جندياً في الخطوط الخلفية محّض قدراته المتواضعة لهذا الهدف العزيز.

الأحبة – في ديار شتى – كما أنتم وضعتموني في غير موضعي ، وأخشى ما يخشاه الإنسان ، وبخاصةٍ أولئك الذين أوشكوا أن يبلغوا السبعين من العمر ، هو أن تذهب مناسبات التكريم أجرهم الباقي عند الله ...

إنها صفقة خاسرةً ، طالما أورثتني حزناً وندماً ... فمعذرةً ...

هذا هو التكريم الثالث الذي أناله بعد رحلةٍ أوشكت أن تبلغ نصف القرن ... مع (الكلمة) ...

التفت ورائي فإذا بالطريق طويل ... طويل ... مترع بالمسرة والمعاناة ... بالأفراح والأحزان ... بتحقيق المطلوب والرضا به حيناً ، وبالعجز عن تلبية نداء الطموح واغرائه في معظم الأحيان ...

قبل ثلاثة أعوام كان التكريم الأوّل عبر ملتقى البردة الثاني للأدب الإسلامي في مدينتي (الموصل) حيث أسعدني وابكاني أن يضع الأحبة على كتفي ما اعتبروه تقليداً للبردة التي منحها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شاعره كعب بن زهير ...

يومها لم أقدر على حبس دمعتين فكتا أسر الأهداب وانسابتا بعيداً ... وقلت مخاطباً إياهم: إن الإنسان الذي يبدأ رحلة الصعود إلى السبعين من عمره ، يحس كما لو أن الدنيا تتضاءل أمام عينيه ... تفقد الأشياء بريقها ... تتراجع الاغراءات ... وبكف اللهاث المحموم وراء نداءات الحياة الدنيا ... ويتمركز البصر في نقطةٍ واحدةٍ تتلامع في الأفق البعيد ... أن يجتاز المرء امتحان يوم الهول بنجاح ... وإلا فهو الخسران المبين ...

لنا الويل إن قيل للواحد منا يومها : لقد أردت أن يقال لك : عالم أو أديب ، فها قد قيل !

يومها وأنا أرتجف خجلاً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ... قلت لمئات الحاضرين قبالتي : ما يعزّيني أن أرفع يوم الهول هذه البردة قبالة النبي المعلم ، وأصرخ متوسلاً ملتاعاً : شفاعة يا رسول الله !

اليوم كذلك يغمرني الاحساس نفسه بالعزاء ، لأن التكريم لم يكن بحساب الدراهم والدنانير ، ولكن بشيء أكبر بكثير وأعزّ بكثير ...

لقد منحتموني محبتكم ، فبم أجازيكم ؟

سأرجع إلى أهلي وبلدي ، كما كنت أرجع دائماً في رحلة الأسفار أو الكلمات وقد أضناني عشق الجمال ... التعبير الذي يرسم بقوة الكلمة ونبضها المؤثر حلم كل مسلم في هذا العالم باليوم السعيد الذي تتناغم فيه الأشياء والخلائق والموجودات مع الايقاع الكوني للسماوات والأرض كما أراد لها الله (سبحانه وتعالى) أن تكون !

خمسون عاماً والأشياء الجميلة ... القيم النبيلة ، تغريني وتعذبني ، وينغرز نصلها الذهبي في روحي وفي أعصابي ...

خمسون عاماً والكلمة تسكنني وأسكنها ... لم تدعني لحظةً واحدةً التقط أنفاسي وأرتاح ...

أصبحت في نهاية الأمر نضواً ، متعباً ، مكدوداً ... والهدف بعيد ... بعيد ... فهل سيقدّر لي أن أواصل المسير ؟

هذه مناسبةً أخرى أرجو أن أنال فيها رضا الله ومحبتكم ... وإلا فهي الصفقة الخاسرة ...

أشكر المكتب الإقليمي للأردن لرابطة الأدب الإسلامي العالمية وكل القائمين عليه بدءً برئيسه الأخ الحبيب الدكتور مأمون فريز جرار ... اشكر المتحدثين الكبار الذين منحوني بسخائهم وكلماتهم أكثر بكثير مما استحق ، وعلى رأسهم الأخ الحبيب الأستاذ عبد الله الطنطاوي ... واشكركم أيها الاخوة الأحبة على تجشمكم عناء الحضور .. اشكركم ... اشكركم ... ولسوف يظل وفاؤكم الجميل يعرّش في قلبي قنديلاً أخضر حتى نلتقي هناك !

محاضرتي في مؤسسة (زهرة الحدباء) في أربيل / (تموز ٢٠١٧م)

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي وبناتي الأعزاء :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أبارك فيكم همتكم العالية ، وجهدكم المكافح في تقديم ما تقدرون عليه من دعم ومعونة لمدينة الموصل المنكوبة ... إنه مدخر لكم في حسابكم عند الله سبحانه وتعالى ، وهو مسجل في ميزان حسناتكم في الدنيا والآخرة ... والمهم هو ألاّ تبرد دماؤكم ، ولا يضعف عزمكم ، ولا يتضاءل عطاؤكم وأنتم تحاولون أقصى ما يقدر عليه الإنسان في محنة أليمة سوداء كهذه التي عصفت ولا تزال بمدينة الموصل التي أصبحت ركاماً ، وعوائلها وقد غاب عنها العائل ، وتيتم أطفالها ، وترملت نساؤها ، وفقدت دورها التي تأويها.

إن أي جهدٍ مهما ضؤل سيكون نقطة البداية والتأسيس لإعادة الحركة والحياة إلى هذه المدينة ، ولسوف ينضاف بعضه إلى البعض الآخر ، لكي يشكل رافداً من العطاء ما يلبث أن يصب في النهر الكبير.

هكذا أراد كتاب الله وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) منا جميعاً ... أن يعمل كل منا بأقصى درجات جهده المستطاع ، ويشغل يديه وعقله في أعلى حدود الاحتمال من أجل سدّ الثغرات التي انفتحت في مركب حياتنا قبل أن تجرفه المياه ... انني أتذكر ها هنا ، من بين حشود الآيات والأحاديث تلك التي تقول ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ (سورة التوبة : الآية ١٠٥).

والحديث الذي يحكي عن المركب ذي الطابقين الذي أراد أحد راكبيه في الطابق الأسفل أن يحدث ثغرة فيه ، وكيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حذّر راكبي الطابق الأعلى في أن يسارعوا للنزول إلى الأسفل وسدّ الخلل وإلا هلك الركاب جميعاً.

لقد انفتحت في جسد الموصل عبر مأساتها هذه ألف ثغرة وثغرة ، حتى ليخيل للكثيرين أنه ليس ثمة خلاص ، وأن المصيبة ستمضي بكل من في المدينة إلى القعر العميق ... ولكن هيهات ما دام في أبناء الأجيال الشابة المؤمنة عرق ينبض ، ورغبةً ايجابية متأصلة في التشمير عن ساعد الجد وتقديم ما يمكن تقديمه لسدّ أكبر قدر من الثغرات.

فبارك الله فيكم يا أبنائي الأعزاء وأنت تضربون بسلوككم هذا المثل الأعلى لقدرة المسلم على مجابهة التحديات والخروج منها منتصراً بإذن الله (سبحانه وتعالى)!

لقد دعوتموني للحديث عن مفاهيم التفوّق والابداع والتنمية البشرية ، وهي من المطالب التي أصبحت في قرننا هذا ضرورةً من الضرورات لكل شعب ولكل أمة ... أن يضع شبابها الواعد نصب أعينهم هذه الأهداف التي تمضي بالحياة صوب الأحسن والأرقى ، بحيث أنه ما من بلد من بلدان العالم ، من أقصاه إلى أقصاه ، إلا وهو يضرب على التور نفسه ، وينشئ المعاهد والمؤسسات لتحفيز الشباب على استنهاض قدراتهم كافةً من أجل التفوق والابداع والتنمية !

ونحن نرى ونسمع عبر القنوات الفضائية كافةً الخطاب نفسه في الندوات والملتقيات والمؤتمرات وبرامج الحوار ... التفوق والابداع والتنمية البشرية.

سأقف معكم بعض الوقت عند مهمة الأمة المسلمة في هذا العالم ، انها – باختصار شديد – مهمة حضارية ... مشروع حضاري كتب على المنتمين لهذا الدين أن ينفذوه في واقع الحياة ويحملوه إلى البشرية كافةً ، لكي يحيا الإنسان حياةً تستحق أن تعاش بما تنطوي عليه من عمق روحي ، والتزام أخلاقي ، واحترام لإنسانية الإنسان. ولنتذكر كيف أن القرآن الكريم وضعنا في قلب الفعل الحضاري ، وذلك من خلال مثلثه المعروف بأضلاعه الثلاثة : التسخير والاستخلاف والاستعمار (بالمفهوم اللغوي لا الاصطلاحي).

فما أكثر الآيات التي تتحدث عن تسخير العالم للإنسان ، وما أكثر الآيات التي تتحدث عن استخلاف الإنسان في هذا العالم. ولعل هناك من يتساءل : ما علاقة هذا كله بالنشاط الحضاري ؟ والجواب هو أن القرآن الكريم يؤكد في سياق ثالث أن مهمة الإنسان المؤمن في هذا العالم المسخر الذي استخلف عليه هي التنمية والاعمار والبناء والتطوير لقوله جلّ شأنه : ﴿ ... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴾(سورة هود : الآية ٦١) أي خلقكم لممارسة مهمة عمرانية حضارية تستهدف جعل العالم بيئة صالحة للهدف الأساسي من خلق الإنسان هو عبادة الله (سبحانه وتعالى) ، ليس بالمفهوم الشعائري الصرف المنعزل عن الحياة ، المنسحب من العالم ، وانما بمفهوم العبادة الإسلامي الواسع الشامل الذي يستهدف جعل كل عمل أو نشاط علمي أو عمراني أو حضاري في نهاية الأمر ممارسة تعبدية : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ (سورة الذاريات : الآيتان ٥٦–٥٧).

إذن فنحن بازاء عالم مسخر لنا ، وقد استخلفنا عليه لكي نعمره ونطوره ليكون بيئةً صالحةً لعبادة الله (سبحانه وتعالى) بمفهومها الإسلامي الحضاري الشامل. وفي ضوء ذلك يبدو المسلم في هذا العالم صاحب رسالة حضارية في مجابهة كل الحضارات الكافرة الملحدة ، أو الدينية المحرفة ، التي أذّلت الإنسان واستعبدت الشعوب ، وتجاوزت القيم الخلقية ، ووضعت الأسلاك الشائكة بين الأرض والسماء ، وساقت البشرية إلى الحفر الضيقة التي تكاد تختنق فيها : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيدِي النَاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(سورة الروم : الآية ٤١).

إننا كأمة وسط أريد لها أن تكون شاهدةً على البشرية ، مدعوون للمشاركة العالمية في المصير ، والعودة بالإنسانية إلى وضعها الطبيعي قبل أن تتفرق بها السبل. ومفكرو الغرب وعلماؤه وفلاسفته ومؤرخوه وأدباؤه ، يقولون هذا ويؤكدونه المرةً تلو المرة ، قبل ومع وبعد ، ما يقوله المسلمون أنفسهم ... إن الإسلام قادم بمشروعه الحضاري ... وفيه وحده الخلاص.

إن هذا الدين الذي ننتمي إليه جميعاً يقدم في كتابه وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ورصيده التشريعي الخصب ، شبكةً من الشروط والمواصفات التي يجب أن يتصف بها العمل الذي يرجى منه أن يتقدم بالأمة خطواتٍ إلى الأمام ، وان ينطوي على التفوق والابداع والتنمية البشرية.

وبإيجازٍ شديد إنه الاتقان الذي يأمر به رسولنا (صلى الله عليه وسلم) : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) و(كتب الله الاحسان في كل شيء) ، والتواصل حيث ترد كلمة العمل بتصريفاتها المختلفة ما يقرب من الثلاثمائة والخمسين مرةً في كتاب الله ، فيما يوحي بأن المطلوب من هذه الأمة هي أن تواصل العمل على مدى أيام العام كلّه ، حيث لا فسحةً لالتقاط الأنفاس ، ولا مجال للقعود والاسترخاء ... والمسارعة في الانجاز ، حيث نلتقي بجملة من الآيات التي تصف المؤمنين الجادين بأنهم : ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(سورة المؤمنون : الآية ٦١) بكل ما تنطوي عليه مفرد المسارعة والسبق من اختزال للزمن من أجل الوصول إلى الأهداف ! ... والارتباط الصميم بين العمل والايمان حيث لا انفصال بينهما بحيث أن أية آية لا يرد فيها العمل إلا وهو مقترن بالإيمان.

الحديث عن منظومة الشروط التي يتحتم أن يتميز بها العمل في الإسلام يطول ، ووقت المحاضرة لا يسمح بالاسترسال ، ولكني أحب أن أقف قليلاً عند مأساة التعليم في العراق وفي البلدان العربية والإسلامية كافة عبر عقوده الأخيرة.

إن مدارسنا ومعاهدنا ومؤسساتنا وجامعاتنا لم تعد تخرج المبدعين ، وانما أجيال من الأميين أو أنصاف المثقفين وأرباعهم ، وحلقة السوء تدور فتخرج المعلم السيء الذي يخرج الطلبة السيئين الذين يذهبون إلى الاعداديات والجامعات وهم لا يملكون بذرة الطموح ، والرغبة المتأصلة في التفوق والابداع ... وبما أن القراءة المتواصلة ، القراءة النهمة ، القراءة التي تمزج الليل بالنهار هي عصب الابداع والتنمية ، وبما أن هذه انطفأت منذ عقود عديدة من الزمن ، فلم يعد أحد من طلبة الاعداديات والجامعة ، بل من المنتمين للدراسات العليا ... بل من التدريسيين والأساتذة أنفسهم ... يقرأ ، بل يكلف نفسه بتقليب صفحات هذا الكتاب أو ذاك ، فكيف سيكون الحال ؟ لقد سألت أحد عشر طالب دكتوراه كنت ألقي عليهم محاضراتي في الفقه الحضاري ، كم من الكتب قرأها كل واحد منهم عبر عام (٢٠١١م) ؟ فإذا بالجواب أن اثنين منهم فقط قرأ كل واحد منهم كتابين فحسب ، والبقية الباقية لم يقرأوا عبر عام بأكمله كتاباً واحداً ... فما كان مني إلا أن أقول لهم انكم ستحصلون على شهادة الدكتوراه ، ولكن هذه لن تكون سوى رداءً مزيفاً يغطي على اميتكم ولسوف ينكشف عواركم أمام طلبتكم الذين سيسوقهم سوء الحظ للجلوس تحت أيديكم ...

إن نقطة الأساس لكل مطالب التفوق والابداع والتنمية البشرية هي التي تقود الأجيال الضائعة إلى تقاليد المطالعة الأصيلة ... المطالعة المتواصلة التي تلتهم الكتب والمصنفات التهاماً ... وتظل ملتزمةً بهذا التقليد حتى تدس أنوفها في التراب !

وكلكم تعرفون ما تمخضت عنه جهود اليونسكو من نتائج بخصوص المطالعة في بلدان العالم كله ، وهذه احداها : أن المواطن الغربي يقرأ عبر السنة الواحدة مائتي ساعة ، أما المواطن العربي فيقرأ خمس ساعات فقط ... فتأملوا !

وكنت أقول لطلبتي وأكرر القول بأن عشرين سنة من الدراسة الجامعية ومثلها من الجلوس وراء التلفاز والشاشات الصغيرة لن تخرج مفكراً ولا باحثاً ولا أديباً ولا مبدعاً ، وأن الذي يخرج هؤلاء هو الكتاب ...

لقد علمنا هذا الدين أن على الإنسان أن يعمل ، وأن يواصل العمل ، دون أن ينتظر نتيجة الحصاد ... المهم أن يضيف إلى رصيده الايجابي الذي سيحاسب على ضوئه يوم الحساب رصيداً مضافاً يضيق الخناق على خانة أعماله السيئة وما أكثرها ... والرسول المعلم (صلى الله عليه وسلم) يقول : (واتبع السيئة الحسنة تمحها) ، وهو نفسه (عليه أفضل الصلاة والسلام) عليه ألا ينتظر نتيجة جهده المكافح في حياته الدنيا : ﴿ ... فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(سورة غافر : الآية ٧٧) ... والمهم أن على الإنسان المسلم أن يواصل

العمل ، وألا ينكسر أمام الخسائر والتحديات ، وأن تظل شعلة الأمل منقدحة في نفسه حتى لحظات حياته الأخيرة ...

هذا ما تتطلبه الساحة في اللحظات الراهنة من أجل أن ننشئ أجيالاً تعرف تماماً كيف تلتزم بمفاهيم التفوق والابداع والتنمية البشرية ... أن نصغي جيداً لمطالب اللحظة التاريخية التي تتطلب المزيد من الجهد للتحقق بهذه المفاهيم ، ولكي نرى بأم أعيننا أجيالاً من الشباب تتحقق في سلوكهم القيمي والأخلاقي والمعرفي مطالب التنمية البشرية ، وإلا فهو الجهد الضائع الذي لا يؤول إلى شيء.

أبنائي وبناتي :

ما دمنا قد خصصنا هذه الكلمة لمدينتنا العزيزة ... مدينتنا الغالية ... مدينتنا التي سبق وأن أهديت إليها روايتي الأولى (الاعصار والمئذنة) قائلاً : " إلى مدينتي التي أحببتها إلى درجة العشق " والتي عملت على مدى عشر سنوات في حماية تراثها الأصيل ، مسؤولاً عن قسم التراث في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية ، حيث قمت بمعية عدد من الموظفين والموظفات في التجوال اليومي في احيائها القديمة لتسجيل من تنطوي عليه من أبنية تراثية سكنية وخدمية وتعبدية ، وتصوير وقائعها المدهشة ، وكتابة التقارير والدراسات عنها ، وتسقيط مواقعها على خرائط الكادسترو ، ولقد أنزلت ذلك كله ، لحسن الحظ ، في كتابي الذي يحمل عنوان (خطوات في تراث الموصل) الذي أصبح عبر المحنة الأخيرة ركاماً !!

ما دمنا قد خصصنا هذه الكلمة للموصل ، فدعوني أحكي لكم عن ذكرياتي عنها في خمسينيات القرن الماضي حيث كانت هذه المدينة أشبه بلوحة الموزاييك المنقوش بعناية ، بألوانه وتخطيطاته ، بما انطوت عليه يومها من مذاهب وقوميات وأديان متعايشة لم تشهد يوماً صراعاً أو اقتتالاً بين فئة وأخرى ، وانما كان الجميع يعيشون تحت مظلة التعاون والحياة المشتركة التي لا يكاد يكدرها شيء !

كانت هذه اللوحة تنطوي على المسلم والمسيحي والصابئي المندائي والايزيدي واليهودي (قبل مؤامرة ترحيلهم إلى فلسطين المغتصبة) ... على العربي والكردي والتركماني والشبكي والأرمني والآثوري ... على السني والشيعي ... بل انها كانت تنطوي من خلال المذهب الواحد على كل الفرق المسيحية التي تشكلت عبر التاريخ من سريانية وآرامية وكاثوليكية وآرثذوكسية وبروتستانتية ، وفرق شيعية متنوعة المشارب والاتجاهات ... فكان أبي الذي يملك محلاً للتجارة في باب السراي يستقبل في تعامله التجاري الكردي والآثوري والعربي والمسيحي ببشاشته ورحابة

صدره ... وكان بجواره محل لتاجر مسيحي وقبالته محل لتاجر يهودي شكل معهم علاقة يومية من الزيارات المتبادلة والرحلات المشتركة ، رغم أن أبي لم تكن تفوته صلاةً في المسجد ... وعندما كان يذهب إلى بغداد للتسوّق كان تجار الشيعة يستقبلونه بالأحضان ... انها الحياة التي أرادها الله ورسوله الكريم لأبناء هذه الأمة التي ظلت على مدار التاريخ تنبض بالوفاء والاخلاص لبعضها البعض الآخر ...

هل بقي شيء من هذا الذي عايشناه في الزمن السعيد ؟ وهل بقي شيء من تراث الموصل الذي سهرت على حمايته وتوثيقه ؟ لا شيء ... لا شيء ... ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمتي في مؤتمر مركز الزهاوي في السليمانية عن التعامل مع التراث في (خريف ٢٠١٧م)

- اصبح التراث عبر العقود الأخيرة ساحة تصول فيها وتجول ثلاث فئات من الباحثين :

–الفئة الأولى المنطلقة من زاوية الرؤية الماركسية تريد أن تلغي هذا التراث أو أن تحتكره بمساطرها الحادة المستمدة من ماديتها التاريخية وصراعها الطبقي.

–الفئة الأخرى من الانتقائيين الذين يحكمون معايير الظنون والأهواء في التعامل مع التراث.

–الفئة الثالثة من المنهجيين الذين يتعاملون بموضوعية وبروح علمية مع معطيات التراث.

- ولكن هذه الفئات الثلاث ما كان بمقدورها أن تحقق المقاربة المطلوبة من التراث.
- فالمسألة ليست مجرد جهود فردية يبذلها هذا الباحث أو ذاك وانما يتطلب عملاً مؤسسياً تتولاه الهيئات التي تضم جناحيها على المتخصصين في شتى جوانب التراث.
- وتعمل في ضوء منهج زمني يضع في حسبانه الخطوات التي يجب قطعها واحدةً تلو الأخرى ...
- وأنا لا زلت أذكر ذلك الجهد الذي بذلته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية بخصوص اخراج كتابها ذي المجلدات الأربعة عن (تاريخ التربية الإسلامية) ... حيث كُلفت بإنجاز بحثين لهذا المشروع أحدهما عن الرؤية التربوية لابن خلدون والآخر لحاجي خليفة.
- أيها الحضور الكرام إن مدة ربع الساعة المعطاة لكل متحدث لا تكفي للدخول في التفاصيل ولذا سأكتفي باثنتين :

أولاهما : تقديم بعض الخطوط العريضة عن المنهج المطلوب في التعامل مع التراث.

وثانيتهما : عرض سريع لخبراتي الشخصية في التعامل مع التراث.

خطوط عريضة :

أولاً : تصعيد الحوار بين الفكر الإسلامي المعاصر والأصول التراثية للإفادة القصوى من تلك الأصول ، والتجذّر أكثر من العمق الثقافي للفكر الإسلامي شرط أن يتم ذلك بأكبر قدر

من المرونة والحرية في التمحيص والفرز والانتقاء والتقبل أو الرفض ، وشرط ألا يتحول المعطى التراثي بنتيجة الالحاح المتزايد على احترامه والأخذ عنه ، إلى دائرة القدسية التي قد تجعله يمارس نوعاً من المصادرة أو التسلّط القسري على العقل الإسلامي المعاصر ، انما هو التوازن المطلوب من أجل التوصل إلى أكثر صيغ الحوار بين الماضي والحاضر فاعليةً وعطاء.

ثانياً : فرز وفهرسة المعطيات التراثية إذ أنها ستضع بين أيدي الباحثين المادة الجاهزة لأغراض التحقيق والدراسة.

ثالثاً : تحقيق النصوص والمقاطع المهمة التي لم تنل نصيبها الكافي من التحقيق والاهتمام.

رابعاً : دراسة وتحليل الأعمال التي لم تنل الاهتمام الكافي والتي لا تزال تنتظر من يعكف على دراستها لمعرفة ما يمكن أن تقدمه ، لاسيما تلك التي تعكس بعداً اجتماعياً لم تكد تمسه البحوث التاريخية إلا نادراً (من مثل بعض مؤلفات الجاحظ أو التوحيدي ، ومقامات الحريري أو الهمذاني أو الف ليلة وليلة أو بعض السير الشعبية ... الخ ...) مع التحفظ بطبيعة الحال ازاء مصداقية النصوص الأدبية.

خامساً : متابعة السياق النقدي لتراثنا الأدبي والتأشير على مدى ارتباطه أو انفصاله عن الثوابت الإسلامية.

سادساً : فحص طبيعة العلاقة بين القرآن الكريم والسنة النبوية وبين الدراسات الفكرية المعاصرة.

سابعاً : إقامة ندوات وفتح ملفات خاصةً في المجلات المعنية لمعالجة هذه الظاهرة أو تلك في تراثنا الخصب (من مثل التراث الأدبي الصوفي وصلته بالثوابت الإسلامية ، وعلاقات الأخذ والعطاء بين التراث الإسلامي وتراث الأمم الأخرى ، ومناهج المستشرقين في دراسة التراث الإسلامي ، والسير الذاتية في تراثنا الأدبي ، ومناهج تدريس التراث في جامعاتنا العربية والإسلامية ، والمرأة في التراث الإسلامي ، والطفولة في التراث الإسلامي ، وملامح المجتمع المسلم في المعطيات التراثية ... الخ).

إن التجذّر في التراث ليس ترفاً أو اختياراً ولكنه قدرُ كلِّ فاعلية ثقافية وتسعى لأن يكون لها مكانة في العالم ، وثقل على خرائطه ، من خلال تشبثها بالشخصية المتفردة ، والملامح ذات الخصوصية ، ولن يكون هذا بدون الامتداد صوب البعدْ التاريخي ، أو العمق التراثي للتحصن به والاستهداء بمعطياته ، جنباً إلى جنب مع الأصول العقيدية التي تشكل قاعدةَ العملِ الأساسية ، وبوصلة الانطلاق في بحار الدنيا.

خبرتي الشخصية :

- تبدأ بالمقال الذي كتبته بعنوان : (الإسلام ليس تراثاً) ونشرته في مجلة (العربي) الكويتية في أواخر سبعينيات القرن الماضي أردّ فيه وافندّ مقولات ميشيل عفلق في اعتباره الإسلام نفسه قرآناً وسنة نبوية من التراث.

وقعت المجلة بيد شبلي العيسمي الأمين العام للقيادة القومية فثارت ثائرته وأوعز للمعنيين بضرورة نقلي من جامعة الموصل كي لا اسمّم عقول الطلاب ، وما لبث الأمر الجامعي أن صدر في نقلي إلى المؤسسة العامة للآثار والتراث.

- كان الرجل قبل ذلك قد مارس نقداً فجاً غير علمي لجانب من كتابي المعنون (تهافت العلمانية).
- بمجرد استقراري في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية بالموصل صدر أمر تعييني رئيساً لقسم التراث في تلك المديرية وكان علي أن ابدأ من نقطة الصفر.
- شمرّت عن ساعد الجد ووضعت برنامجاً زمنياً مفصلاً للخطوات الواجب اتباعُها لحماية التراث الموصلي من التآكل والفناء واتصلت بالدوائر المعنية (كمديرية التخطيط العمراني) و(دائرة الأوقاف) و(بلدية الموصل) و(قسم الهندسة المعمارية في جامعة الموصل) واتفقت مع البلدية على عدم منح أية إجازة هدم لأي إنسان إلا بعد تمريرها على القسم ، ثم قمت بتشكيل لجنة تضم عدداً من موظفي وموظفات الدائرة ، حيث بدأنا على مدى السنوات الطوال في عملية مسح وتوثيق شاملة للمعطيات التراثية في مدينة الموصل القديمة من أقصاها إلى أقصاها.

كنا نتجول يومياً وعلى مدى الساعات الطوال في إحياء المدينة القديمة وأزقتها لتمشيط دورها وقناطرها وحماماتها وقيصرياتها وخاناتها وأسواقها ومقاهيها وأسوارها التاريخية وأبوابها العتيقة ، ونثبت مرئياتنا على استمارات خاصة ، وذلك بعد أن قمت بتقسيم المدينة إلى سبعة قطاعات كبيرة تفصل بين أحدها والآخر الشوارع الرئيسية.

ونرجع إلى الدائرة لكي ابدأ بكتابة البحوث والتقارير حول الموجودات التراثية لكل قطاع ، وأنزّل هذه الموجودات على خرائط الكادسترو ... ليس هذا فحسب بل تم تخصيص عدد من الخزانات لجملة كبيرة من الصور التراثية الملونة للعناصر المعمارية للدار الموصلية الغنية بمرمرها الأزرق الجميل والنقوش الغائرة على واجهاته ... وجملة أخرى من السلايدات ... كما تم الاتصال بأحد كبار الفنانين لرسم مجموعة من الصور لهذا الجانب أو ذاك من الحرفيات

والموجودات التراثية. كما قمت بتوظيف جهود طلبة الهندسة المعمارية في جامعة الموصل لأغراض التوثيق ، وعرضُت عدة مقترحات لتنشيط الحياة اليومية والسياحية في المناطق التراثية.

المهم أن هذا الجهد على مدى السنوات الطوال لقي القبول الحسن من المدير العام للدائرة الدكتور بهنام أبو الصوف ، ولكنه بمجرد عودتي ثانيةً إلى الجامعة حيث عملت ها هنا في كلية آداب جامعة صلاح الدين لمدة أربع سنوات ، مؤثراً إياها على ترشيحي للجامعة المستنصرية في بغداد ، تعرّض للسرقة والابتزاز ، وبعد سقوط العراق على يد الاحتلال الأمريكي لم يكد يتبقى منه شيء ... والمهم انني حاولت تدوين بعض حلقاته في كتابٍ لي أصدرته جامعةُ الموصل عام (٢٠١٠م) بعنوان : (خطوات في تراث الموصل).

فما الذي تبقى من التراث بعد محنةِ الموصل المعروفة ؟ لا شيء ... لا شيء على الاطلاق ... وكانت آخر الحلقات الدمار الشامل الذي لحق بالجامع النوري ومنارتِه الحدباء !!

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمتي في مركز الزهاوي في السليمانية في (خريف عام ٢٠١٧م)
في موضوع : الكتاب والأدباء

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحضور الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

أغلب الظن أن السؤال الذي يدور في أذهانكم جميعاً ، والذي طالما تلقيته من طلبتي والمتابعين لمحاضراتي على مدى سنين طويلة هو كيف يصبح الإنسان كاتباً ؟ وكيف يصبح أديباً ؟ وهو سؤال تنوء بالإجابة عنه العصبة أولو القوة ، ولابدّ إذن في لقاء كهذا من الاكتفاء بجملة من التأشيرات الضرورية ، وإلا فان الجواب سيطول ويتشعب ولا يصيب الهدف المطلوب ...

أما كيف يصبح الإنسان كاتباً فذلك أمرٌ ممكن لحشد كبير من أولئك الذين يملكون طموحاً كبيراً للكتابة في هذا الموضوع أو ذاك ، تعينهم على ذلك قراءاتهم المتواصلة التي تمزج الليل بالنهار ، والتي تعرف كيف تنوّع في قراءاتها من أجل مزيد من الخصب الفكري وتجاوز حالات الجمود والعقم ، فضلاً عن العمل المتواصل على المكتب ، ذلك الذي يلزم صاحبه بالجلوس يومياً ، وعبر الساعات الطوال ، للكتابة والتأليف ، والتي قد لا يجيئ بعضها بالمستوى الذي يقنع صاحبه ، فيمزقه ويمضي في محاولاته اليومية إلى أن تستوي معطياته على سوقها وتحقق شيئاً مما يطمح هو وقراؤه على السواء ...

أن يجد الإنسان في نفسه ، قبل هذا وذاك ، دافعاً ملحاً للتعبير عما يعتل في عقله ووجدانه ، ولتوظيف الكلمة التي بمقدورها أن تخرج هذه المعاناة في شكل بحث أو مقالة أو كتاب ... فإذا غاب الدافع الذي تشكله التأثيرات الوراثية والبيئية ، والسعي الكادح قراءة وتأليفاً ، فان ألف سنة من محاولات أن يصبح هذا الإنسان أو ذاك كاتباً ، لن تأت بطائل.

أما كيف يصبح الإنسان أديباً ، فتلك مسألة أخرى تتطلب الوقوف عندها بعض الوقت ، واسمحوا لي أن أجيبكم عليها من خلال خبرتي الشخصية فلعلها تقدم جانباً من الجواب.

لعلّه التكوين النفسي والمطالعات الأولى ... منذ اللحظات المبكرة كنت اتعامل مع العالم بجملتي العصبية ، كان تحسسي للخبرات والتجارب والأشياء مرهفاً إلى حدّ الاعياء ، باختصار شديد لقد كنت أعيش الحياة (انطباعياً) ... فاللون ، الصوت ، النأمة ، الحركة ... هذا الأمر الصغير أو ذاك ، يثير دائماً في نفسي رداً ، أو استجابة بشكل من الأشكال ... وكانت هذه

الاستجابات المتراكمة التي قد تتجاوز أحياناً معادلها المتوازن ازاء الخبرة ، تضغط علي ، تريدني أن أقول شيئاً أو أن افعل شيئاً ، وإلا آذت أعصابي ... ولقد حاولت أن استجيب للنداءات بمحاولات مبكرة في عالم اللون ... الرسم ... فلما اخفقت تحوّلت إلى الكلمة ... وكانت الكلمة بالنسبة لي ، ولا تزال ، ليست وسيلة أو فرصة للتعبير فحسب ، وانما لنقل احساسي بلون العالم، الأحمر والأخضر والرمادي ، للآخرين ، وبسبب من الارهاف الملح الذي شكل معظم الأدباء والفنانين ، تحولت الكلمة عندي إلى ريشة ترسم ، وتلوّن ، وتشكل القيم والخبرات ، لا مجرد أداة أو آلية للتوصيل.

منذ تفتح الوعي على الحياة ، والرغبة المتأججة في التعرف على الأشياء واكتشاف سرّها ، كنت اقرأ قصص الأطفال بشغف عميق ... كنت ارتشفها ارتشافاً. وانني لأتذكر جيداً ليالي الشتاء العميق والبرد والمطر ... بيوتنا العتيقة الضيقة والأحياء القديمة والجمر المشتعل الممتزج بالدخان ، وساعات القراءة الجذلى في القصص وكتب المطالعة المدرسية والمجلات ... ولم أكن اطالع السطور ولكنني كنت اخترقها بتوقٍ عارم لكي اعيش الحدث من الداخل ... أصير شخصاً من شخوصه ... وحينذاك كنت اضحك معهم وأبكي معهم ... اهتز وانبض وارتجف كما يهتزون وينبضون ويرتجفون.

بعدها ، ومع ازدياد قدرة العقل على المداخلة والامساك بتلابيب الخبرات والأشياء ... صار الأدب يقدم لي أطباقاً من حلوى الفكر ، بعيداً عن مماحكات التجريد والجدل الذهني الخالص ، انما من خلال الوقائع والشخوص والمرئيات وهي تكتسي لحماً ودماً فتغدو أكثر دهشة وأشد تأثيراً ...

أذكر ايضاً شيئاً ما ، يتذكره كل الشعراء والأدباء والفنانين الذين يجيئون إلى الحياة بحساسية مفرطة تجاه العالم والوجود ... قبالة الكلمة وهي تئن وتتوجع ... ازاء الأشياء والخبرات التي تنث روعةً وجمالاً ... حساسيةً تكاد تصل بهم إلى حافات السقم والمرض لأن فاصل الألم بينهم وبين العالم يكاد يغيب ... يتلاشى ... وتصبح جملتهم العصبية. وجدانهم ، أجهزة استقبالهم الحسي ، روحهم المتحفزة ، مكشوفةً تماماً ... مكشوفةً حتى لرفّة عصفور ، أو صوت خفي لا يكاد يسمع ، ولكنه يصلهم ، يخفق في ضلوعهم ويقول لهم شيئاً كثيراً.

في حالة كهذه تصير الكلمة ، التعبير ، المعالجة الجمالية ، المنقذ الوحيد للتخفف من العذاب ، أو ما يسميه أحمد شوقي (الألم العبقري) ، وهو يعني ما يقول ... نوعاً من التطهر (الكاثرسيس) إذا استخدمنا عبارة أرسطو وهو يتعامل مع التراجيديات اليونانية.

أن تصير أديباً ليس خيارك ، ولكنه قدرك ... مرغم أنت على أن تكون أديباً ، وإلا أكلك الهمّ وغدوت حطاماً ...

بالكلمة يقوم أولئك الذين منحهم الله (جلّ في علاه) (وصفة) خاصة لا استطيع التعبير عنها ... مزيجاً من الدهشة والحزن والفرح والعشق والبهجة والتوق لاكتشاف المجاهيل ، والرغبة القاهرة في تحويل هذا كله ... إخراج هذا كله من تحت الضلوع وتشكيل لوحة أو نشيد أو قصيدة أو شيئاً من النثر مترع بالعفوية والنداوة والصدق.

تلك هي البدايات الأولى التي ينبني عليها المصير ... إن شبكة معقدة من التأثيرات ... منظومة من العناصر الفاعلة ترغم الإنسان على أن يكون أديباً ... فلا تسلوا أحداً مرةً أخرى ، كيف كان هذا الذي كان ، فهي المملكة التي لا يُسأل الداخلون إليها لماذا دخلوا !!

والآن أريد أن انتقل بكم من الخاص إلى العام ، ذلك الذي يتحدث عن حركة الأدب الإسلامي المعاصر وضروراتها ... كيف بدأت ، وكيف استوت على سوقها ، وكيف أصبحت أمراً واقعاً يسلّم به الكثيرون ممن كانوا لا يعترفون بوجوده !

إن هذا يبدو واقعاً في العقود الأخيرة على وجه الخصوص ، ولسوف يزداد وضوحاً في المستقبل القريب بإذن الله سبحانه وتعالى ... لقد جابه أدباء الإسلامية تحدياً كبيراً والحق يقال ، ولكنهم قدروا على أن يجتازوه بقدر طيّب من النجاح ، وهاكم سيلاً من الأعمال الدراسية والنقدية والابداعية تخرج على الناس بكثافة تلفت النظر ، بحيث أن محاولة كتلك التي قام بها الأخ الدكتور عبد الباسط بدر في (فهرسة مكتبة الأدب الإسلامي) ، تضع بين أيدينا مئات المؤلفات والبحوث وستضع في أجزائها القادمة مئات أخرى من الأعمال الابداعية. فماذا يمكن أن يقال عن المستقبل ؟ وهاكم أيضاً فلأول مرة في تاريخ الأكاديمية يفرض هذا الأدب حضوره في أروقة المعاهد والجامعات ، فتكتب عن البحوث والدراسات ، وتقدم الرسائل والأطروحات للمراحل الدراسية المختلفة بدء من الليسانس وانتهاءً بالدكتوراه. ويجب أن ننبه إلى أن الدوائر الأكاديمية التي تقبل هذه الممارسة المتزايدة ، دوائر لم تكن تعترف إلى عهد قريب بشيء اسمه الأدب الإسلامي ، والأساتذة الذين يشرفون ويناقشون ويقرّون درجة ما لهذا البحث أو ذاك عن الأدب الإسلامي قد لا يكونون أساساً من الإسلاميين ، بل إن معظمهم من أولئك المتأثرين بتيارات النقد الغربي.

وإلى جانب هذه الدوائر فان أقسام اللغة والأدب العربي في العديد من الجامعات العربية والإسلامية ذات التوجه الإسلامي ، قد أقرّت هذا الأدب الوليد في سياقاتها المنهجية وأعطته المساحة الواسعة التي يستحقها. وقد زاد هذا التوجه عرضاً وعمقاً ، الجهود القيمة التي تمارسها

(رابطة الأدب الإسلامي العالمية) التي تشكلت في بدايات عقد الثمانينيات من القرن الماضي، ولقد كانت بحق البداية الصحيحة للمّ الطاقات وبرمجتها وجعلها تصب في البؤرة التي مزقت حجب الجهل والتجاهل ، ووضعت في دائرة الضوء واحدةً من أشد معطيات الإنسان الأدبية ارتباطاً بقضية الإنسان وهمومه ، وأكثرها نقاءً وطهراً ، قبالة عالم يكاد يختنق بالدنس ، وفسادٍ يلف البر والبحر والسماء بما كسبت أيدي الناس.

بل إن الساحة أخذت تشهد ندوات ومؤتمرات خصبةً تعقد هنا وهناك ، تحمل هموم هذا الأدب ، وتتابع حلقات القوة والضعف فيه وتقدم البدائل المناسبة. هذا فضلاً عن جملة من المجلات المتخصصة التي تعالج قضايا هذا الأدب تقف في مقدمتها مجلة (الأدب الإسلامي) التي تصدرها الرابطة ومجلة المشكاة في المغرب وغيرهما كثير.

إن هذا الأدب يعد ضرورةً من الضرورات القصوى على مستوى الإنسان ، بما أنه تعبير جمالي عن الرؤية الإسلامية للكون والحياة والوجود ... بما أنه انعكاس للحالة الايمانية العليا ... الحالة المتألقة الفريدة ، بعد اندحار الأديان وانحرافاتها ، في عالم يتفكك وينحدر بسرعة صوب مستنقعات العفن والرذيلة والشذوذ والجريمة والانحراف ، وفقدان طعم الأشياء ... عالم يقود الإنسان المحاصر إلى الخمر والحشيش والأفيون والمغيبات ، ويجابهه بالايدز والقتل والانتحار ... عالم ضيّق يتحول شيئاً فشيئاً إلى نقرة معتمة يضيع فيها كل شيء جميل ، ويصير الوجود صراعاً حشرياً من أجل التكاثر والبقاء ... عالم كهذا يغدو أشد حاجةً إلى الصوت الذي يدله على طريق الخروج ... الرؤية الجميلة المؤثرة التي تقوده إلى الضفاف البعيدة حيث يستعيد كل شيء نبيل قيمته وحضوره ... إن الأدب الإسلامي لهو واحد من أكثر الاعانات قدرةً على الفاعلية في عملية الخروج المنتظرة للإنسان المتآكل ، من ضيق الدنيا إلى سعتها ، بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى.

ولابدّ أخيراً من التأكيد على أن الأدب الإسلامي المعاصر لن يتحقق بمكانته في الأرض ، ويخطو نحو العالمية ، ما لم يول الأدباء الإسلاميون الاهتمام البالغ لمسألة التقنيات الفنّية والقيم الجمالية وعدم الالتصاق بالمضمون ، وإلا أصبح عطاؤهم – كما يقول الجاحظ – " معانٍ مطروحةً على قارعة الطريق " ... ومع التأكيد على القيم الجمالية هنالك ضرورة الانفتاح على ساحة الأدب الغربي تنظيراً ونقداً ودراسةً وابداعاً ، مع الحذر من الذهاب بعيداً بالتجاه الخلفيات التنظيرية والفلسفية الضالة لهذا الأدب الذي أراد حداثيوه ، ليس فقط أن يلغوا الكثير الكثير من القواعد والمواصفات والثوابت الفنية في المعمار الأدبي ، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا فقتلوا

الإنسان ، وتجرّؤ على الله (جلّ في علاه) وحاشاه ، وأغرقوا أنفسهم وإبداعهم ، كما يقول (فاولي) في كتابه (عصر السريالية) في عالم الجنون والدجنة !!

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمتي في ندوة مركز الزهاوي في السليمانية في (خريف عام ٢٠١٧م)
في موضوع : فقه الخطاب الدعوي

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحضور الكرام ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

فنحن أمة متفوقة إلى حدٍ كبير في هدر الفرص والطاقات ، ولهذا نزل بنا من المحن والبلايا ما لم ينزل بأمة أخرى في الأرض مصداقاً للآية الكريمة : ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ... ﴾(سورة النساء : الآية ١٢٣) ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ... ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٦٥).

أيها الأخوة الدعاة : هنالك جملة من الأمور التي يتحتم أن نشير إليها في لقاء كهذا يستهدف ترشيد الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) ، وتجاوز الأخطاء والمطبّات التي وقعت فيها واعاقتها عن مواصلة الطريق ، وأولى هذه الأمور هي الالتزام بقيم السلوك التي أمر بها هذا الدين ، والتي فتحنا بها نصف العالم زمن تألقنا الحضاري ... ما الذي حدث لكي ننكفئ على أنفسنا ونتخلى عن هذه القيم من صدقٍ وتضحيةٍ وايثار ومحبة وطهر ونظافة وتعاون ... الخ من تلك الصفات التي أصبحت لدى الأجداد بمثابة بديهيات في التعامل مع الآخر وقادتهم إلى كسبه وإقناعه ؟!

وبنظرةٍ بانورامية سريعة على سلوك أجيالنا الأولى ، وتلك التي كتب عليها أن تنوء بأعباء الحياة المعاصرة ، سنضع أيدينا على واحدٍ من أكثر العوامل أهميةً في وضع الحواجز والسدود أمام الدعاة لكسب الآخرين ... الوجه المعتم ... والبشاشة الضائعة ، والكلمة الطيبة التي دفنت في الأعماق ، والاثرة والأنانية ، وغياب الصدق في الأعمال والمواعيد ... و ... و ... إلى آخره من المواصفات المضادة للسلوك الايجابي الفعال الذي يعرف كيف يمدّ الجسور للآخر ، ويفتح صدره لكل ما هو نبيل مضيء في هذا العالم.

لقد سمي ديننا وشريعتنا بالحنفية السمحاء التي تعرف كيف تتعامل مع الذات ومع الآخر ، بأكبر قدر من درجات المرونة والانفتاح والسماحة ، ولكن الذي حدث عبر العصر الحديث هو أن الكثير من الدعاة ذبحوا هذا كلّه واحلّوا محله سكين الغلوّ والتشدد.

أيها الدعاة الكرام ، إن علينا ألا نتعامل بالمسطرة الصارمة مع الوقائع والمستجدات والتحديات ، أن نستجيب بدلاً من ذلك لمطالب اللحظة التاريخية ، أن نفتح آذاننا التي غطاها الشمع الأحمر على هذه المطالب فنمارس ما تتطلبه بالتحديد ، بدلاً من أن نضرب ذات اليمين وذات الشمال على غير هدىً ... فحيثما تطلبت اللحظة نشاطاً تربوياً هادئاً أدرنا ظهورنا باتجاه العمل الجهادي ، وحيثما تطلب الأمر وعياً سياسياً أدرنا ظهورنا باتجاه الوعظ والتعليم ، وحيثما تطلب الأمر الابتعاد عن فكرة إقامة الدولة ، أدرنا ظهورنا للتحديات التي تجابهنا واقتحمنا الميدان ونحن لا نملك البرامج ولا القدرات على اجتياز المطلوب ... وهكذا لم نعد نعرف على وجه اليقين ما تتطلبه اللحظة التاريخية فضعنا ... وكان علينا أن نتعلم من رسولنا المعلّم (عليه أفضل الصلاة والسلام) الذي كان بفقهه النبوي العميق يعرف كيف يتعامل مع كل حالة بما تتطلبه تماماً : صبراً على تحمل الأذى ، وجهاداً بالسيف ، وتصالحاً مع الخصوم ، ونشاطاً ديبلوماسياً ، وعملاً سرياً ، وانصرافاً إلى بناء الإنسان المسلم بالعقيدة ، والدولة الإسلامية بالشريعة ... إلى آخره ... لقد كانت إحدى مقاتل الحركات الإسلامية في العصر الحديث هي في غياب هذا المنظور ، وإقفال العقول والقلوب على مطالب اللحظة التاريخية وطبيعة تحدياتها ... لقد نزفنا عبر هذا التخبط كثيراً وآن لنا أن نوقف هذا النزيف !

يرتبط بهذا ضرورة تفعيل الفقه في مستوياته العليا وعدم الانكفاء على فقه الأقضية العابرة والنوازل السريعة ... الفقه المقاصدي ، فقه الموازين ، فقه المصالح المرسلة ، فقه الواقع ، الفقه الحضاري ... فان هذه المستويات العليا من التعامل مع فقهنا الخصب بفضائه الواسع وسمائه الكبيرة ، هي التي تعرف كيف تقودنا في اللحظات الراهنة عبر سبل الخلاص والقدرة على تفعيل الدعوة بأقصى وتائرها من التأثير والانجاز.

ثمة كلمة موجزة أحب أن أقف عندها بخصوص الفقه الحضاري ، ذلك الذي يعنى بشبكة وشروط وقوانين الحركة التاريخية ، أو سنن الله العاملة في التاريخ ، تلك التي تنشئ الدول والحضارات أو التي تقودنا إلى الانحلال والأفول ، فيما لم تلتفت إليه مناهجنا التعليمية في المعاهد والجامعات ، وفيما يعد من الضرورات الثقافية للداعية المسلم ... ولقد سبق لابن خلدون في مقدمته الخصبة أن وقف طويلاً عند هذه المسألة قبل قرون وقرون من (أوغست كونت) الذي يدعي الغربيون بأنه مؤسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، ولقد سبق هذين كتاب الله (سبحانه وتعالى) الذي تنطوي صفحاته على شبكة مدهشة من شروط الانبعاث والأفول ...

أيها الأخوة الدعاة نحن عبر العقود الأولى من قرننا الحادي والعشرين هذا نشهد بأم أعيننا انفجار المعاهد والجامعات ، وقيام الندوات والمؤتمرات ، تلك التي تؤسس وتتحدث عن مفاهيم

الابداع والتفوّق والتنمية البشرية ، والمستدامة ... الخ وعلينا جميعاً أن نلاحق مستجدات هذا التحدي الجديد في التأكيد على مفاهيم العمل في فكرنا الإسلامي ، وعلى أن يكون عملاً مبدعاً ومتقناً كما أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) و(كتب الله الإحسان في كل شيء) ... ومتواصلاً يعرف كيف يمزج الليل بالنهار ، ويؤمم الحياة كلها للإنجاز ، حيث أننا نجد مفردة العمل بتصريفاتها المختلفة ، ترد في كتاب الله فيما يقارب الثلاثمائة والخمسين مرة ، بعدد أيام السنة التي يتحتم على المسلم الا يستسلم فيها يوماً واحداً للكسل والاسترخاء والقعود ... هذا إلى ضرورة المسارعة في الانجاز فيما تؤكد عليه جملة من الآيات التي تصف المؤمنين الجادين بأنهم : ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾(سورة المؤمنون : الآية ٦١) بكل ما تنطوي عليه هاتان المفردتان من دلالات زمنية ... وحيثما وردت مفردة الايمان في كتاب الله كان لزماً أن ترتبط بالعمل ، فهما وجهان لحالة واحدة.

إن علينا أن نعمل ، ونواصل العمل ، دون أن ننتظر نتيجة حصادنا في الدنيا ، فحتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يطلب منه ذلك : ﴿ . . . فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾(سورة غافر : الآية ٧٧) ، وهذا يعطينا الحافز لعدم اليأس والاستسلام والقعود ، وللتشمير عن ساعد الجد بانتظار الثمار الخصبة الواعدة في يوم الحساب !

إن الإنسان المسلم هو مشروع دائم للصعود إلى أعلى ، عبر محطات الاسلام فالإيمان فالتقوى فالإحسان ، هنالك حيث يؤدي كل عمل بأقصى وتائر الابداع والإحسان ، وحيث تصير العبادة الإسلامية مشروعاً حضارياً وليس مجرد وظيفة طقوسية أو شعائرية ... حيث يغدو كل عمل يبتغي وجه الله عبادةً يتقرب بها الإنسان إلى خالقه (جلّ في علاه) ...

ثمة ما يجب أن يشار إليه من أجل أن يكون الداعية قديراً على التأثير في الآخرين ، وهي ألاّ يقف عند حدود المعرفة الإسلامية وحدها بل أن يضيف إليها رصيداً طيباً من المعرفة الإنسانية ، من علوم التاريخ والدراسات الحضارية ، وعلم الاجتماع والنفس ، والإدارة والسياسة ، والاقتصاد ، والآداب والفنون ... أن يمتلك فضاءً معرفياً عريضاً وسماء كبيرة تمكنه من اختراق مطالب العصر وتحدياته لكي يرفع خطابه المؤثر القدير على بناء جيل من المنتمين الجادين لهذا الدين ... ولنتذكر الخط الطويل من كبار الدعاة الإسلاميين في العصر الحديث ، أولئك الذين امتلكوا ، إضافةً إلى معرفتهم المعمقة بالعلوم الإسلامية ، قدراً كبيراً من المعرفة الإنسانية في سياقاتها كافة : الندوي ، المودودي ، سيد قطب ، محمد قطب ، محمد الغزالي ، القرضاوي، محمد

عمارة ، السباعي ، القره داغي ، وغيرهم كثيرون ممن صاغوا أجيالاً من المنتمين إلى هذا الدين، وغذوا المكتبة الإسلامية المعاصرة بعطائهم الثرّ ...

وأخيراً ليس آخراً ، فان الله جميل يحب الجمال ... ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . . . ﴾(سورة الأعراف : الآية ٣١) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ. . . ﴾(سورة الأعراف : الآية ٣٢) ذلك أن الشخصية البشرية القديرة على التأثير في الآخرين لابد أن تلتزم في مظهرها ، ولباسها ، بل وحتى في مشيتها قدراً كبيراً من الاهتمام الذي يفرض شخصيتها على الحضور ، ويزيد من قدرتها على كسبهم والتأثير فيهم ، وهم يرون بأم أعينهم داعيتهم الكبير وهو لا يغفل عن مطالب دعوته إلى الله بالتجمل والتزّين ... وقوة الشخصية ، وعدم الانكسار ، وتجاوز الظهور بمظهر الضعيف المنحني ، مقوس الظهر ، الذي يسعى لكسب رضا الله بتصرفه هذا ، وهو لا يدري أنه بذلك يبحر في الاتجاه المعاكس لمطالب هذا الدين الذي كان رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) يتزين ويتعطر وهو يغادر بيوته للقاء الآخرين وتعليمهم ...

أيها الشيوخ الكرام ، هذا ما سمح به الوقت للحديث عن جوانب محدودةً من فقه الخطاب الدعوي ، وهنالك غيرها الكثير ...

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمتي في ندوة مركز الزهاوي في السليمانية في (خريف عام ٢٠١٧م)
في موضوع : (رسالة المسجد : الأئمة والخطباء)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الحضور الكرام ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد سبق لي وأن كتبت بحثاً تفصيلياً من ثماني حلقات ، نشر ضمن كتابي (أولى ملاحم القرن) بعنوان (المسجد الجامع منطلقاً وملاذاً) ويمكنكم الرجوع إليه للاطلاع على التفاصيل.

ولكني عبر لقائنا هذا أريد التأكيد – مرةً أخرى – على الدور المؤثر للمسجد الجامع في سياقات شتى أبرزها ولا ريب : التربية والتعليم ، والقضاء ، والنشاط الدعوي ، وحماية اللغة العربية ، والمقاومة ضد المستعمرين والطواغيت ، حيث من باحاته كانت تنطلق التظاهرات المتواصلة لرفع صوت الأمة في مواجهة الخصوم والحكام.

إنه الحلقة الأخيرة المحصّنة التي يصعب اختراقها ما دامت قد انشئت في الأساس لتكون مقراً لأداء الصلوات اليومية وعبادة الله (جلّ في علاه).

ولقد فشلت كل محاولات الخصوم في اختراق المسجد الجامع وشلّ فاعليته ، وكلنا يذكر ما فعلته هذه المؤسسة المباركة في الجزائر حيث انطلقت منها أصوات المعارضة للغزو الفرنسي ، والجهاد في سبيل تحرير الوطن وحماية التراث واللغة التي قررت السلطات الفرنسية الاستعمارية استئصالها من الوجود لإلحاق الجزائر بما كانوا يطلقون عليه (الوطن الأم : فرنسا) ، وكيف أذن الله لجبهة التحرير الجزائرية أن تنطلق من قلب المسجد الجامع ، وتكافح على مدى السنين الطوال حتى منحها الله (جّل في علاه) النصر على الأعداء.

وكلنا يذكر – كذلك – ما فعله الأزهر من التصدي للحملة الفرنسية الجائرة على مصر ، ومجابهة الغزاة ، بل واغتيال كلبرت الرجل الثاني بعد بونابارت في حكم مصر ، حيث قام سليمان الحلبي ، بترتيب مصرعه والتخطيط له في مقرّه في الجامع الأزهر ... وما فعلته مساجد الزيتونة والقرويين في تونس والمغرب من حشد الأمة لمجابهة اصرار فرنسا على طمس هوية الأمة عقيدةً ولغةً وثقافةً ، وخروجهما منتصرين.

ولقد كانت أعتى المحاولات لاختراق المسجد الجامع ، ما فعلته المخابرات المصرية في منتصف ستينيات القرن الماضي ، حيث أصدرت جملةً من التعليمات المطبوعة التي جاوزت العشرين صفحةً ، تخطط فيها لاختراق مساجد مصر وإرغام المواطنين فيها على ألا يمارسوا فيها

سوى الصلاة المفروضة ثم يغادرونها مسرعين ... ورغم ضراوة الحملة فقد انتهى بها الأمر إلى الاخفاق الذريع ، وظلت المساجد تمارس دورها التعبدي جنباً إلى جنب مع الأنشطة الدعوية والتعليمية بل وحتى السياسية !!

ومنذ عمق زمني بعيد كانت مساجد بغداد ودمشق وقرطبة ، وغيرها ، تلك المنتشرة في طول عالم الإسلام وعرضه تمارس دورها الأصيل في التربية والوعظ والتعليم ، وفي تحفيز الأمة على مقاومة الغزاة ...

كان ابن الجوزي – على سبيل المثال – يلقي خطبة في أحد جوامع بغداد ، حيث تغص باحات المسجد وكل الشوارع المحيطة به بالمستمعين الذين كان يعرف كيف يضرب على أوتارهم الحساسة بخطبه المؤثرة الذي تداعى لها المعجبون من مشارق الأرض ومغاربها ... وكان سبطه يقف في جامع دمشق بعدة الجهاد ، لكي يلقي خطبه النارية ، مستجيشاً بها أبناء أمته لتقديم دمائهم واموالهم في مجابهة الغزاة الصليبيين ، وكيف كانت باحات المسجد الأموي تتلقى دفقات من الدراهم والدنانير والذهب والفضة ، بل حتى شعور النساء اللواتي كن يقطعن جذائلهن لكي يقدمنها لجماً لخيول المجاهدين ... وكان السبط يخرج بالمصلين إلى ساحات القتال ضد الصليبيين فيحقق جملة من الانتصارات التي حدثنا عنها المؤرخون.

كان العلماء والخطباء والفقهاء – يومها – يقودون الحياة !

أما خطبة الجمعة ، ذلك الخطاب الاعلامي المؤثر الذي استكمل سائر شروطه الضرورية من حضور الجماهير الملزم ، وانصاتهم ... ومن تغطيته الزمنية والمكانية لكل شبرٍ من عالم الإسلام ، فلقد تحدثت عنه بالتفصيل في كتابي الذي صدر أخيراً عن دار ابن كثير في بيروت بعنوان (أخطاء في حياتنا الإسلامية) ، ويمكنكم الرجوع إليه ... تجاوزاً للتكرار ...

وأريد أيها الشيوخ الكرام أن أختم كلمتي هذه بضرورة أن يكون للإمام والخطيب تكوينه الثقافي الواسع ، وفضاؤه المعرفي الذي يتمكن به من مخاطبة جماهيره بأقصى درجات الاقتناع ، والرؤية النافذة لما تشهده الساحات المعاصرة من متغيرات وتحديات ... بمعنى أن يلّم بجانبي المعرفة معاً : الجانب الشرعي من علوم القرآن والحديث والعقيدة وأصول الفقه والفقه ... الخ والجانب الإنساني من علوم التاريخ والجغرافيا والاجتماع والنفس والإدارة والسياسة والاقتصاد والآداب والفنون ... وبدون هذه المعرفة الشاملة التي تلّم جناحيها على تأسيسات المعرفتين معاً ، لن يكون بمقدور الخطيب والفقيه ، أن يرفع خطابه المؤثر الفاعل وأن يصل به إلى وجدان الآخرين وعقولهم ... ولن يتحقق ذلك إلاّ بالقراءة المتواصلة التي تمزج الليل بالنهار ، في شتى أنماط المعارف والعلوم من أجل أن تستعيد قيادات هذه الأمة دورها الضائع في زمننا هذا ،

وتشير إلى طريق الخروج من المحن التي تكاد تأتي عليها من كل مكان ، فيما سبق وأن حذّر منه رسولنا المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) عندما قال : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها) فلما سأله الصحابة الكرام : (أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟) كان جوابه (بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل) ... فمن أجل ألا نتحول إلى قصعة يولم عليها المولمون من مشارق الأرض ومغاربها ، علينا أن نتذاكر للبحث عن نقاط الخلل في مسيرتنا الدعوية ... ولعل احدى أكبر النقاط هذه هي الهزال الثقافي الذي يعاني منه خطباؤنا والعديد من علمائنا وتحوّلهم إلى أبواق للسلطات الحاكمة ووعاظ للسلاطين ...

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الكلمة التي طلب مني القاؤها في افتتاح ملتقى الفكر النورسي بإسطنبول في (تشرين أول عام ٢٠١٧م)

ولم يتح لي الحضور بسبب توقف الطيران من أربيل

بسم الله الرحمن الرحيم

اخوتي واخواتي ... أبنائي وبناتي ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جئتكم من وطني الجريح العراق ، ومن بلدي المذبوح من الوريد إلى الوريد : الموصل ... وإذا كان أهل بلدي قد حزنوا مرةً واحدةً فان حزني كان مركباً ...

فلقد أتيح لي أن أكون مديراً لقسم التراث في المديرية العامة لآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في ثمانينيات القرن الماضي ... بذلت جهداً مكافحاً لحماية تراث مدينتي الموصل ، وعلى مدى سنوات طويلةً كنت أخرج وثلةٌ من الموظفين والموظفات لكي نجتاز المدينة في جانبها الأيمن بيتاً بيتاً وزقاقاً زقاقاً ونحن ندوّن ونصوّر كل ما عايناه من دور وازقة وقناطر وحمامات وقيصريات وخانات وأسواق ومطاعم وحرفيات ومؤسسات تعبدية ، لغرض توثيقه بالبحث والدراسة والخارطة ... اتصلت بكل المؤسسات المعنية بالهم التراثي من أجل حماية ما تبقى (البلدية ، الأوقاف ، التخطيط العمراني ، وجامعة الموصل) أوقفنا منح إجازات الهدم والبناء من أجل الحفاظ على شخصية الموصل التراثية.

بعد ذلك بسنوات قمت بلّم كل هذا الجهد وانجزت كتاباً يحمل عنوان : (خطوات في تراث الموصل) ، فما الذي تبقى من هذا التراث ؟ لا شيء ... لقد تحوّل الجانب التراثي في أيمن الموصل إلى خراب شامل ، وكانت آخر المعاول التي تلقاها : تفجير الجامع النوري الكبير ومنارته الشامخة : الحدباء !

وسط هذه المحنة ليس لي إلا أن أرجع إلى كلمات النورسي وتعاليمه التي تعرف كيف تداوي الجراح ! ... يا بديع الزمان لقد تعلمت من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وها نحن ذا نتعلم منك ... نتلقى القناديل الخضراء التي تنير لنا الطريق ونحن نجتاز المحن والويلات ، فتمنحنا القدرة على التحمل والأمل العميق بالنصر الموعود ...

منك نتلقى التعاليم التي تنزل مطرها الغزير على الأرض الموات فتمنحها بإرادة الله سبحانه وتعالى جناتٍ وارفة العطاء ... يا بديع الزمان ، يا من اخترت مكانك في عليين ورحت عبر رسائلك المائة والثلاثين تنظر من فوق إلى العالم نظرة طائر ، فتري تلاميذك الأبيض والرمادي

والأسود ، وتضع يديك على المسرّات والأحزان ، وتمضي لكي تؤشر على رحلة الليل والنهار ...

أنت يا بديع الزمان من تنظر برؤيتك الايمانية التي تشف وتشف حتى تخترق جدران المادية إلى ما وراءها ، والمظاهر الزائلة إلى الأبدية ، والتعاقب الذي يلفنا جميعاً إلى ما وراءه من ثواب أو عقاب ... أنت يا بديع الزمان من يرى في الدنيا كما اراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون في وعينا وإحساسنا : لحظةً عابرةً من عمر الزمن ... حفلة تعارف لا نكاد بعد أن ينفض سامرها أن نستبقي حتى أسماء الذين تعرفنا عليهم ... مجرد يوم أو بعض يوم ... ومن ثم تقول لنا : علام الحزن والقهر ؟ ولماذا هذا الركض المتواصل وراء اغراءات الدنيا وزخرفها ؟

انزع عنك أيها الإنسان البائس هذا القيد الذي أسرت به نفسك ، وانطلق في فضاء الكون ... عبر السماء الكبيرة ، إلى الوعد الذي بشر به الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين وهو يخاطب رسوله الأمين : ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيباً﴿٧﴾ (سورة المعارج : الآيات ٥-٧) !

منك منك يا بديع الزمان نتلقى كلمات العزاء التي تفتح المغاليق ، وتمنح الإنسان البائس أجنحة تحلق به في السماوات ... فعلام الخوف ؟ علام الحزن ؟ علام الانكسار للهزائم والمصائب ؟

ومع ذلك يا بديع الزمان ، مع رؤيتك النافذة هذه لما تشهده الدنيا ولانحسارها وتفاهتها ، لم تغفل لحظةً واحدةً عن الجانب الآخر المتمم للوضعية البشرية ... إنها ضرورة البناء ... العمل الكادح الموصول حتى لحظة النفخ في الصور ، التزاماً بتعاليم الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) : (إذا قامت الساعة وفي يدِ أحدكم فسيلةً فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر) !

إن الدنيا والحالة هذه يجب أن تنبض بالفاعلية الحضارية ، بالتقدم الدائم إلى الأمام من أجل أن تكون البيئة الصالحة لعبادة الله ، ليس بالمفهوم الشعائري أو الطقوسي ولكن بالمفهوم الحضاري حيث يصير كل فعل يمارسه الإنسان عبادةً يتقرب بها إلى الله (جلّ في علاه) ، وحيث يصير الكشف العلمي بشتى صنوفه كالصلاة والحج والصيام.

هكذا أردت يا بديع الزمان أن تبني أمةً من الناس تضع اغراءات الدنيا تحت قدميها متمثلةً بقول النفري العراقي : (يا عبدي إذا قمت إلى الصلاة فضع الدنيا كلها تحت قدميك) ولكنها إلى جانب ذلك تشمر عن ساعد الجدّ لكي تبني الدنيا وتعمرها ، فهي ليست بالقنطرة التي علينا أن نعبرها ولا نعمرها ...

وها هم تلامذتك ، ينتشرون في السهل والجبل ... يحملون تعاليمك ويمضون إلى الهدف ذاته الذي نذرت نفسك له عبر عمرك الحافل الطويل : أن يفيئ الناس إلى خيمة الله الرحيم ، وأن يعيدوا صياغة حياتهم في ضوء تعاليمه التي ظلت تتدفق وتشكل أنهاراً من العطاء ...

ليست حياتهم الباطنية فحسب ، حيث تلتقي بتوافق مدهش نداءات الروح والوجدان والعقل والجسد ، وانما حياتهم الخارجية حيث يصير كل شيء منذوراً لله سبحانه وتعالى !

وحينذاك ... حينذاك فقط ، يكون التلامذة أبراراً مع معلمهم الكبير بديع الزمان سعيد النورسي ...

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محاضرةً بعنوان (حديث في المشروع الحضاري)

(أربيل في شتاء عام ٢٠١٨م)

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان : لماذا المشروع الحضاري ؟

إنها والحق يقال محاولةً لاستعادة الثقة بالذات ، للبحث عن مساحة مناسبة للدور الذي يمكن أن تمارسه هذه الأمة في إعادة صياغة المصير البشري ... لإيجاد الممرات الممكنة للوصول إلى العقل الغربي ودعوته لهذا الدين ... لفتح الطريق أمام جملة من الحوارات الحضارية بين الشرق والغرب. ذلك أن مجابهة الآخر بقوة السلاح أصبحت عبر زمننا هذا من المستحيلات بسبب تفوقهم الأسطوري وقدرته المدهشة على تطويره يوماً بيوم وساعةً بساعة ... بل واعتمادنا عليه واستجدائنا إياه لكي يمنحنا شيئاً من كشوفه المتواصلة في ميدان التسليح.

والجهاد في ديننا ليس بالضرورة أن يأخذ نسقاً واحداً مهما تغيرّت الظروف وتبدلت الموازين ... ولابدّ إذن من إيجاد سبل جديدة في تعالمنا مع الآخر ، فهي في كل الأحوال تعبّر عن رغبتنا الأكيدة في نشر هذا الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله والتحقق بقيمه العليا ... فها هي ذي إذن السبيل الذي تلزمنا باعتماد متغيرات العصر. أن ندخل عليهم بفكرنا ، بعقيدتنا ، وبمشروعنا الحضاري الذي يقول عنه الغربيون أنفسهم ، فلاسفة ومفكرون وساسة وإعلاميون وادباء ورياضيون ، بأنه يمثل عبر اللحظات الراهنة ضرورة من ضرورات المشاركة في إعادة صياغة المصير البشري الذي يتعرض للاختناق !

اننا ها هنا يجب أن نكون الفرسان الذين يعرفون كيف يبحثون عن الطريق وكيف يصيبون الأهداف ، وكيف يدخلون على الآخر بعيداً عن جلبة السلاح وقرقعة المدافع والمتفجرات والصواريخ وأزيز الطائرات ... وانما بدعوته بالكلمة المضيئة ... بالجدل بالتي هي أحسن ... بالموعظة الحسنة ، وبتقديم الشاهد الفعال بسلوكنا على ما يمكن أن يجلبه عليهم الانتماء إلى هذا الدين من أمن وتوحد وسعادة واطمئنان.

إن آخر الإحصائيات التي تعرضها الشاشات الفضائية يوماً بيوم هي تلك التي تقول بأن عشرة بالمائة من أبناء الشعب الأمريكي يعانون من حالات الاكتئاب المركزة التي تقود بعضهم إلى إدمان المغيبات وتقود بعضهم الآخر إلى الانتحار ، وأن اليابان خصصت لعامٍ واحدٍ هو عام (٢٠١١م) مبلغاً قدره ثلاثون مليار دولار لملاحقة حالات الاكتئاب والانتحار في الساحة اليابانية ، وأن التوجه الجماعي لإدمان المغيبات وحبوب الهلوسة والهروبين ... الخ قد أخذت بالازدياد بشكل مروع ونزلت إلى مستوى الاعداديات والمتوسطات ... ومعروفةً نسب الانتحار المتزايدة في دول لا تقل تقدماً ورفاهيةً عن أمريكا واليابان من مثل السويد والنرويج ... فما الذي

يدل عليه هذا سوى أن الحياة الغربية تتجه وفق معادلة معكوسة نحو المزيد من التعاسة والشقاء، قبالة المزيد من التفوق في الخدمات ووسائل الترفيه ؟

إن الأمر جد ، وما لم ندخل نحن على الخط لإعطاء الإشارات الخضراء لمسيرة البشرية فقد لا يكون المستقبل واعداً إلاّ بما هو أدهى وأمرّ تنفيذاً للآية الكريمة : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(سورة الروم : الآية ٤١) ... إن التلّوث البيئي والنفسي والأخلاقي ، أخذ موجه يزداد انسياحاً لكي يأتي على الأخضر واليابس ... إنه سونامي من نوع يتجاوز حدود الوصف ، فمن تغيرات مناخية كارثية ، من انحباس حراري ، من انكسار في طبقة الأوزون التي تحمي الكرة الأرضية من تلقي موجات من الأشعة الحرارية التي تفوق الطاقة على التحمل ... من تزايد الأوجاع والأمراض على رأسها الايدز والسرطان ... من تناقص في المواليد وتغير مريع في المعادلات الديموغرافية ، من دمار للعلاقات الأسرية بين الزوج وزوجته ، وبين الآباء والأمهات وأبنائهم ... من انسداد الأمل بحياة أبدية أخرى خالية من المتاعب والمنغصات والكدح المتواصل والهموم ، غير هذه الحياة ، من احساس بالضيق يظل يتزايد ويتزايد حتى ليخيل لصاحبه بأن لا ملجأ للخلاص إلا بقتل النفس والخروج من الحياة ...

ألا يتطلب هذا كله أن ندخل نحن عليهم بمشروعنا الحضاري في محاولةً منا ليس فقط في تحقيق كسب لهذا الدين ، وانما ومن خلال ذلك التحقق بالكسب الأكبر في تخليص البشرية مما تعانيه ، وفي فتح النوافذ والأبواب أمامها للخروج إلى الفضاء الواسع ، والسماء الكبيرة التي جاء هذا الدين لكي ينقل الناس إليها ... ﴿ ... ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة الروم : الآية ٣٠).

لا زلت أذكر ذلك اللقاء الطيب الذي جمعني بالأخ الداعية الكبير عبد الحليم خفاجي في كوالا لامبور بماليزيا (عام ١٩٩٧م) وبمعيته الرجل الثاني في الحزب الديمقراطي المسيحي الألماني الذي أعلن إسلامه منذ فترة وجيزة ... حيث تحدث عن قيامه في ألمانيا بترجمة معاني القرآن الكريم إلى الألمانية بألفي نسخة ما لبثت أن بيعت وأن عدداً من الذين اشتروها انتموا لهذا الدين. وها هو يقوم بجولة كبيرة في العديد من الدول الإسلامية لكي يجمع مبلغاً من المال يعينه على طبع المزيد ، وعلى ترجمة معاني القرآن إلى اللغات الأوروبية الأم الأخرى : الروسية والفرنسية والإسبانية ... الخ بعد إذ رأى من تعطش الغربيين للإقبال على قراءته. ولا زلت أذكر ذلك اللقاء الذي جمعني بالأخ المغربي ، المسؤول الأعلى عن الرابطات الإسلامية كافة في

الساحة الفرنسية ، حيث حدثني عبر جلسة في أحد مطاعم باريس عن ذلك الجهد الموصول الذي بذله زعماء تلك الرابطات في جمع كلمتهم وتوحيد جهودهم والتوجه بخطاب واحد إلى رئاسة الجمهورية حيث اختير الأخ المتحدث لهذه المهمة التي تذكرنا بطريقة عمل المافيات اليهودية في الساحة الأمريكية ... وقال بأن ذلك يدعم أي رئيس يود الترشيح لرئاسة الجمهورية على الاستجابة لمطالب الجالية الإسلامية الكبيرة ، وإلاّ فانه سيخسر أصواتها ...

هذا إلى ما تشير إليه الإحصائيات المتواصلة في الساحة الغربية بخصوص المتغيرات الديموغرافية ، وعلى سبيل المثال فان عدد المسلمين في فرنسا سيكون موازياً لعدد المسيحيين في عام (٢٠٥٠م) وكذلك الحال بالنسبة لروسيا ، فيما يشكل تحدياً خطيراً لمستقبل الحضارة الغربية وفيما يمكن لو أحسنا توظيفه أن يفعل الأفاعيل في تعديل مسار هذه الحضارة وإخراجها من البؤر الضيقة التي تختنق فيها ...

فرنسا من جهتها قامت بجملة من الاجراءات الايجابية والسلبية لمجابهة هذه الظاهرة أبرزها دعوة وزارة الإعلام المواطنين الفرنسيين إلى أن يكثروا من انجاب الأطفال ، ونشرت جملة كبيرة من الاعلانات تقول : أيها الفرنسيون نريد أطفالاً ... كما أن ردود الفعل غير المبررة تجاه ظاهرة الحجاب ، والمحاولات المتواصلة للتمييز العنصري ، ورفض قبول اللاجئين ... الخ انما جاءت جميعاً لتحقيق قدر من التوازن الديموغرافي بين الفئتين ...

مهما يكن من أمر فاننا كمسلمين لا يمكن أن نتقدم للآخر بدعوته للانتماء إلى عقيدتنا ، والتشبث بمشروعنا الحضاري ، ما لم نكن نحن قد مثلنا بسلوكنا وطرائقنا في الحياة الصورة الوضيئة لهذا الدين ، تلك التي تغري الآخر بالانتماء إليه ، وهو يرى بأم عينيه المثال العملي الواضح قبالته ، إن أجدادنا غزوا نصف العالم وجلبوه إلى حظيرة الإسلام بقوة سلوكهم ، باستقامته ، ووضاءته ... وما لم نتحقق بهذه القدرة على تحقيق مطالب ديننا وعقيدتنا ومشروعنا في سلوكنا وطرائقنا في الدعوة ... بسماحتنا التي تستمد نسغها من هذا الدين الذي يرفع شعار (الحنفية السمحاء) ... ما لم نتخلّ عن تشددنا وتشبثنا بالصغائر والشكليات ... عن الحوار مع الآخر بقوة السلاح ، والتحول بدلاً من ذلك إلى قوة الكلمة التي يمكن أن تفعل الأفاعيل ... ما لم نرسم البشاشة والبسمة على وجوهنا ، والكلمة الطيبة على ألسنتنا ، فان الف سنة أخرى لن تأت بما نحلم به ، وسوف نظل نضرب بأقدامنا على الأرض الموحلة فلا نكاد نتقدم شبراً واحداً ...

انني أتذكر كذلك ما فعله فيلم (الرسالة) الذي أخرجه مصطفى العقاد (رحمه الله) وكيف أن معظم الذين أتيحت لهم مشاهدته في ديار الغرب اعجبوا ، ليس فقط بنبي الإسلام

وبصحابته الكرام ، بل بهذا الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) بإرادة الله (سبحانه وتعالى) ، وهذا يدفعنا إلى بذل مزيد من الجهد المكافح في هذه الساحة أيضاً ، ساحة الإعلام الذي أصبح لغة التخاطب في العصر الحديث بين الأمم والشعوب والجماعات المختلفة.

مرةً ثانية وثالثة ورابعة ... فاننا ما لم نتحول تحولاً جذرياً لكي نكون المرآة الصادقة لمطالب ديننا ومشروعنا الحضاري ... ما لم نتحقق بمفاهيم الجهاد الأكبر على مستوى تغيير الذات وإعادة بنائها وفق منطوق الآية الكريمة : ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾(سورة الرعد : الآية ١١) فإن ألف سنة أخرى من الجهد المكافح الموصول لن تأت بطائل ...

إن حيثيات المشروع الحضاري وتأسيساته قائمة بين أيدينا ، في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) بكل مفرداتها ، وليس علينا سوى أن نستفرغ الجهد في إدراكها والتحقق بمطالبها من أجل استعادة دورنا الضائع في العالم. ولقد فصلت القول فيها جميعاً في جملة من مؤلفاتي وعلى رأسها : (أصول تشكيل العقل المسلم) و(مدخل إلى الحضارة الإسلامية) و(مدخل إلى التاريخ الإسلامي) و(نحو منهج جديد في دراسة حضارة الإسلام) و(دراسات في التاريخ والحضارة الإسلامية) ... الخ ... فلا مبرر لإعادة القول فيها ، ولكني سأكتفي في كلمتي هذه باستعراض مانشيتاتها الأساسية للتأكيد على أن ما قدمه كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) في تشكيل مشروعنا الحضاري أمرٌ مؤكد لا ريب فيه.

فهنالك عرض قرآني للقوانين والسنن التاريخية التي تتحكم في نشوء الدول والحضارات وازدهارها ، وفي تدهورها وسقوطها ... وهنالك جملة من المبادئ القرآنية التي تدحض نظرية (نهاية التاريخ) كالتداول ، والتدافع ، والتغاير ... وشبكة أخرى من التأسيسات القرآنية بخصوص الخلق الكوني وتناميه تدحض النظرية الماركسية في الديالكتيكية المادية ، هنالك عروض قرآنية تضع التأسيسات المحتومة للنقلات الكبرى التي جاء بها هذا الدين : النقلة التصورية الاعتقادية ، والنقلة المعرفية ، والنقلة المنهجية بشعبها الثلاث : السننية والتاريخية والحسية التجريبية ... هنالك عرض لمثلث الفاعلية الحضارية : التسخير والاستخلاف والاستعمار (بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية). هنالك انجازات عصر الرسالة التي شكلت الأمة في مواجهة القبيلة ، والدولة في مواجهة العشيرة ، والتشريع في مواجهة الأعراف والتقاليد ، والمؤسسة في مواجهة الفوضى ، والمعرفة في مواجهة الجاهلية ، والإنسان المنضبط في مواجهة الجاهلي المتسيّب ... هنالك الدور الثلاثي الذي مارسه الأجداد في سياق فاعليتهم الحضارية

والذي انطوى على حماية التراث البشري ، وتناقله جغرافيا ، والإضافة عليه والابداع الذي مضى لكي يغطي كل مفرداته.

وغير هذه وتلك الكثير الكثير من المفردات والتأسيسات التي صنعت حضارة الأمة زمن ازدهارها ، وأعطتها مشروعها الحضاري الذي سادت به العالم لقرون عديدة ، وهي قديرة عبر اللحظات الراهنة على أن تعيد الدور نفسه ، فقط إذا أحسنت التقاطها ، وكسرت الران الذي أحاط بعقولها وقلوبها ، وفتحت بصائرها وأسماعها جيداً على ما أراد كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وعصور الأجداد أن تقوم به إذا أرادت أن يكون لها مكان على خرائط العالم ، ليس هذا فحسب بل أن تمدّ أيديها لانتشال البشرية من النقر العميقة التي تتخبط فيها عبر العصر الحديث ، والتي ستزداد هوّتها اتساعاً وعمقاً ، كلما مرت السنين وتعاقبت القرون !

كلمتي في مركز دراسات الموصل عبر ندوة (المفكر أ.د. عماد الدين خليل دراسات في منجزه المعرفي) في (٢٠١٨/١٢/١٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

اتقدم بخالص شكري وامتناني لرئاسة جامعة الموصل وعلى رأسها الأستاذ الدكتور أبي سعيد الديوه جي ولمركز دراسات الموصل وكل العاملين فيه وعلى رأسهم أخي العزيز الأستاذ الدكتور ذنون الطائي على هذه الفرصة الطيبة التي أتاحوها لي ولمتابعي كتاباتي المتواضعة ، فوضعوني في غير موضعي وعسى أن أكون عند ظنهم إن شاء الله تعالى.

سأبدأ كلمتي معكم بالإجابة على هذا السؤال الذي يدور في أذهان الكثيرين ... ما الذي دفعني لإنجاز ما يزيد على الأربعين مؤلفاً في الأدب تنظيراً ودراسةً ونقداً تطبيقياً وإبداعاً في سياقاته كافة ، جنباً إلى جنب مع ما يزيد على الثلاثين كتاباً في التاريخ ومناهجه وفلسفته ومثلها في الفكر ؟

لعلّه التكوين النفسي والمطالعات الأولى ... منذ اللحظات المبكرة كنت أتعامل مع العالم بجملتي العصبية ... كان تحسسي للخبرات والتجارب والأشياء مرهفاً إلى حد الإعياء ... باختصار شديد ، لقد كنت أعيش الحياة (انطباعياً) ... فاللون ، الصوت ، النأمة ، الحركة ، هذا الأمر الصغير أو ذاك ، يثير دائماً في نفسي ردّاً ، أو استجابة بشكل من الأشكال ... وكانت هذه الاستجابات المتراكمة التي قد تتجاوز أحياناً معادلها الموضوعي المتوازن ازاء الخبرة، تضغط علي ، تريدني أن أقول شيئاً أو أن أفعل شيئاً ، وإلا آذت أعصابي. ولقد حاولت أن استجيب للنداء بمحاولات مبكرة في عالم اللون ... الرسم ... فلما أخفقت تحولت إلى الكلمة ، وكانت الكلمة بالنسبة لي ، ولا تزال ، ليست وسيلةً أو فرصةً للتعبير فحسب ، وانما لنقل احساسي بلون العالم الأحمر أو الأخضر أو الرمادي للآخرين ، وبسبب من الارهاف الملح الذي شكل معظمَ الأدباء والفنانين تحولت الكلمة عندي إلى ريشة ترسم ، وتلّون ، وتشكل القيم والخبرات ، لا مجرد أداة أو آلية للتوصيل.

وعندما كنت اقرأ ، والحالة هذه ، كنت أرتشف القصة أو الرواية أو المسرحية أو القصيدة أو الرؤية الأدبية ، كما يرتشف الإنسان كوباً من الشاي أو العصير اللذيذ ، قطرةً قطرة ، وبمحاولة للتذوق والتلذّذ والاختزان حتى آخر قطرةً من العصير ... لا زلت أذكر زمن الدراسة الثانوية ... لامرتين ، وجبران ، وهوغو ، وتوفيق الحكيم ، وطه حسين ، ونجيب محفوظ ،

وموباسان وغوته وعلي الجارم والعريان ، والعقاد ، والرافعي ، وأبو ماضي ، وشوقي ، وإبراهيم طوقان ، وديكنز ، وتولستوي ، وهمنغواي وشتاينبك ... وغيرهم كثيرون ... لا زلت أذكر كيف كانت قصائد (دروس تاريخ الأدب) التي كنا نكلف بحفظها ، تفرض علي حضوراً يصعب وصفهُ ... كانت قصائد المعري والمتنبي وأبي العتاهية ، والبحتري تسكنني ، وكنت أجتاز المسافات الطوال تحت الشمس ، في ربيع الموصل الحار ، وأنا استعيدها كي اتحرّر منها ... (اتطهر) بتعبير أرسطو ، فما ازداد إلا احتراقاً وكان لابدّ أن أقول شيئاً ... وأنتم تعلمون فان الكلمات الأولى تقطر رومانسيةً ، في معظم الأحوال ، وتنطوي على حشود من الأخطاء والتناقضات والمبالغات والتهاويل ... ولكنها على أية حال تعلّم ... تعلّم كثيراً ، كما أنها – وهذا هو الأهم – تخفف الضغط وتسمح للتوتر بأن يجد فرصته ، ولكن الذي حدث – بالنسبة لي على الأقل – انني ما كنت اقتنع بهذا على الاطلاق ، فما كنت ازداد إلا توتراً واحتراقاً ، ولقد أثر هذا على صحّتي وقادني إلى حافات المرض والإعياء.

إن المؤرخ يتحتم أن يكون أديباً وإلا فانه لن يتجاوز ظاهر النص إلى عمقه المطلوب ، ولا يبعد عن حافات الخبرة التاريخية باتجاه الوجدان البشري الذي شكلها. أما الأديب فانه مؤرخ بالضرورة ، فليس ثمة أدب يتحرك في الفراغ ، لابد له من زمن ومكان يستمد منهما ويتكئ عليهما ويتعامل معهما ويشكل منهما فضاءَه وهذا في نهاية الأمر هو التاريخ.

إن نتاجي هذا الذي بين أيديكم انما هو منةً يمن بها الله سبحانه وتعالى ، وفضلٍ منه وبركةً (جلّ في علاه) ، أن تجد الفسحةَ الزمنية الكافية لمواصلة الانتاج ، وسط زحمة المشاغل الوظيفية والأكاديمية والبيتية وما أكثرها ... وقد أعانني على هذا انني منذ بدايات مبكرة ترجع إلى أيام العطل الصيفية في البكالوريوس كنت آخذ نفسي بنظام صارم للعمل (على المكتب) كما يقولون ، كنت افرض عليها فرضاً أربع ساعات أو خمس من الجهد اليومي في الكتابة ، على تغاير توجهات هذه الكتابة ، وكانت تناديني أصواتٌ مغرية لترك العمل والذهاب هنا أو هناك ، وممارسة هذه الهواية أو تلك وما أكثرها ، وكانت نفسي تتوق إلى الاستجابة لكن هاجساً كان يشدني من الداخل إلى الالتزام بنظام الساعات الأربع أو الخمس من العمل اليومي المتواصل.

حتى المطالعة كنت أكافح ضد اغراءها كي لا تسرق شيئاً من هذه الساعات فان موعدها في وقتٍ آخر من اليوم ولن أسمح لها أبداً أن تجيئ على حساب الكتابة ... بمرور الوقت تلّبس تكويني النفسي حالة لا أرجوها للآخرين ... نوعاً من القلقِ الممض ، من التشتت والتبعثر ... من الاحساسي بالملل أو اللاجدوى ، عبر كل زمن مستقطع من وقت الكتابة ... أكثر من هذا :

احساس مرير الطعم بالندم ، بأنني أمارس تفريطاً بواجبٍ ما ، بمهمة هي أكثر ضرورةً وإلحاحاً من أية ممارسة أخرى. كانت الحياة خارج دائرة الكتابة قلقاً وبؤساً وتسطحاً وتشتتاً ... أشياء وخبرات تفقد طعمها بالمرة ... وكان الهاجس يدق في جملتي العصبية كناقوط الماء ... أكتب واكتب وأكتب فان ساعات الكتابة يجب ألا تذهب أو تعطى لأي شيء آخر على الاطلاق ... ويوماً بعد يوم كان الانجاز بالنسبة لي هو الداءُ والدواء ... وكنت أغادر المكتب بعد ساعاتِ العمل تلك وأنا أحس بسعادة غامرة يصعب وصفها ... بامتلاء نفسي عجيب ... بإحساس مترع بالأمل والجدوى ، وبتذوق شهي لطعم الأشياء والخبرات ... عندها فقط كانت أقلُ متعةً ... ابسِطُ هواية ... أتفهُ ممارسة تسعدني وتملؤني بالغبطة.

بدون الكتابة ما كنت سعيداً على الاطلاق ، ولكن هذه السعادة ... هذا الاحساس الغامر بالفرح ما كان يجيئ إلا بعد معاناة قد تبلغ أحياناً حدّ أن أرغب في الفرار بعيداً ... اليوم الذي اتحرّر فيه من الأسر واستعيد فيه نفسي ، أو بعبارةٍ أخرى ، أعيد ترتيب حياتي بصيغةٍ أخرى تماماً ... قد تسألوني : والنتيجة ؟ ويجيئ الجواب : أنني وبمرور الأيام وجدت طريقي في الكلمة نفسها ... التقيت بفكاكي من الأسر على المكتب نفسه ... وبدون الامساك بالقلم ومواصلة العمل فان الحياة قد لا تستحق أن تعاش !

ولا يزال السؤال قائماً : هل أن التعدّدَ مفيد للكاتب أم أن التخصصَّ أفضل ؟

والجواب : هذا وذاك ... فليس قدرنا أن نقول إما هذا أو ذاك ، فالظواهر في بعض الأحيان لا تتخاصم وينفي بعضها بعضاً وانما تلتقي وتتصالح ويعطي كل منها للحلقات الأخرى الفرصة الكاملة للتحقق.

إن الجدل الهيغلي الذي يرغم الأفكار على أن تصطرع وينفي بعضها بعضاً ، والديالكتيك المادي الذي تزيح الشرائح الاجتماعية وصيغ الانتاج خلاله بعضها البعض الآخر ، فيطرده من الحضرة ويستأثر بالسلطان ، جدل أو اصطراع كهذا ليس قدراً محتوماً كما يخيل للكثيرين ، فهناك دائماً – مع وجود الاصطراع والنفي – الوفاق والتصالح والتوازي في هذا الجانب أو ذاك من جوانب الفكر أو الحياة.

ما أريد أن أقوله هو أن الموسوعية – إذا صحت الكلمة – لا تتعارض مع التخصص سواء في دائرة المفكر الواحد ، أو في سياق النشاط الفكري والثقافي في بيئة ما أو عصرٍ من العصور.

القطبان يكمل أحدّهما الآخر ... هذا يتحرك في فضاء واسع أعطاه الله سبحانه وتعالى القدرة على خوض غماره ... وذاك يوغل في أعماق الظواهر والخبرات ويتمركز في حيز محدد

حيث يجد نفسه مؤهلاً لأداء مهمته الفكرية في دوائر التخصص. والحياة الثقافية التي يغيب فيها الموسوعيون ولا يتحرك سوى أصحاب التخصص في هذا الفرع المعرفي أو ذاك ستكون أرخبيلاً من الجزر المنعزلة التي لا تجمعها لغة واحدة ... تصوروا لو أن زمننا هذا لم يشهد مثقفين كالعقاد أو طه حسين أو سيد قطب أو توفيق الحكيم أو مصطفى محمود ، بغض النظر عن توجهاتهم الفكرية ، مثقفين كتبوا في الفكر ، والتاريخ والترجمة والسيرة الذاتية والتنظير الأدبي والنقد التطبيقي وأبدعوا قصصاً وروايات وشعراً ... كيف يمكن أن يكون ...

إن التخصص هو بالتأكيد من ضرورات التقدم العلمي ، وفي المقابل فان الموسوعية هي ضرورةً ثقافيةً ... إذا كنت تملك أن تقدم شيئاً ذا قيمةً في أكثر من ساحة فلماذا تتردد ؟

في الغرب والشرق على السواء رحل مئات الأكاديميين المتخصصين دون أن يسمع بهم أحد لكن بعضهم إذا أردنا الحق مضى بالخبرة العلمية صوب آفاق بعيدةً من الكشف والإبداع ... إلاّ أن موسوعيين كهيغل واشنبغلر وأريك فروم وغارودي وروم لاندو وفتكنشتاين واندريه جيد ومالرو وكوستلر وبرناردشو وبرتراند رسل ... وغيرهم كثيرون هم الذين أعطوا الحياة الثقافية في الغرب وربما في العالم كله طعمُها وملحُها ...

لنترك هؤلاء وهؤلاء كل يعمل في مجال قدراته التي منحه الله سبحانه وتعالى إياها ، فكل ميّسر لما خلق له ، كما يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وليس ثمة مبرر على الاطلاق لن ينفي أحدّهما الآخر ويستأثر بالميدان ...

على أية حال ، ومن أجل تجاوز أي نوعٍ من سوء الفهم فان تشعّب الاهتمام لا يعني بالضرورة انتقاصاً لمطالب التخصص أو المنهج ، ولا خرقاً لضرورات الأكاديمية. إن ما كتبته في حقل التاريخ ولله الحمد والمنة ، يتحقق بهذه الضوابط والضرورات ، وإلا لما حصلت أساساً على الماجستير والدكتوراه لما رقيت إلى مرتبة الأستاذية في التاريخ الإسلامي ولما انجزت ما يزيد على الثلاثين كتاباً في التاريخ ومناهجه وفلسفته ...

فماذا عن القراءة ؟

انها النداء الموجه لحاملي الأقلام من العلماء والأدباء ... القراءة والقراءة والقراءة حتى تدس أنوفُنا في التراب ... تلك هي الصيحة التي يجب أن نرفعها قبالة أنفسنا وازاء كل حملة الأقلام ... انها الكلمةُ الأولى ... كلمةُ البدء التي تنزل بها كتابُ الله سبحانه وتعالى ، والفعل الذي يتحتم أن يكون الخبزَ اليوميَ للمثقف ... طعامَه وشرابَه.

قد يبدو هذا أمراً اعتيادياً يوم كانت القراءة في العقود الماضية تقليداً سائداً في الحياة الثقافية لكن الأمر يختلف في العقود الثلاثة الأخيرة ... لقد غزتنا وسائل الترفيه السهلة ، وحاصرتنا الهموم والمطالب المعيشية والوظيفية من كل مكان ، وأخذ الزمن يضيق علينا الخناق ... الكل يركضون وراء همومهم حتى اللهاث وما تبقى من وقتٍ يستلقون فيه على جنوبهم نائمين أو باحثين عن الثقافة المتضحلة السهلة الميسورة التي تنسجم واعياءهم المقيم ولا تكلف جهداً عقلياً ... قراءة الصحف والمجلات ودوريات تزجية الفراغ. انني أعرف جيداً حشوداً من الطلبة والمثقفين ، بل من الكتاب أنفسهم لا يكادون عبر الزمن الأخير يقرأون شيئاً ذا قيمة ، فكيف تتوقعون أن تكون النتيجة ؟ وكيف تكون النصيحة بالقراءة شيئاً مستهلكاً ؟!

إن الأمر جد ، إذا استعملنا عبارة الكاتب الفرنسي يونسكو ، وقبالته يجب أن نفعل شيئاً وإلا استهلكنا الوقت وفقدنا القدرةَ شيئاً فشيئاً على أن نقدم للحركة الثقافية نتاجاً ذا قيمة ... فإذا تذكرنا أن زمننا هذا هو في الوقت نفسه زمنُ الانفجار المعرفي وسيول المؤلفات التي تطلع على الناس في كل يوم ، وأنه – كذلك – زمنُ التواصل الثقافي السريع حيث يَتنقلُ الكتاب من بلدٍ إلى بلدٍ بسرعة الكهرباء ، وحيث يترجم عن لغاته الأصيلة يوماً بيوم وأسبوعاً بأسبوع ... إذا تذكرنا هذا عرفنا أن الأمرَ جدٌ فعلاً وأنه التحدي الذي تنوء به العصبةُ أولو القوة ... ولكن لابد مما ليس منه بدّ ... لابدّ أن نقرأ ونقرأ ونقرأ ما وسعنا الجهد وحتى آخر حدود الاحتمال وإلا ضعنا ... وذلك هو الرجاء الذي يحدق به الخوف من التضحّل والضياع ... القراءة ... القراءة ... القراءة ... من أجل إعادة ترتيب ما كان ، ومحاولة السيطرة على ما هو كائن والاستعداد لما سيكون.

إنني أتذكر بحنين جارف ما كان يحدث في الخمسينيات والستينيات من القرنِ الماضي ... كان الكتابُ هو خبزُ المثقف اليومي ، وكانت المقاهي والحدائق والمكتبات والأماكن العامة ساحات لبلّ الشوق وارواء الظمأ ، وكان التقليدُ السائدُ يومَها أن من يذهب إلى المقهى لابدّ أن يحمل معه كتاباً حتى ولو لم يقرأ فيه.

ما الذي تغيّر عبر العقود التالية ؟إن علينا معشّر الكتاب أن نقاوم ما وسعنا الجهد هذه الظاهرة المخيفة من الهروب من المطالعات الجادة ، وأن ننفخ النار في الجذوة الخابية لكي تشتعل مرةً أخرى وأن نمضي لكي نلتهم الكتب ونغري الآخرين بالتهامها ، وأن نرفع شعار : القراءة هي ملحُ الحياة ، وبدونها لن يكون لها طعمٌ أو مذاقٌ على الاطلاق ... وذلك ما كنت أردده على طلبتي فيما يزيد عن العقود الثلاثة ... قائلاً لهم : ان عشرين سنةً من الدراسة

الجامعية ومثلها من الجلوس عبر شاشة التلفاز لن تخرج كاتباً ولا مفكراً ولا أديباً ولا مبدعاً ... وان الذي يخرج هؤلاء هو الكتاب ...

اشكركم ... اشكركم ... اشكركم ... ولسوف يظل وفاؤكم الجميل أبها الباحثون والحضور يعرّش في قلبي قنديلاً أخضر ما حييت ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حوار أجرته مجلة الايمان الأربيلية ونشر في عددها الصادر عام (٢٠١٨م)

سؤال : ما هو سرّ تعلقك بالتاريخ : الحب أم الهواية ؟

جواب : كلتاهما معاً ...

سؤال : ماذا عن التاريخ الاجتماعي للعراق عبر العصور الأخيرة ؟

جواب : تحدّث في ذلك الدكتور علي الوردي في كتابه ذي الأجزاء الثمانية (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق المعاصر) فأطال الحديث ...

سؤال : هل حقاً ما يقال من أن التاريخ يعيد نفسه ؟

جواب : نعم وبكل تأكيد فالتاريخ يعيد نفسه ولكن بصيغ متغايرة ، ذلك أنه يخضع لشبكة من السنن والقوانين التي تتحكم في مسيره ومصيره وليس أبداً للفوضى والمصادفات. وهذا ما أكده فلاسفة التاريخ ، فضلاً عن القرآن الكريم في العديد من مقاطعه وآياته.

سؤال : من الذي يصنع التاريخ البطل أم الجمهور ؟

جواب : البطل والجمهور يشاركان معاً في صناعة التاريخ ، ولا يمكن بحال لأحدهما أن ينفرد بذلك ، وشواهد التاريخ كثيرةً جداً بهذا الصدد.

سؤال : تاريخنا السياسي مترع بالثقوب السوداء ... هل هذا صحيح ؟

جواب : من أجل ذلك طالما دعوت في كتاباتي إلى عدم الالحاح على التاريخ السياسي في مناهجنا التعليمية ، والتحول بدلاً من ذلك إلى تاريخنا الحضاري المتألق الذي قدم مشروعاً حضارياً متكاملاً ، وقدر على تنفيذه في مدى العديد من القرون.

سؤال : هل من الضروري استدعاء الخبرة التاريخية لمجابهة حالة السيولة التي تعانيها الأمة في الفكر والقيم ؟

جواب : استدعاء الخبرة التاريخية يعد من الضرورات القصوى لمجابهة ما تسميه سيولة الفكر والقيم التي تأخذ بخناق الأمة عبر لحظاتها الراهنة ، بما ينطوي عليه من شبكة (ترافيك لايت) تقول لنا : قفوا هنا ، تريثوا هنا ، انطلقوا هناك ... وأي توقف أو عطل يصيب هذه الشبكة يقود إلى الفوضى والاضطراب.

سؤال : ما مدى مصداقية التفسير التآمري للتاريخ ؟

جواب : بتجاوزنا للتفسير الأحادي للتاريخ ، ذلك الذي يقول لنا : إما هذا أو ذاك ، وتحوّلنا إلى مبدأ : هذا وذاك ، يمكن أن نعثر على الجواب ، والجواب هو أن التفسيرين التآمري والمكشوف يمثلان حقيقة واقعة في عالمنا المعاصر ... فالقوى الكبرى تآمرت علينا بكل تأكيد ، وعملت إلى جانب ذلك على المكشوف في سحقنا

وتدميرنا، وهل هناك دليل أكبر من الكذبة الأمريكية التي دفعت الولايات المتحدة إلى غزو العراق وتدميره ؟!

إن القرآن الكريم يقولها بصراحة : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْداً ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴿١٧﴾ (سورة الطارق : الآيات ١٥-١٧) ويقول : ﴿ ... وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال : الآية ٣٠) ... إننا كأمة عبر اللحظات الراهنة، تشكلنا ولا نزال نتشكل ... بالاثنتين معاً : بالتآمر وبالعمل على المكشوف ...

سؤال : كيف لنا أن نخرج من محنتنا المعاصرة ؟

جواب : بإعادة الالتحام بالخطاب القرآني والنبوي الذي جعل منا الأمة الوسط الشاهدة على مسيرة البشرية ... فلما انفككنا عنه ، ووضعنا في آذاننا شمعاً أحمر كي لا ننصت إليه ، صرنا إلى ما نحن عليه من ضعفٍ وتفككٍ وهوان ... قصعةً يولم عليها المولمون من مشارق الأرض ومغاربها ... إننا في الحقيقة لسنا في حاجة إلى تجديد فكرنا الديني بقدر حاجتنا – أولاً – إلى إعادة الالتحام بمطالب الخطاب القرآني والنبوي ، ففيهما وحدهما ، ليس خلاصنا فحسب ، بل خلاص البشرية عامةً ، وكما يقول روجيه غارودي : (إن مشكلة العالم المعاصر كونية ، ولابدَّ للجواب أن يكون كونياً ، والإسلام هو هذا الجواب) !!

لقد صنعنا عبر تاريخنا الطويل سوءً كثيراً ، ومارسنا خطايا لا تعد ولا تحصى وآن لنا أن نتلقى العقاب ، فان : ﴿ ... مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ... ﴾ (سورة النساء : الآية ١٢٣) ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٦٥) ... كل ممارساتنا الخاطئة هي إنجاز مضاد لما أراده الخطاب القرآني والنبوي ، حيث نجد هناك بدائلها العادلة الصحيحة التي كان يمكن أن تقودنا إلى القمة ... ولكن !

سؤال : هل لديك كتاب يمكن اعتباره المؤلف المركزي في عطائك ... وضعت فيه خلاصة خبرتك في التعامل مع المعطيات الحضارية للأمة ؟

جواب : كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) الذي طبع في المغرب ولبنان ومصر ، واعتبرته شركة (ميديا آرامكس) واحداً من أفضل خمسة كتب صدرت في العالم

عام (٢٠٠٥م) لقد قدمت فيه خبرتي في دراسة الحضارة الإسلامية على مدى خمسين عاماً ، وبنيته على أربعة فصول تناولت في أولها التأسيسات القرآنية والنبوية ومعطيات عصر الرسالة للحضارة الإسلامية ، وتحدثت في ثانيهما عن شبكة المعطيات التي تمخضت عن هذه الحضارة ، وخصائصها ، ووظائفها الأساسية ، أما الفصل الثالث فمضى لكي يستقصي أسباب انهيار هذه الحضارة تلك التي قادتها إلى ما يشبه الشلل ... وفي الفصل الأخير تمّ تحليل سبل انبعاث هذه الحضارة ومشاركتها الفاعلة في إعادة صياغة المصير البشري.

سؤال : ماذا تقول بخصوص المشاكل والمرويات الضعيفة التي تعّج بها مصادرنا القديمة؟

جواب : حاولت أن أعالج ذلك في عدد من مؤلفاتي أبرزها (حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) و(مدخل إلى التاريخ الإسلامي) و(دراسة في السيرة) و(مناهج المستشرقين في السيرة النبوية).

سؤال : مرةً أخرى ... هل لابدّ من استدعاء التاريخ لمجابهة معضلات العصر الراهن ؟

جواب : جل المؤرخين وفلاسفة التاريخ يجمعون على هذا الذي تقوله ، ولابدّ لكل أمة تريد أن تبني حاضرها ، وتستشرف مستقبلها بقدر كبير من تجاوز الأخطاء والعثرات ، من أن تلجأ إلى التاريخ ، فهو بحق معلم كبير في التأشير على الخطأ ، وتحديد معالم الطريق صوب المستقبل ، بما أنه خزين مترع بالوقائع والخبرات في السياقين معاً.

سؤال : هل أن ما نعانيه الآن من محن وويلات بسبب ما صنعته أيدينا ؟

جواب : نعم وبكل تأكيد فان من يعمل سوءً يجزى به كما يقول كتاب الله ... وعندما هزم المسلمون في معركة أحد ، جابههم القرآن الكريم بالحسم المطلوب : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٦٥). ولقد أحصيت في الفصل الثالث من كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) عشرين عاملاً مما صنعته أيدينا وقادتنا إلى التدهور والانسحاب الحضاري ، يقابلها عامل واحد من خارج الديار ... فنحن قد اعتدنا أن نعلّق هزائمنا على مشاجب الآخرين ... وقد آن لنا أن نعدّل هذه الوقفة الجانحة.

سؤال : هل ثمة علاقة بين علم الاجتماع وعلم التاريخ ؟

جواب : نعم وبكل تأكيد ، فان علم الاجتماع هو رديف علم التاريخ ... كلاهما ينقبان في السنن والقوانين التي تتحكم في مسيرة المجتمعات ، هذا في الماضي وذاك في الواقع

المعاصر.

سؤال : ما الذي تقوله بخصوص السنن الإلهية العاملة في التاريخ بدءً وصيرورةً ومصيراً ؟

جواب : إن الذي يوغل في شرايين القرآن الكريم والسنة النبوية يجد نفسه قبالة شبكة محكمة من السنن والنواميس ، أو ما يسمى بقوانين الحركة التاريخية التي تقود الأمم والجماعات والدول والحضارات إلى الانبعاث والنهوض ، وتلك التي تسحبها إلى الوراء وتقودها إلى الشلل والضمور ، وربما الخروج من التاريخ. وهي باختصار شديد – إذ أني سبق وأن عالجتها بالتفصيل في كتابي (التفسير الإسلامي للتاريخ) و(دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة) – رؤية تصدر عن الوحي بكل وقائع التاريخ ، بدءً وصيرورةً ومصيراً ، وهي رؤية تتميز بالشمولية والواقعية والتوازن ، قبالة معطيات فلاسفة التاريخ التي تنطوي على جملة من الثغرات والأخطاء ، لأنها رؤى نسبية تتحكم في تشكيلها مؤثرات الواقع المحدود لهذا الفيلسوف أو ذاك ...

لقاء سريع مع احدى المجلات

سؤال : ما العلاقة بين علم السيرة وعلم التاريخ ؟

جواب : علم السيرة هو دراسة توثيقية لحياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أقواله وأفعاله ، وعلم التاريخ هو الابن الشرعي للسيرة.

سؤال : ما هي الخطوات الأساسية للدعوة الإسلامية ؟

جواب : الإنسان فالدولة فالحضارة .. فبناء الإنسان هو القاعدة التي ترتكز عليها مطالب إقامة الدولة الإسلامية ، وأما الحضارة فهي النتاج الطبيعي لإقامة الدولة التي تجد نفسها بحاجة إلى بناء المؤسسات الحضارية التي تمكنها من أداء دورها.

سؤال : لماذا قلّت الدراسات المنهجية عن السيرة النبوية ؟

جواب : كلا ... فان هناك عشرات بل مئات الدراسات المعاصرة التي اعتمدت أدق المناهج في تعاملها مع السيرة ... أما كيف يشكل منهج بحث أصولي في علم السيرة فيسأل عنه الأصوليون.

سؤال : من الذي حفظ لنا تفاصيل عصر الرسالة ؟

جواب : الصحابة (رضي الله عنهم) هم الذين حفظوا لنا تفاصيل عصر الرسالة ومنهم استمد الاخباريون والمؤرخون معظم وقائع السيرة.

سؤال : وما هي المصادر الأساسية لمعرفة الصحابة (رضي الله عنهم) ؟

جواب : كان الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) يتلقون معرفتهم الأساسية من مشاهداتهم العيانية ومن كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فالسنة هي احدى مصادرهم الأساسية.

سؤال : ما علاقة السيرة بالدراسة الحضارية لتاريخنا ؟

جواب : علم السيرة يغذي الدراسة التاريخية بعمقها الحضاري حيث مارست معطيات السيرة دورها في تصميم وتنفيذ المشروع الحضاري للأمة بتحقيقها الدولة التي ألغت القبيلة، والأمة التي ألغت العشيرة ، والدولة التي الغت التجزؤ السياسي ، والتشريع الذي ألغى الأعراف والتقاليد ، والمؤسسة التي الغت الارتجال ، والإنسان المتمدن الذي طرد الجاهلي ، والرؤية المعرفية المتقدمة التي ألغت الجاهلية ... وهذه كلها تغذي المشروع الحضاري الذي بشّر به الإسلام.

سؤال : هل أضيف إلى ما قدمه الأجداد في علم السيرة شيئاً ذا بالٍ ؟

جواب : نعم وبكل تأكيد ، فالبحوث الحديثة في علم السيرة مضافاً إليها منظومة رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه أنجزت أعمالاً منهجية في غاية الأهمية في حقل دراسات السيرة النبوية ، وهي مستمرة في التدفق لتغطية المزيد من مساحات السيرة وقضاياها الأساسية.

سؤال : ما هي نصيحتك الأساسية بخصوص تدريس التاريخ الإسلامي في المعاهد والجامعات ؟

جواب : أن نتجاوز التاريخ السياسي المترع بالمشاكل والصراعات ، إلى التاريخ الحضاري المتألق الذي قاد الأمة الاسلامية إلى القمة ، وأسهم في بناء الحضارة الغربية المعاصرة ، وهو قدير كما يؤكد الباحثون الغربيون على المساهمة الجادة في إعادة بناء المصير البشري. وقد عرضت لهذا الموضوع بالتفصيل في كتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) وكتابي الآخر (أصول تشكيل العقل المسلم).

سؤال : وهل للسيرة حلولها الخاصة بمشكلات العالم المعاصر ؟

جواب : بكل تأكيد ، فالسيرة منجم خصب لحل المشاكل المتجددة في كل زمن ومكان ... وقد قمت بمعية الأخ المهندس حسن رزّو باستقصاء تفاصيل هذه المسألة في كتاب (دليل التاريخ والحضارة في السنة النبوية).

سؤال : ما هي نصيحتك لمدّرسي وطلبة التاريخ الإسلامي ؟

جواب : أن يرموا بثقلهم في اتجاه التاريخ الحضاري المتألق لهذه الأمة ، ويمكن أن تعثر على مصادر الموضوع في القائمة الملحقة بكتابي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) والمنهج المقترح للدراسات الحضارية في المعاهد والجامعات.

كلمة موجزة في احدى مؤسسات المجتمع المدني بأربيل في شتاء عام (٢٠١٩م) حول موضوع التنمية

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي الأحبة ... السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

فلقد قيل وكتب الكثير عن القيم ، والتنمية ، والتنمية المستدامة ، وسبل بناء وتكوين الشخصية الفاعلة ... ألقيت المحاضرات ، وعقدت الندوات والمؤتمرات ، وأجريت اللقاءات التلفازية ، وألّفت عشرات الكتب ومئاتها التي أخذت تتدفق كالسيل على سوق المكتبات ...

لقد أصبح الحديث عن الموضوع والكتابة فيه تقليداً سائداً عبر العقدين الأخيرين ... والنتيجة أنها لم تكن مكافئةً لهذا الذي بذل ولا يزال !

سأتجاوز في كلمتي الموجزة هذه أسلوب التنظير والتقعيد صوب حديث واضح سهل قد يأتي بنتائج أكثر فاعلية من هذا الكم الهائل الذي يقال ويكتب في موضوع القيم.

أية قيم هذه التي سنتحدث عنها ؟ فهنالك قيم التعامل مع أنفسنا ... وهنالك قيم التعامل مع الآخر ... هنالك قيم الانبعاث والنهوض الحضاري ، وهنالك قيم الابداع والابتكار ... هنالك القيم الأخلاقية من صدق وايثار وإخلاص ، وهنالك قيم الانجاز في شتى مجالاته ...

سأقف في كلمتي هذه عند جوانب محددة من هذه القيم حيثما يسمح به الوقت ...

في يوم ما كنا قد فتحنا نصف العالم بقيم سلوكنا مع أنفسنا ومع الآخر ... فما الذي يحدث اليوم ؟

في يوم ما كان هدفنا هو الانجاز كما علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأمر الذي دفع كاتب أمريكي يدعى مايكل هارت إلى اختياره كأعظم شخصية من بين المائة الأوائل في التاريخ البشري ...

في يوما ما كنا قد أنشأنا حضارة متفوقة في سياقاتها كافة : الإنسانية والصرفة والتطبيقية فما الذي يحدث اليوم ؟

في يوم ما أنشأنا مهرجاناً من المدن التي يسودها الانسجام والنظافة والتي كانت تعكس روح هذا الدين ... فما الذي يحدث اليوم ؟

في يوم ما كانت البشاشة معلقة على وجوهنا ، والكلمة الطيبة على ألسنتنا ، فما الذي يحدث اليوم ؟

في يوم ما كانت قيم الابداع والابتكار تغطي حياتنا في حجيراتها كافةً ... فما الذي يحدث اليوم.

في يومٍ ما كنا قد انفتحنا على الحضارات الأخرى ، ولكن وفق معاييرنا حيث كنا نأخذ ما ينسجم معها ونرفض ما لا يستحق ... وكان التوحيد هو المصفاة التي تمرر من خلالها الخبرات الحضارية ... فما الذي يحدث اليوم ؟

في يوم ما كانت القراءة التي تنزلت بها أول سورة في كتاب الله هي خبزنا اليومي والقاعدة الأساس لتكوين الكتاب والباحثين والمفكرين والأدباء ... فما الذي يحدث اليوم ؟

الموضوع يطول ويتشعب يا أبنائي الأحبة وقد يتطلب الساعات الطوال ... كورساً قد يستغرق أشهراً عدة ... فلأكتف بهذه التأشيرات لأترك مساحة زمنية كافية للحوار معكم في كل ما قد يدور في أذهانكم من أسئلة واشكاليات ... فلنبدأ الحوار على بركة الله !

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمتي الموجزة التي سجلتها لكي تقرأ في مؤتمر القدس الذي عقد في بغداد في (آذار عام ٢٠١٩م)

منذ بداية ستينيات القرن الماضي وحتى اللحظات الراهنة رحت أتابع هموم القضية الفلسطينية وقلبها الخافق : القدس ، بفكري وقلمي وجملتي العصبية ...

يوماً بيوم وساعةً بساعة كنت أسجل خفقان القضية ومآسيها بصيغة مقالات شبه يومية كنت أبعث بها إلى العديد من المجلات العربية والإسلامية ... فضلاً عن جملة من المؤلفات كانت فلسطين والقدس محورها الأساس.

مؤلفات في العمق التاريخي لفلسطين وفي لحظاتها الراهنة على السواء ، ولقد تمخض ذلك عن المؤلفات التالية التي بلغت الثلاثين مؤلفاً ، أبرزها :

دراسة في السيرة

عماد الدين زنكي

نور الدين محمود : الرجل والتجربة

الامارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام

المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي

الحصار القاسي

الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين

مدخل إلى التاريخ الإسلامي

محاضرات في التاريخ والحضارة

لعبة اليمين واليسار

أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار

مقالات إسلامية

متابعات في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة

دراسات قرآنية

رحلة في عالم الكتاب الإسلامي

آفاق قرآنية

مؤشرات إسلامية في زمن السرعة

في الرؤية الإسلامية

الرؤية الآن : في هموم فلسطين والعالم الإسلامي

أولى ملاحم القرن

مذكرات حول واقعة ١١ أيلول

أمريكا مرةً أخرى

في النقد التطبيقي

معجزة في الضفة الغربية

العبور

الهم الكبير

مذكرات جندي في جيش الرسول (صلى الله عليه وسلم)

ريبورتاج : حوار في الهموم الإسلامية

الطريق إلى فلسطين ...

وأريد في كلمتي هذه أن أؤشر على اثنتين : أولاهما أننا ما لم نأخذ بمبدأ تراكم الجهد في مجابهة بني إسرائيل ، أسوةً بما فعله الأجداد ، وبما فعله اليهود أنفسهم ، فلسوف ننتظر مائة سنة أخرى ولا من مجيب.

وثانيتهما : أن التركيز على القدس وحدها يخشى أن يبعدنا عن الهم الفلسطيني العام في سياقاته كافة.

شكراً جزيلاً لكم أيها الأخوة الأحبة على هذه الفرصة الطيبة التي منحتموني إياها للتأشير على بعض المسائل الحساسة في القضية الفلسطينية ، وفي زهرة مدائنها التي يراد لها الآن أن تفترس صهيونياً وأمريكياً ... ولكن هيهات !

كلمتي في الدورة التدريبية لشباب جماعة (العدل والاحسان)
(أربيل في ٢٠١٩/٨/٤م)

بسم الله الرحمن الرحيم

أبنائي وبناتي حفظهم الله ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لأبدأ كلمتي معكم بهذا السؤال : ألا يتحتم علينا جميعاً أن نقرأ كتاب الله بعيون مفتوحة تتعامل بالعمق المطلوب مع النص القرآني ... توغل في شراييه ... تخترق برؤيتها النافذة طبقاته العديدة للوصول إلى ما يريد أن يقوله لنا ... إذن ، أفما كان يتحتم علينا أن نقف طويلاً عند آيات كهذه عبر هذا الزمن البائس الذي اختلط فيه الأسود بالأبيض ، وضاعت معالم الطريق ؟

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(سورة المجادلة : الآية ٢١) ﴿ ... لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾(سورة التوبة : الآية ٣٣) ﴿ ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(سورة يوسف : الآية ٢١) ﴿ ... وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٤٠) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(سورة الرعد : الآية ٤١) ؟!

فما لشبابنا عبر اللحظات الراهنة يغمضون أعينهم عن هذه البشريات القرآنية بخصوص المصير البشري وينساق بعضهم برد فعل خاطئ لما فعلته داعش ، فيصابون بالإحباط ويكفون عن العمل ؟ وآخرون – وبعضهم من الدعاة الإسلاميين المشهود لهم في الساحة – يبحرون في خطبهم وبحوثهم في اتجاه مضاد للثوابت الإسلامية ، فيلغون مبدأ (الجهاد) و(الدولة الإسلامية) ويصممون على هواهم إسلاماً منزوع الأظافر لا يملك القدرة على الرد ازاء التحديات التي تحيط به من كل مكان ... إسلاماً (أمريكياً) إذا استخدمنا عبارة الشهيد سيد قطب في كتابه (دراسات إسلامية) الذي صدر في خمسينيات القرن الماضي.

حدّثني أحد هؤلاء الدعاة قبل أسابيع أنه يشتغل على إنجاز رسالة للماجستير في إحدى الجامعات يحاول فيها إلغاء فكرة (الدولة الإسلامية) التي لا تقوم على أساس شرعي أو تاريخي

... قبلها بأشهر استمعت لمحاضرة لداعية كبير يؤكد فيها أن الجهاد الإسلامي هو لغرض الدفاع عن النفس فقط (جهاد الدفع) !

ما الذي سيشهده الزمن القادم إذا ما ترك الحبل على القارب وأتيح لأولئك وهؤلاء أن يمارسوا التغيير والتبديل في الثوابت الإسلامية ؟!

إن علينا أيها الشباب الواعد أن نتشبث عبر لحظاتنا الراهنة بمبدأ (تمسك وأنتظر) ... تمسّك بالثوابت الإسلامية وانتظر الخلاص ... وهو لابدّ آت إذا تعاملنا بالجد المطلوب مع الآيات القرآنية التي ذكرتها قبل قليل ... وهنالك غيرها الكثير.

إنها تريد أن تقول لنا أن التاريخ لا يمكن أن يسكن على حالة واحدة ، وأنه لا دوام لدولة ، أو مملكة أو امبراطورية أو كيان سياسي أو حضارة ... وأنها لو دامت لغيرك ما وصلت إليك ... وأن ما يقوله الوضعيون ويدّعونه من (نهاية التاريخ) انما هو خرافة لا تصمد أمام الحركة الأبدية للتاريخ ، تلك التي ترفع وتخفض ... فإذا كانت رؤوسنا عبر الزمن الراهن قد أصبحت تحت أقدام الآخرين ، فان حركة التاريخ ومداولته الأيام بين الناس ، وناعوره الذي يظل يدور ، سيجعلنا يوماً نضع أقدامنا على رؤوسهم ... تلك هي سنة الله ، وذلك هو أحد قوانين الحركة التاريخية في كتاب الله !

في يومٍ ما ادّعى منظرا الفكر الماركسي الشيوعي أنه سيجيئ زمن تتوقف فيه حركة التاريخ بتسلّم البروليتاريا (الطبقة العمالية) زمام الحكم في العالم حيث لا يبقى هنالك ظالم ولا مظلوم ... إنها نهاية التاريخ على الطريقة الشيوعية ... فأين هي الآن ؟ لقد طواها التاريخ في تمخضه الدائم ... واليوم يدعي (فرنسيس فوكوياما) بأن التاريخ قد ألقى عصا التسيار في الساحة الأمريكية ، حيث بلغت القمة في خبرتها الديمقراطية الليبرالية ، فليس ثمة تغيير بعدها ولا تبديل ... ولكن هذا الادّعاء يرتطم بقوانين الحركة التاريخية وسيخرج من التاريخ هو الآخر ...

إن الله سبحانه وتعالى يحدثنا في كتابه العظيم ، منبهاً إيانا أن نفتح عقولنا وبصائرنا على مغزى المتغيرات التاريخية بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(سورة الرعد : الآية ٤١). فالمقص الإلهي ينزل على هذه الدولة أو الامبراطورية أو الإمارة أو الحضارة فيقضمها ولا يتركها إلا وقد غدت ركاماً وخرجت من التاريخ ... إنه يمارس انتقاصها والتضييق عليها يوماً بعد يوم حتى ينتهي بها الأمر إلى الزوال ... ذلك أن الذي يحكم العالم هو الله وحده (جلّ في علاه) وليس هذا الزعيم أو الرئيس أو ذاك !

نحن على مدى جيلنا فحسب شهدنا بأم أعيننا زوال ست امبراطوريات كبرى في مدى لا يتجاوز ثلاثة أرباع القرن : الامبراطورية البريطانية التي لا تغيب عن املاكها الشمس ... الامبراطورية الفرنسية التي امتدت مستعمراتها من الهند الصينية حتى كويبك في كندا ، فضلاً عن مساحات شاسعة من إفريقيا ... التجربة النازية التي قال مؤسسها (هتلر) في كتابه (كفاحي) أنه سينشئ امبراطورية الألف عام ، فلم تعش سوى اثنتي عشرة سنة فحسب وخرجت من التاريخ ... وزميله الفاشستي (موسوليني) الذي كان يقف في شرفته بروما يخاطب جموع عباده (سنركز راياتنا فوق النجوم) ولكنه ما لبث أن أنقلب عليه عباده وراحوا يطاردونه في سهول لومبارديا بشمال ايطاليا ... وهو وعشيقته يهربان كالجرذان المذعورة ، حتى ألقي القبض عليهما وأعدما رمياً بالرصاص ... ثم يجيئ الدور على (الوجودية) ودستورها كتاب (الوجود والعدم) الذي استهوى به مؤلفه (سارتر) جموع الشباب في ديارنا عبر ستينيات القرن الماضي ، يقول لعشيقته (سيمون دو بوفوار) قبل اسبوعين من وفاته : (أنا لا يمكن أن أكون ذرةً ضائعةً في هذا العالم ... ولابدّ أن يكون مجيئي إلى الدنيا بإرادة الله وحده) فألغى بذلك وجوديته الملحدة ... ثم يجيئ الدور على الاتحاد السوفيتي العملاق الذي أكد مؤسسوه أن اشتراكيته (العلمية) ! التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، سيدوم إلى الأبد ... فإذا به يلحق بمن سبقه ويخرج من التاريخ !

عبر تاريخنا الإسلامي وكما يحدثنا (زامباور) في معجم الأنساب والاسرات الحاكمة ، و(لين بول) في (الإمارات المحمدية) و(بوزوورث) في (الإمارات الإسلامية) عن سقوط وتصفية كل الدول والإمارات التي جاوزت المائة والثلاثين عدداً ... وخروجها من التاريخ!

ويظل المبدأ القرآني يعمل عمله في مصائر الأمم والشعوب : ﴿ ... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٤٠) !

إن علينا أيها الشباب أن نستعيد الثقة بأنفسنا ، وأن المستقبل لن يكون إلا لهذا الدين ، وألا يصيبنا اليأس والاحباط : ﴿ ... إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(سورة يوسف : الآية ٨٧) ... ولكن ، وبدون الأخذ بالأسباب في أقصى وتائرها فاعليةً ، فلسوف نظل ندور في الحلقة المفرغة ، ربما لعقود وقرون أخرى من الزمن ، ولن تكون البداية الصحيحة لوضع خطانا على طريق الخلاص إلا بالالتزام بشبكة من الشروط ، وبدونها فإن ألف محاضرةً ... وألف لقاءً ... لن تأتي بطائل على الاطلاق : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ

بِهِ . . . ﴾(سورة النساء : الآية ١٢٣) ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٦٥).

وبقدر الوقت المحدد لكلمتي هذه ، سوف أؤشر على أربعة من هذه الشروط ، بينما هنالك غيرها الكثير ، لعل لقاءات قادمةً أخرى تتيح الفرصة للتحدث عنها.

وأول هذه الشروط هو ضرورة عودة هذه الأمة للالتحام بالخطاب القرآني والنبوي ، أن تملك وعياً كافياً ومعمقاً بأبعاد هذا الخطاب ومقاصده العليا ، وأن تلتزم به في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ ، وتجابه بمعطياته التحديات التي تحيط بها من كل مكان ... فيوم أن انفككنا عن مطالب هذا الخطاب ضعنا في الدنيا ... وأصبنا بالشلل في فاعليتنا الحضارية ، وأصبحنا على هامش التاريخ ، لا حول لنا ولا قوة ... ووضعت أقدام المستكبرين في الأرض على رؤوسنا ... بينما كنا يوم التزمنا بهذا الخطاب سادة الدنيا ... وصنعنا حضارة غدت عبر عدة قرون من الزمن سيدة الحضارات.

ولقد قالها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منبهاً إيانا من مصير السوء هذا : (لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا من بعدي أبداً : كتاب الله وسنتي) ... وإلا أصبحنا قصعةً مباحةً يولم علينا المولمون من مشارق الأرض ومغاربها.

أما الشرط الآخر من شروط نهضتنا الحضارية فيتمثل بضرورة الاستجابة لمطالب اللحظة التاريخية ... أن نفتح بصائرنا على مداها لإدراك ما تتطلبه هذه اللحظة أو تلك ، وألا نصاب بعمى الألوان ، فنمارس ما لا تتطلبه هذه اللحظة ، ونبحر في الاتجاه المضاد لمطالبها ... أفلا نتعلم من رسولنا (عليه أفض الصلاة والسلام) الذي كان بفراسته المدهشة يعرف ما تتطلبه هذه اللحظة أو تلك ، فيستجيب لمطالبها وفق معادلاتها الصارمة. ولذا نجده – على سبيل المثال – يأمر صحابته الكرام بكف أيديهم عن مقارعة المشركين ، رغم ما كانوا يتلقونه من أذى على أيديهم في العصر المكي ... ثم يغيّر الحالة فيعلن جهاده الدائم ضد هؤلاء على مدى العصر المدني ... ثم هو يبدأ هذا العصر بتشكيل جبهة عريضة لحماية مقدرات دولته الناشئة تضم المسلمين والمشركين واليهود ... ثم ما يلبث بعد أن ثبتت هذه الدولة كيانها ، ومارس اليهود طعناتهم الغادرة أن أعلن الحرب عليهم وأجلاهم عن المدينة ، وهو يعلن الصلح مع المشركين في الحديبية ، ويقدم لهم بعض التنازلات الشكلية من أجل تحقيق أهداف أكبر بكثير لصالح الدعوة الإسلامية. ثم ما يلبث بتوجيهٍ من كتاب الله أن يعلن الحرب الشاملة على الوثنية الجاهلية وتصفيتها من الوجود ، في العام التاسع للهجرة ... ويقوم ، بعد أن أصبحت له دولة ، بمراسلة حكام العالم المحيط ، داعياً إياهم إلى الإسلام ويتهددهم إن لم يستجيبوا ... الخ من الخطوات

التي كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتخذها استناداً إلى فقه عميق بمطالب اللحظة التاريخية.

ونحن في زمن ضياعنا وتخلفنا الحضاري لم نلتفت إلى هذا الشرط الضروري لمجابهة التحديات ، فنعلن الجهاد في الوقت الذي تتطلب فيه اللحظة التاريخية عملاً دعوياً وتربوياً هادئاً، ونتنصل عن مفاهيم الجهاد في الوقت الذي تتطلب فيه اللحظة التاريخية التزاماً صارماً به ... نحاول القفز إلى السلطة رغم أن اللحظة التاريخية تقول : لا ، حيث تتكالب الدول الكبر كافةً على وأد أية محاولة إسلامية لتسلّم الحكم ، دون أن نلتفت إلى هذا ، فنقع وتتهشم عظامنا. وهكذا كنا نتحرك على غير هدىً وبغير ما بوصلة تحدّد لنا طبيعة الاستجابة لما تتطلبه اللحظة التاريخية. ولقد كان هذا ، من بين عوامل أخرى ، السكين التي ذبحت العديد من الحركات الإسلامية ولا تزال !

الشرط الثالث يتمثل بضرورة استجاشة قدراتنا – عبر صراعنا الحضاري الراهن – في حدودها القصوى. ولنفترض أن كل أمة في هذا العالم ، بعدل الله وفضله ، أعطيت هامشاً للعمل بمعدل عشر وحدات للفرد الواحد ... فأما الغربيون فراحوا يشغلون الوحدات العشر بأقصى وتائرها ، ولهذا تفوقوا واكتشفوا واخترعوا وتقدموا خطواتٍ عملاقة إلى الأمام. أما نحن فلم نكن نشغل سوى وحدة واحدةً وفي أدنى مستوياتها ولهذا تخلفنا وأصبحنا لقمةً سائغةً في أفواه الدول الكبرى ...

العقل في أقصى حدود الاحتمال ، إذا استعملنا عبارة الكاتب الإنكليزي المعروف هـ . ج . ولز ... ذلك ما يتطلبه منا الأمر إذا أردنا أن يكون لنا مكان على خرائط العالم ... بينما نحن لا زلنا نمارس لعبة قتل الوقت والكسل والتباطؤ ... أفنحلم باليوم الذي سنلحق فيه بمركب الأمم المتقدمة ؟ انها معادلة مستحيلة بكل المعايير ، رغم أن ديننا أراد لنا أن نكون أمةً من العدّائين التي تركض إلى أهدافها لكي تحظى بالجوائز والميداليات والكؤوس. ولقد وصف القرآن الكريم المؤمنين الجادين بأنهم : ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ . . .﴾(سورة المؤمنون : الآية ٦١) وأنهم لها ﴿سابقون﴾، وقال الرسول المعلم (عليه أفضل الصلاة والسلام) (من تساوى يوماه فهو مغبون) حيث يتحتم علينا أن نقدم اليوم إضافةً نوعية على ما قدمناه يوم أمس ، وإلا فهو الغبن لأنفسنا ومصائرنا !

وأخيراً ، وليس آخراً ، نجيئ إلى الشرط الرابع والذي يتمثل بضرورة العمل بروح الفريق ... حيث أن الغربيين تمرسوا على ذلك ، بينما نحن فقدنا القدرة على الامساك بالخيوط ، ورحنا نعمل منفردين ، وقد أدار كل منا ظهره للآخر ، فتشتتت طاقاتنا ، وارتطم بعضها بالبعض

الآخر ، فقادنا هذا ، إلى جانب عوامل أخرى ، إلى حالة الانهيار الحضاري الذي نعانيه منذ قرون وقرون ، ذلك أن الذئب ، كما يعلمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يأكل من الغنم إلا الشياه القاصية !

ولنتذكر كيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اجتاز بأصحابه جملةً من خبرات العمل الجماعي ، والتحرك بروح الفريق في مجابهة المشاكل والتحديات ... بدءً من بناء المسجد الذي سيقدّر له – على تواضعه – أن يغير خرائط الدنيا ، وينكس رؤوس الفراعنة والطواغيت في التراب ، حيث أسهم جنباً إلى جنب مع صحابته الكرام في اعمال تنظيف الأرض ، وتسويتها ، وبناء المسجد ، وهم ينشدون :

لئن قعدنا والرسول يعمل لذاك منا العمل المضلل !

فيرد عليهم الرسول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فأغفر اللهم للأنصار والمهاجرة ... مذكراً إياهم أنهم ، حتى وهم يبنون الدنيا ، فان عليهم أن يضعوا الآخرة نصب أعينهم ... وتلك هي معادلة التوازن بين الثنائيات التي اصطرعت في كل المذاهب والأديان المحرفة ، وتصالحت والتأمت تحت مظلة هذا الدين ... وها هنا يمكن أن نتذكر مقولة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) !

الأمر نفسه يتكرر في حفر الخندق : العمل بروح الفريق ، حيث كلف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كل عشرة من أصحابه بحفر أربعين ذراعاً ... فراحت هذه المجموعات تتسابق فيما بينها ، كل منها تريد إنجاز عملها قبل الأخريات ، ولهذا تم حفر الخندق بزمن قياسي فوجئ به المشركون الذين سعوا عبثاً لاقتحام المدينة ... وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعمل يداً بيد مع أصحابه ، والتراب والعرق يغطيان صدره الشريف ، ويأخذ دوره في الحراسة الليلية ، رغم البرد والجوع والخوف ، ويعرض عليه أصحابه أن يدعهم هم يعملون ويحرسون ، ويأخذ هو قسطه من الراحة والنوم ، فيرفض عليه (أفضل الصلاة والسلام).

وثمة تجربة المؤاخاة ، التي تمثل واحدةً من أكثر الحلقات روعةً في العمل بروح الفريق ، حيث تآخى كل اثنين من المهاجرين والأنصار ، من أجل مجابهة مشكلة الجوع والسكن ، حيث ترك المهاجرون دورهم ومتاعهم وأموالهم ، في مكة لدى هجرتهم إلى المدينة ... ولقد ضرب الأنصار مثلاً مشهوداً على روح البذل والعطاء ، حيث راحوا يتنافسون بينهم لاستضافة المهاجرين وتقديم كل ما يحتاجون إليه.

وفي دار الأرقم تجمع المسلمون كافةً ، هروباً من تشديد المشركين الخناق عليهم ، ومضوا يواصلون عملهم السرّي بروح الفريق ، ملتزمين بتعاليم رسولهم الكريم بأن لا يردّوا على أي

تحرش قد يلقونه من المشركين ... بينما في العصر المدني ، عندما أصبح للمسلمين دولةً ، تحركوا جميعاً وبروح الفريق لجهاد المشركين واليهود والنصارى ، وأدين المتخلفون عن اللحاق بهم ، وصبّت عليهم اللعنات ...

ولا ننسى أخيراً تأكيد هذا الدين على صلاة الجماعة التي يلتم فيها المسلمون خمس مراتٍ في اليوم الواحد ، فيتبادلون – فضلاً عن أداء الصلوات – الأحاديث فيما يهم مسيرة الدعوة ، وحيث يلتقي الغني بالفقير ، والحاكم بالمحكوم ، والأبيض بالأسود ، في محبة ووئام وانسجام ، وكأنهم فريق واحد !

ولقد قام الباحث الأمريكي (مايكل هارث) بتصنيف كتاب يحمل عنوان : (المائة الأوائل) حاول فيه أن يختار أعظم مائة شخصية في التاريخ ... بم ؟ بالقدرة على الانجاز ، ثم مضى خطوةً أخرى لاختيار أعظمها على الاطلاق ، فلم يجد غيرَ محمدٍ بن عبد الله ... بم ؟ بقدرته على الانجاز المدهش دينياً ودنيوياً ، وما ذلك إلى لتعامله الفذ مع صحابته الكرام (رضي الله عنهم) بروح الفريق !

يا أبنائي ... اننا بدون الالتزام بهذه الشروط ، وجعلها تصحو وتنام معنا ، تأكل وتشرب وتتنفّس ، فان ألف محاضرةٍ ، وألف لقاء ، لن يأتي بطائل ، ولسوف نظل ندور في الحلقة المفرغة ربما لعقود بل لقرون أخرى من الزمن ...

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

في العلم والايمان

أعدّت للإلقاء في المؤتمر الثاني للإعجاز العلمي

الذي عقد في أربيل في (تشرين الثاني عام ٢٠١٩م)

بسم الله الرحمن الرحيم

سنلتقي عبر هذا المؤتمر المبارك للإعجاز العلمي جملةً قيمة من البحوث.

وستنضاف إلى ما سبقها ... فتؤكد لمفكري الظاهرة مصداقية هذا التوجه.

إننا نعيش عصر العمل المؤسسي ... وقد أصبح لقضية الإعجاز العلمي – لحسن الحظ – جملةً من المؤسسات وعدد كبير من الباحثين الذين يمزجون الليل بالنهار لتأكيد قناعاتهم بمصداقية التفسير العلمي لكتاب الله ...

واضعين نصب أعينهم الآيتين الكريمتين : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(سورة فصلت : الآية ٥٣) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾(سورة يونس : الآية ٣٩) ...

وهذا يذكر بالاعتراضات والاحتجاجات التي قامت في مواجهة حركة التأصيل الإسلامي للمعرفة التي يتولاها المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

وحركة التأصيل الإسلامي للأدب التي تتولاها (رابطة الأدب الإسلامي العالمية).

فلقد مضت الحركتان تشقان طريقهما عبر مئات الكتب وآلاف البحوث وعشرات المؤتمرات والملتقيات ، حتى استطاعتا أن تقنعا مساحات ليست بالهينة من المعترضين بمصداقية موقفهم الذي يسعى إلى ردّ الأمور إلى نصابها الحق ... فاخترقتا الإعلام والمؤسسات الأكاديمية ، وأصبحت لهما فيها كلمة مسموعة.

والعلم الذي نحيله على الآيات القرآنية ، وليس العكس بطبيعة الحال ، هو علم ظني Not Exact Science ، بينما الآيات القرآنية تحمل اليقين المطلق ... ولكن هذا لا يمنع ، بعد أن تحوّلت بعض معطيات العمل الحديث إلى ما يشبه اليقين أن نحيلها على الآيات القرآنية لكي يتأكد لنا بعشرات الشواهد ومئاتها مصداقية التفسير العلمي لكتاب الله (سبحانه وتعالى) ...

لقد انتهى عصر الإلحاد العلمي ... وحل معه عصر العلم الايماني الذي فاء فيه العلم إلى حظيرة الايمان فيما يقوله الكوزمولوجيون ، وفلاسفة العلم الحديث من أمثال (كاريل وسوليفان واغروس وستانسيو وغيرهم).

هذه العودة تعطي دفعةً أخرى لحركة التفسير العلمي للقرآن الكريم.

أذكركم بواحدةٍ فقط في ختام كلمتي الموجزة هذه ، ذلك الجهد المضني الذي بذله البروفيسور هويل ، عالم الرياضيات المعروف بمساعدة باحث هندي في جامعة كارديف بإنكلترا : التخلّق من الفضاء (Evolutions From Space) ... محاولة ايجاد الحياة من العدم في المادة الطينية ... (Primeval Soup) دخل العالمان كما أكدا ، بعقل الحادي صرف ، ثم تبين لهم في أعقاب سنين طويلة من البحث العلمي الفيزيائي والرياضي ، أنه إذا كان هذا التخلّق ممكناً بنسبة ١ إلى ١٠ فانه بعد دراستهما تلك أصبح ١ إلى ١٠ وأمامها أربعين ألف صفراً أي استحالة ذلك على الاطلاق. ولذلك ختما بحثهما ، وهما الملحدان ، بفصل يحمل عنوان الله : GOD !

شكراً جزيلاً لإصغائكم الجميل ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(٣)
تقاريظ ومقدمات

تقريظ لكتاب (التربية الوالدية : صلة الوالدين بالطفل)
للدكتور هشام الطالب والدكتور عبد الحميد أبو سليمان
والدكتور عمر هشام الطالب
(الكلمة التي ألقيتها في حفل توزيع الكتاب الذي أقامته (دار التفسير)
في أربيل في (خريف عام ٢٠١٧ م)

بسم الله الرحمن الرحيم وأفضل الصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أيها الشيوخ والأساتذة والحضور الكرام ... السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته ... وبعد :

لماذا كتاب التربية الوالدية هذا ؟

والجواب يعود لسببين ، اولهما الخبرة الدعوية والتربوية لمؤلفيه على مدى ستين عاماً ، تنظيراً ودراسةً وتطبيقاً ، حيث كانت البداية في المملكة المتحدة للحصول على البكالوريوس في الهندسة الكهربائية ، وبدء النشاط الدعوي هناك ، والذي تولاه كل من هشام الطالب واحمد التوتونجي وجمال البرزنجي (رحمه الله) ... عربي وتركماني وكردي ، فيما يعكس الأممية الإسلامية التي تلتقي فيها الأقوام والشعوب كافةً تحت خيمة الله سبحانه وتعالى ... ثم كان التحول إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الدكتوراه ولبدء مرحلة جديدة ومترعة بالعطاء في مجال العمل الإسلامي ... رئاسة جملة من المنظمات والمؤسسات الإسلامية بدء من اتحاد الطلبة المسلمين وانتهاء بالمعهد العالمي للفكر الإسلامي ناهيكم عن تأليف جملة من الكتب الدعوية وعلى رأسها كتاب : (دليل التدريب القيادي) وكتاب : (ميثاق الشرف الدعوي) الذي انطوى على شبكة خصبة من الوصايا للعاملين والدعاة ، وقد قلت لمؤلفه ان كتابك هذا يجب أن يكتب بماء الذهب !

أما ثاني الأسباب فهو أن كتاب (التربية الوالدية) هذا يتمركز عند واحدٍ من أشد الحلقات الاجتماعية إلزاماً في الحياة البشرية وهي العائلة والتربية الأسرية ودورها المؤكد في تربية الأجيال.

في شريعتنا الإسلامية أعطيت قضية الأسرة والمرأة والطفولة مساحةً واسعةً جداً ... يكفي أن نتذكر المقاطع والآيات العديدة في كتاب الله وأحاديث رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) ... أن نتذكر سورة النساء وهي واحدة من أكثر سور القرآن اتساعاً ... ها هنا حيث يجب التأكيد عما تنطوي عليه أسماء العديد من السور من الدلالات من مثل سورة الحديد ، القلم ، الشورى ، حيث نجد أنفسنا قبالة ثلاثية القوة والمعرفة والحرية التي يتفوق بها الغربيون علينا في زمننا الراهن هذا ، فلو اننا أمسكنا بدلالاتها جيداً وتحققنا بها في تاريخنا وواقع حياتنا لكان حالنا غير الحال ؟ ... يكفي أن نتذكر العمارة الفقهية الخصبة التي أنجزها الآباء والأجداد في قضية الأسرة والمرأة والطفولة ... والموسوعات العديدة التي صدرت حول الموضوع ، فضلاً عن حشود البحوث والمؤلفات والأطروحات المعاصرة.

فإذا ما انتقلنا إلى الحياة الغربية ، بجناحيها الشيوعي الليبرالي فاننا سنجد كيف فرضت الأسرة والتربية الأسرية نفسها على البيئتين ... لننظر :

لقد اعتبر المنشور (المانيست) الشيوعي الذي أصدره ماركس ولينين في منتصف القرن التاسع عشر " أن أهمية الأسرة في التربية وفي العلاقة بين الولد وأبويه مسألة تثير الاشمئزاز " وأن " اختفاء الأسرة سيتحقق باختفاء رأس المال " وعندما قامت الدولة السوفياتية أصدر الدكتور وليم رايخ ، وهو رجل ماركسي من اتباع فرويد ومؤسس معهد (السياسة الجنسية) ، وتحت تأثير مالينوفسكي كتاباً اسماه (وظيفة الشهوة الجنسية) شرح فيه النظرية التي تزعم أن الفشل الجنسي يسبّب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة وأن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق امكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلا بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود. كما طرح في كتابه هذا ما أسماه بنظرية كأس الماء التي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطراً وأثراً من عملية اطفاء العطش بكأس من الماء !

ولم تمض سوى سنوات قلائل حتى وجد لينين نفسه يضطر إلى إعلان تصريحه الشهير الذي يهاجم فيه نظرية كأس الماء وإلا أصبح أولاد الروس كلهم أولاد حرام ! وكان هذا التصريح هو الخرق الأول في نسيج الفكر الماركسي الذي ما لبث أن أخذ يزداد اتساعاً حتى أتى على التجربة السوفياتية من القواعد وأخرجها من التاريخ.

وأما في الساحة الغربية الليبرالية فها كم ما قالته سيمون دو بوفوار عشيقة جان بول سارتر بالحرف الواحد " ان المرأة لا تخلق امرأة بل تصبح امرأة. فليس هناك مصير بيولوجي أو نفسي أو اقتصادي يحدد الدور الذي تؤديه أنثى البشر في المجتمع. إن المدنية ككل هي المسؤولة عن إنتاج هذا الكائن الذي يوصف على أنه أنثوي ". وانسياقاً وراء نزوعها المضاد للأنثى فضلت أن

تظل عشيقة لرفيقها جان بول سارتر لمدى نصف القرن على ان تصير زوجةً له ، عندما طلب منها الزواج ، معتقدةً أن العلاقة التي تجمعهما كانت أقوى وأهم من (ورقة) تحدد هذه الرابطة !

ليس هذا فحسب بل انها في عام (١٩٧١م) وقعت مع ٣٤٠ امرأة بياناً يفيد بخضوعها لعملية اجهاض تحدياً للقانون الفرنسي آنذاك ... والآن فان فرنسا ان تجابه تحديات المتغيرات الديموغرافية بتناقص سكانها وتزايد السكان المغاربة ، بحيث أن عام (٢٠٥٠م) سيشهد تكافؤاً في الحجم السكاني بين الفرنسيين والمسلمين ... ومن ثم وجد القائمون على الأمر في فرنسا يعلقون في الشوارع ، وفي نشرات الاعلام العبارة التالية : (أيها الفرنسيون نريد أطفالاً) !

في ألمانيا خرجت تظاهرة نسائية في ستينيات القرن الماضي تطالب السلطات الحاكمة بنسبتهن إلى آبائهن بدلاً من الأزواج ... وفي ايطاليا ، بجوار الفاتيكان الذي يحرّم الطلاق شهدت الفترة نفسها صراعاً حزبياً عنيفاً في البرلمان الايطالي حول (إباحة الطلاق) انتهى بتصويت الأغلبية على إباحته ... ما الذي تدل عليه هذه الوقائع سوى ان البشرية التي ضلّت بها السبل تجد نفسها بين الحين والحين مرغمةً على الرجوع إلى التصميم الإلهي للأسرة والمرأة والطفولة : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء : الآية ٢٧) ...

في كتاب عرفات كامل العشي الذي يحمل عنوان : (رجال ونساء أسلموا) حيث تمت مقابلة أكثر من مائة شخصية انتمت لهذا الدين رجالاً ونساءً ، كان السؤال الذي يوجه للمرأة : لم انتميت إلى الإسلام ؟ فيكون الجواب على ألسنتهن جميعاً : إنه التواد والتراحم والتعاطف المعروف عن الأسرة المسلمة واطمئنان الأزواج إلى سلوك زوجاتهم وهؤلاء إلى سلوك أزواجهن فيما يتعلق بالاتصال الحرام ... ناهيكم عن معرفة الابن لأبيه وانتمائه الأصيل إليه ! وهذا يكفي ...

يجيئ كتاب (التربية الوالدية) لكي يقدّم للآباء والأمهات والمربين شبكةً من التعاليم الخصبة في تربية الأبناء ... ومن أجل ذلك تم هذا اللقاء الطيب للتعريف بهذا الكتاب وبمؤلفيه الثلاثة الذين عرفوا كيف يتجولون في أروقة الموضوع وخباياه فيخرجون لنا هذا الكتاب التوجيهي القيّم الذي ينطوي على أبواب ثلاثة يتناول أولها (التربية وضع الأسس) حيث يعالج في فصول سبعة المسائل التالية : التربية الصحيحة ، الأسرة أهميتها ووظيفتها ، وضع الغاية الصحيحة والصالحة ، الغاية الأهم تربية أطفال يحبون الله (فيما يذكرني بكتاب القراءة الخلدونية) الذي تعلمنا من خلاله مبادئ اللغة العربية في الصف الأول الابتدائي ، والذي وضعه المفكر القومي العلماني (ساطع الحصري) والذي كان يخلو من بدئه حتى منتهاه من أية كلمة تذكر الله ، أو

الايمان ، من أجل تمكين المفاهيم العلمانية في عقول الأطفال !!) ، مواجهة التحديات والنواقص العامة ، التصوّرات الخاطئة والأساطير العامة وكيفية تجنبها ، حينما تكون الأشياء خاطئة.

وأما الباب الثاني الذي يحمل عنوان (تنمية الطفل) فيعالج المسائل التالية : بناء الشخصية لا يتوقف (وهذا يذكرني بما كنت أقوله دائماً في محاضراتي من أن الإنسان المسلم مشروع مفتوح للصعود إلى أعلى عبر محطات الإسلام ، فالإيمان ، فالتقوى ، فالإحسان المرحلة القمة التي لا يدركها إلا ذوو الحظوظ العظيمة والهمم العالية) ، طرق التربية السليمة ، الرضاعة الطبيعية ، استخدام دماغ الطفل وإلا خسرناه ، هل ثمة فرق بين تربية الأبناء والبنات؟ الجنس والثقافة الجنسية : ماذا نقول لأطفالنا.

وفي الباب الثالث الذي يحمل عنوان : (بناء الشخص والشخصية) تعالج الموضوعات التالية : الشخص والشخصية ، زرع الشجاعة ، تعليم الحب ، تعليم الصدق والثقة ، تعليم المسؤولية ، تعليم الاستقلالية ، تشجيع العمل الابداعي ، الثقة بالذات أو الطفل المدلل ، اختيار الصديق الطيب ، التأثيرات السلبية للتلفاز والفيديو والألعاب الكومبيوترية.

وينتهي الكتاب بخاتمة وملحق يتضمن جملةً من النصوص القرآنية والنبوية في تربية الطفل.

شكراً جزيلاً لحضوركم وإصغائكم الجميل

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تقريظ لكتاب (المنتقى من التفسير الطبي للآيات القرآنية)
للدكتور محمد جميل الحبال

يوغل الأخ الفاضل الدكتور محمد جميل الحبال في كتاب الله ، من بدئه حتى منتهاه ، بحثاً وتحليلاً للآيات والمقاطع القرآنية ذات العلاقة بالطب ، فلم يكد يترك شاردةً ولا واردةً إلا وأمسك بها في كاميرته الحساسة بحثاً عن جوانب الإعجاز فيها ، بحيث أن المرء يدهش لهذه القدرة المتميزة على التقاط كل ما من شأنه أن يمنحنا القناعة بأن هذا الكتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى.

إنه يعرف كيف يوظف سياقي التنظير والتطبيق معاً لاستخلاص النتائج المحكمة في ميدان التفسير العلمي ، وهو بخبرته الطبية قدير على ذلك ، بحيث انه يرغم حتى المتشككين والزائغين على قبول استنتاجاته والاذعان لمصداقية هذا الكتاب المدهش الذي يتحدث عن جملة من الموضوعات فتجيئ معالجته مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(سورة فصلت : الآية ٥٣) والآية الكريمة : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . . . ﴾(سورة يونس : الآية ٣٩) ...

ولقد أتيح لي ، منذ ما يزيد على العشرين عاماً أن اطلع على الكتاب الذي أنجزه الدكتور محمد جميل الحبال بالمشاركة مع الأخ الدكتور مقداد رحمة الله وأسعدني أن أكتب مقدمته ، وهو يحمل عنوان : (العلوم في القرآن الكريم) فرأيت فيه جهداً يستحق التقدير والثناء على ما بذله فيه مؤلفاه ، وها هو ذا الدكتور الحبال يضيف في كتابه هذا عملاً آخر سيكتب له في ميزان حسناته إن شاء الله.

لقد أصبح الدكتور الحبال أحد العلماء الذي يشار إليهم بالبنان في موضوع التفسير العلمي للقرآن الكريم ، وهو لا يالو جهداً في حضور الندوات والمؤتمرات التي تقام حول الموضوع سنةً بعد اخرى. ويقطع من أجل المشاركة فيه المسافات الطوال ، باحثاً ومحاضراً ومناقشاً ، فيرد بذلك على كل المشككين بجدوى التفسير العلمي للقرآن الكريم ... وما أكثرهم للأسف الشديد.

إنه يحسم بكتابه هذا ، جنباً إلى جنب مع كل الكتب والبحوث التي ألفت حول الموضوع ، الجدل الذي لا معنى له حول موقف القرآن الكريم من العلم الحديث ... فبارك الله في المؤلف على ما قدمه من جهد ، وزاده عطاءً وإبداعاً ...

(أربيل في ٢٠١٧/٩/٢٣م)

تقريظ لكتاب (سيكولوجية الطفل عبر مرحلة الروضة)

للأستاذ مدحت عبد الرزاق

من هنا تبدأ عملية بناء الإنسان والمواطن الصالح في ديارنا ... من مرحلة الروضة والمدرسة الابتدائية ، ومن ثم وجب الربط عبر هاتين المرحلتين بين مطالب المعرفة الإنسانية بما فيها علم النفس ، وبين القيم الايمانية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) من أجل تخريج أجيال من أبنائنا متوحدةً في فكرها وسلوكها بين ما يريده منها هذا الدين وبين الكشوف المعرفية والنفسية التي تزداد – يوماً بعد يوم – قدرةً على إدراك أعمق ما يعتمل في النفس البشرية من تجارب وخبرات.

لقد اخترقنا في روضاتنا ومدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا عبر القرنين الأخيرين ، للأسف الشديد ، بتلك المناهج المعرفية التي لا تكترث على الاطلاق بكل ما هو ديني ايماني ... وما كان نتيجة ذلك الا تخريج أجيال من أولئك الذين يعانون حالة من الازدواج بين قناعاتهم الدينية وبين ما تقدمه لهم المدارس والجامعات ... انها كما يصفها المفكر المجري (ليوبولد فايس) في كتابه القيّم : (الإسلام على مفترق الطرق) بمثابة السمّ الذي تجرعناه عبر مائتي سنة من التعليم عبر مراحله كافة والذي قاد إلى تخريج أجيال من المأزومين نفسياً وفكرياً وسلوكياً ... للأسف الشديد.

وإنني لأتذكر في هذا المجال كيف أن كتاب (القراءة الخلدونية) الذي تلقينا منه تأسيسات معرفتنا اللغوية في الصفوف الأولى من دراستنا الابتدائية ، كان بسبب من لا دينية مؤلفه ، يخلو على الاطلاق من كلمة (الله) ومن أية قيمة ايمانية تحقق الارتباط الشرطي بين ما يتلقاه التلميذ في المدرسة وبين قناعاته التي رباه عليها الآباء.

ويجيء كتاب (سيكولوجية الطفل عبر مرحلة الروضة) للأخ الأستاذ مدحت عبد الرزاق محاولة جادة لتعديل الوقفة الجانحة ، وهو يحاول بإخلاص أن يعيد الارتباط بين المعرفة النفسية وبين المنطلقات الايمانية المستمدة من كتاب الله (جلّ في علاه). وقد سبق له أن أصدر في هذا السياق كتابه القيّم (علم النفس بين التراث والمعاصرة).

وكم كنت اتمنى أن يغذي توجهه الأصيل هذا بالرجوع إلى كتاب محمد قطب (دراسات في النفس الإنسانية) وكتابه الآخر (الإنسان بين المادية والإسلام) لإيراد جملة من الشواهد العلمية على الارتباط الوثيق بين المعرفتين النفسية والايمانية.

فبارك الله في المؤلف وزاده عطاءً وإبداعاً ...

(الموصل في ٢٠١٧/١١/٢٧م)

تقديم لكتاب (أسماء سور القرآن الكريم : دراسة لغوية تحليلية)
للدكتور باسل خلف حمود

كنت من زمن بعيد انتظر أيها القارئ العزيز من يعكف على دراسة أسماء السور القرآنية الموقوفة من لدن رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وكنت في محاضراتي العامة أشير إلى أسماء ثلاث سور هي (الحديد) و(الشورى) و(القلم) وأقول : أليس ذلك يعني أن كتاب اله قد منحنا ثلاثة مفاتيح لأن نكون الأمة الأعلى مكانةً في هذا العالم ؟ فالحديد تعني التحقق بالقوة على مستوى السلم والحرب : ﴿ . . . وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(سورة الحديد : الآية ٢٥) و(الشورى) تعني التحقق بالحرية في اتخاذ القرار : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾(سورة الشورى : الآية ٣٨) ، و(القلم) تعني التحقق بالمعرفة في سياق الفاعلية الحضارية : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾(سورة القلم : الآية ١) وأن الغربيين يتفوقون علينا اليوم بإمساكهم جيداً بهذه المفاتيح الثلاثة ، ويوم أن انفككنا عن الخطاب القرآني ... حفرنا بيننا وبينه خندقاً عميقاً ... وضعنا في آذاننا شمعاً أحمر لكي لا نصغي لندائه ، غادرنا موقعنا المتقدم في قمة العالم ، وأصبحنا مطيةً للراكبين وقصعةً يولم عليها المولمون ... ولن ينقذنا من ورطتنا المعاصرة هذه إلا العودة للالتحام بالخطاب القرآني والإمساك بمفاتيحه الكبرى.

وقد أتيح لي أن أقوم برحلة مع عالم الحيوان في كتاب الله ، اعقبتها برحلة أخرى مع دنيا النبات نشرتا في كتابي (مع القرآن في عالمه الرحيب) وما لبثت أن اعقبتهما برحلة ثالثة مع اللون في كتاب الله نشرت في كتاب (حول ستراتيجية الأدب الإسلامي) ، ورحلة رابعة مع الصوت في كتاب الله سوف تنشر في كتاب يحمل عنوان (دراسات قرآنية) ... وعبر رحلاتي تلك كنت أجد في أسماء السور ما يعينني على متابعة الموضوع.

ولكن تبقى المهمة الأصعب هي المضي لدراسة لغوية تحليلية لأسماء السور كلها في كتاب الله وها هو الأخ الدكتور باسل خلف حمود يخرج على الناس بأطروحته القيمة التي تحمل (أسماء سور القرآن الكريم : دراسة لغوية تحليلية) يستقصي فيها بقلم عارف خبير أسماء السور كافة ، متابعاً أصولها اللغوية ، محللاً دلالاتها ومراميها ، فيما يجده القارئ بين يديه.

ويظل كتاب الله المنجم الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، والينبوع الذي تتدفق معطياته الخصبة عن شبكة من الموضوعات الصالحة للدراسة والتحليل.

هل يمكن اعتبار هذا الكتاب حلقة مضافة إلى البحوث الخاصة بالتفسير العلمي للقرآن الكريم فضلاً عن انتمائه لخانة الدراسات اللغوية والتحليلية لهذا الكتاب المعجز ؟

نعم وبكل تأكيد ...

وقد أتيح لي الاطلاع على رسالة للماجستير قدمها الأخ رعد العمري إلى جامعة الاوزاعي اللبنانية ، تتابع وتحلل كل السور القرآنية المعنية بعالم الحشرات ، من مثل النحل والنمل والعنكبوت ، فضلاً عما يتضمنه النص القرآني من إشارة إليها مثل البعوض والذباب والقمل ... الخ فقلت في نفسي : يا الله على هذا الكتاب المدهش الذي يقدم رؤيته البانورامية عن كل الخلائق والموجودات ، ويكشف عن سرّ خلقها ، والحكمة من ايجادها ، وسبر دقة صنعها على يد الخلاق العليم.

ها هنا في هذا الكتاب الذي قدّم في الأصل أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في علوم القرآن ، إلى كلية آداب جامعة الموصل ، سيشهد القارئ بأم عينيه ما الذي تعنيه أسماء سور تنطوي دلالتها على الكثير الكثير مما تعجز الشروح المطولة عن الإتيان عليه. وإلا فما الذي تعنيه أسماء كهذه : البقرة ، النساء ، المائدة ، الأنعام ، النحل ، التوبة ، الرعد ، النحل ، النور ، النمل ، العنكبوت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، النجم ، القمر ، الرحمن ، الحديد ، المجادلة، الممتحنة ، القلم ، المعارج ، القيامة ، الإنسان ، المطففين ، الطارق ، الأعلى ، الفجر ، الشمس، الليل ، الضحى ، التكاثر ، العصر ، الماعون ، النصر ، الاخلاص والناس ... الخ ؟

وعلى ذكر سورة العصر ، لا زلت أذكر يوم قيل لنا ، في منتصف ستينيات القرن الماضي ، إن الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ستلقي محاضرة في كلية الشريعة تعتمد تأسيسات زوجها أمين الخولي (رحمه الله) في التفسير البياني للقرآن الكريم وتنزيلها على تفسير سورة العصر ، فهرعنا نحن طلبة الماجستير في بغداد لكي نستمع إلى محاضرتها تلك ... لقد سحرتنا بأدائها فكأن الدقائق الخمسين التي تحدثت فيها مجرد لحظات من عمر الزمن ، حيث بيّنت أن القسم بالعصر ليس المقصود به وقت العصر ، أو العصر الراهن ، أو الزمن على اطلاقه ... وانما الآلة الزمنية التي تدور فتعصر في دورانها الإنسان ولا تتركه إلاّ ركاماً !!

كانت تلك واحدةً من أروع المحاضرات التي أتيح لي أن استمع إليها في حياتي ...

إنها والحق يقال مفاتيح يضعها كتاب الله ، وفقه رسوله العظيم (عليه أفضل الصلاة والسلام) في يد القارئ لكي تقوده عبر عوالم وآفاق لا حدود لها ، وترحل به عبر فضاءات السماء الكبيرة التي جاء هذا الدين لكي ينقل الناس إليها.

وها هو الأخ الدكتور باسل خلف في كتابه هذا يجول بنا عبر رحلة مكثفة وممتعة ، في سياقيها اللغوي والتحليلي ، في أسماء سور القرآن الكريم كافةً ، مستقصياً دلالات موضوعه من حشد كبير من المصادر والمراجع ، كما تنبئ بهذا تهميشات الكتاب وقائمة مصادره ومراجعه ، مضيفاً إليها ذائقته الخاصة المنضبطة بثوابت التفسير ، واللغة والبلاغة والبيان ، لكي يطلع على قرّائه بهذا الكنز الثمين الذي سيضيف إلى مكتبة الدراسات القرآنية كتاباً بكراً يستحق التقدير والاعجاب.

لا أريد أن أطيل على القارئ الكريم في عرض فصول الكتاب وما انطوى عليه من تحليل قيّم ، ومتابعة خصبة للمفاهيم اللغوية التي تقود إليها أسماء السور القرآنية هذه.

ومن الله وحده نستمد العون والتوفيق

(الموصل في ٢٠١٨/٣/١١م)

تقديم لكتاب (القدس : العالم في مدينة)
الذي أصدره (ملتقى القدس الثقافي)
(في عمان ٢٠١٨م)

منذ ما يقرب من السبعين عاماً أصدر مالك بن نبي (رحمه الله) سلسلته المعروفة بالإسلام ومشكلات الحضارة وبضمنها كتابه القيم (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) فوضع بذلك يده على أساس الهزيمة التي أريد لهذه الأمة أن تمنى بها ، ولقد منيت بها فعلاً ، وبصيغ شتى ، ولكن القاسم المشترك الأعظم فيها جميعاً كان هزيمتنا الفكرية ، ويجيئ الأستاذ الدكتور اسحق فرحان (تغمده الله برحمته الواسعة) ، رئيس ملتقى القدس الثقافي ، لكي يواصل الطريق الذي شقّهُ سلفه مالك بن نبي فيؤكد على أن القدس احتلت معرفياً قبل أن تحتل أرضاً ، والواجب الذي تحتمه هذه الحالة هي أن نعيد للثقافة والمعرفة المقدسية صدارتها كمكون رئيس من مكونات التحرير.

فما لم نتداع لتحصين زهرة المدائن هذه ، ومركزها المشع المسجد الأقصى ، تحصيناً ثقافياً ، فان كل الدعوات لتحريرها ، وقبل ذلك لحمايتها من الضياع ، لن تأت بطائل.

إن هذا الكتاب الذي يصدره (ملتقى القدس الثقافي) والذي يحمل عنواناً ذا دلالة واضحة: (القدس : العالم في مدينة) سوف يتكلم بأيدي باحثين متخصصين عن مركزية الأقصى في المدينة من ناحية المفهوم والتاريخ والعقائد والواقع والمستقبل ، وهو يجيئ في موعده تماماً حيث تتعرض القدس ومسجدها الأقصى لواحدة من أشد الهجمات الصهيونية والاستعمارية شراسةً ، بما في ذلك اتخاذ القدس عاصمةً لإسرائيل بمباركة الولايات المتحدة الأمريكية التي يهيمن اللوبي الصهيوني على خياراتها السياسية ، ويضعها تحت السرج ، كما تنبأت بروتوكولات حكماء صهيون.

ومنذ عشرينيات القرن الماضي تحوّلت الجامعة العبرية في القدس إلى ما يشبه خلية نحل، تعمل بإدارتها وأقسامها وأساتذتها وباحثيها وطلبتها ، بشكل محموم يمزج الليل بالنهار لتأكيد المعطيات التوراتية والتلمودية التي تهرأت بفعل التحريف ، وتقادم الزمن ، إلى واقع معيش مترع بالحيوية والوعد بمستقبل يصير فيه لليهود دولةً في هذا العالم.

فبقوة العلم ، والأداء المعرفي المتواصل ، مضوا يشقون طريقهم إلى أهدافهم وفق خطة زمنية مرسومة بعناية ، وجهد تراكمي ينبني بعضه إلى بعض من أجل الوصول إلى هدفهم المرتجى !

والمهم ، كما أكد الدكتور اسحق فرحان فان القدس احتلت معرفياً قبل أن تحتل أرضاً ، وعلينا مرةً أخرى ، إذا أردنا أن نحرّرها من هذا الاحتلال أن نحذو حذوهم ، فنفعل نشاطنا العلمي والمعرفي ، اضعافاً مضاعفة عما هو عليه الآن ، وفق برنامج زمني مرسوم ، يتراكم فيه الجهد ويؤول في نهاية الأمر إلى غايته.

إن تحرير القدس من قبضة الصليبيين ، بعد ثمانين سنة من احتلالها لم يأت على طبق يتنزل من السماء ، وانما وفق شبكة من الجهود المتواصلة التي بذلها قادة الأمة الإسلامية وجماهيرها على مدى هذه السنوات الطوال : آق سنقر البرسقي والي الموصل السلجوقي ، وعماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، ثم يجيئ الناصر صلاح الدين لكي يوظف هذا الجهد المتنامي من أجل قطف الثمرة وتحرير القدس.

ونحن في عصرنا الحديث هذا لم نكد نتحرك شبراً واحداً باتجاه هدفنا المركزي ، ولم نكد نفكر يوماً بخطة زمنية خمسية أو عشرية أو خمسينية كما فعل الخصم بين سنتي (١٨٩٧م) حيث مؤتمر بازل التأسيسي و(١٩٤٨م) بإقامة دولته المغتصبة ... لم نفكر حتى بإيجاد سوق عربية أو إسلامية مشتركة من أجل تجميع طاقات الأمة وتجاوز بعثرتها وتشتيتها !

مهما يكن من أمر فان التاريخ ، رغم سننه الصارمة التي لا تحابي ، لم يفلت من بين أيدينا بعد ، فقط إذا أحسنا التقاط السمع لنبضه ومطالبه ، ومضينا وفق ما تتطلبه مقولاته ومعطياته ، وعلى رأسها ولا ريب التشبث بثوابتنا المعرفية لحماية زهرة مدائننا من العدوان والاحتلال ، كما تؤكد بحوث هذا الكتاب ، وتعد به ...

ومن الله وحده العون والتوفيق ...

(في ٢٠١٨/٧/٨م)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ لكتاب سيرة الصحابي جابان الكردي

للدكتور دحام الهسنياني

هذا كتاب يجيئ في موعده تماماً لكي يضع النقاط على الحروف في موضوع تعرّض للكثير من الجدل والمغالطات ، بل حتى التزوير والتزييف ، ثم ها هو الأخ الدكتور دحام الهسنياني يعكف على دراسته وتقليب صفحاته ، لكي يضع يديه بإخلاص الباحثين عن الحق وحده على ما شهده تاريخ الكرد المبكر في علاقتهم بالدين الجديد ، وفتح الطريق أمام قادته الفاتحين ، برحابة صدر وتقبل طوعي لا إكراه فيه على الاطلاق لاعتناقه والقتال دونه ... ليس هذا فحسب بل لبدء عهد جديد نقل الكرد إلى قلب الفاعلية الحضارية حيث ظل إقليمهم يخرّج كبار العلماء والفقهاء واللغويين والمؤرخين والأدباء جيلاً بعد جيل.

ما الذي يدلّ عليه هذا ؟ ونحن نرى بأم أعيننا في زمننا المعاصر كيف انطلق العقل الكردي الأصيل لكي يساهم جنباً إلى جنب مع إخوانه العرب وسائر القوميات الأخرى في بناء الصرح الحضاري للأمة.

إن هذا الدين جاء لكي يعلن ويتقبل ويفتح صدره لما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية التي يلتقي فيها العربي بالكردي بالتركي بالفارسي بالاندنوسي بالماليزي بالباكستاني بالإفريقي والأوروبي تحت مظلة واحدة ، يحملون جميعاً الهم المشترك الواحد ويتجهون صوب قبلة واحدة وهدف واحد. ولكنهم كل في دائرة انتمائه القومي كانت له الحرية المطلقة في أن ينسج حيثيات ثقافته الخاصة ، ويعبر عن عاداته وتقاليده وذوقه المتميز الذي يفرقه عن الجماعات الأخرى.

إنها عقيدة الوحدة والتنوّع كما يؤكد جملة من المستشرقين ، الوحدة في الأهداف والتنوع في الثقافات والعادات والتقاليد التي لم يقل أحد من فقهاء الإسلام بأنها خروج عن الجادة.

يجيئ هذا الكتاب لكي يحدثنا بالتفصيل المشبع بالتوثيق الدقيق عن رحلة الزعيم الكردي جابان إلى قاعدة الإسلام في الحجاز لكي يبايع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولكي يمضي وذريته من بعده في خدمة هذا الدين والدعوة إليه.

وهذا الكتاب يجيئ متمماً لكل من بحث الدكتور عبد الله النقشبندي (رحمه الله) والمعنون (أمجاد الأكراد) وبحث الدكتور أحمد مرزا عن رحلة جابان وانتماء الكرد للإسلام ، واللذين

يكشفان فيهما عن جملة من الحقائق التاريخية بخصوص موقف الكرد من هذا الدين ، وطواعية الانتماء إليه ، والاستماتة في الدفاع عن مقدراته.

ولسوف يظل الكرد الأحفاد الأمناء لأولئك الأجداد الذين وضعوا مقدراتهم الحربية والحضارية معاً في خدمة هذا الدين على تقلب الظروف وتغاير الأحداث.

ومن الله وحده التوفيق والسداد ...

(أربيل في ١٥/١١/٢٠١٨م)

تقريظ لكتاب (الهدي النبوي في رعاية اليتيم)

للدكتور زياد ناطق يحيى

هذه الدراسة تجيئ في وقتها المناسب لسببين : أولهما الرد على الدعاوى الغربية الملتوية في غياب حقوق الإنسان في عالم الإسلام ... وثانيهما الكثرة المرعبة والتزايد الرهيب لحشود الأيتام في العديد من البلدان العربية والإسلامية : في العراق ، في اليمن ، في سوريا ، في ليبيا، في بورما ، في الصين ، وفي غيرها من البيئات الإسلامية التي استرخص فيها الدم ، حيث أتت الفتن والحروب والصراعات الطائفية والقتل العشوائي ، والقتل العمد ، والتهجير القسري ، وغياب اللاجئين في أعماق البحار ، على الآلاف المؤلفة من الآباء والأمهات ، وتركت حشوداً لا يحصيها عد من الأيتام الذين يحاصرهم الاهمال والتجاهل ، وهم يعانون من ضياع الأهل ، والجوع ، والتشرد والمرض ... فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

إن هذا الدين يضع في شريعته الخصبة النقاط على الحروف ، في كل معضلةٍ تجابه الإنسان أياً كان دينه وموطنه ، ويضع لها الضمانات ، ويمنحها الرعاية ، ويحفظ حقوقها من التبعثر والضياع ...

عبر كل مساحةٍ من مساحات الحياة نجد يد الشريعة السمحاء تمتد لكي تنتشل المأزومين والمعذبين والجوعى والمحرومين ، من البؤر التي يتخبطون فيها ، إلى فضاء العدل والاحسان والحياة الكريمة التي تليق بهذا الكائن الذي كرمه الله سبحانه وتعالى على الخلائق كافةً : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (سورة الإسراء : الآية ٧٠) ...

في مجال حماية النفس والمال ، في مجال حرية التعبير ، في مجال العدل الاجتماعي ... في مجالات الحياة البشرية كافة ، يتقدم هذا الدين ببرامج عمله المتشعبة ، لكي يعيد للحياة سوّيتها ويخرج بها من البؤر التي تختنق فيها ، فيرد بذلك على دعاوى الغربيين بخصوص حماية حقوق الإنسان التي تمرسوا في سحقها بأقدامهم ، بدءً من إبادة مائة وعشرين مليوناً من الهنود الحمر في الساحة الأمريكية ، مروراً بتدمير مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين بقنبلتين ذريتين أتت عليهما من القواعد ، وصولاً إلى ما فعلته في افغانستان من خنق الناس بالمغارات بقنابلها التكتيكية ، وإلى العراق حيث أسقط ثمانين ألف طن من اليورانيوم المخضب الذي ستظل الأجيال تعاني من اشعاعاته المميتة لمديات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى ... وهل ننسى دور

أمريكا في جملة الانقلابات والمذابح التي شهدتها سوح إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية ؟ وهل ننسى ما فعلته في فيتنام من المجازر التي تقشعر لهولها الأبدان ؟ وهل ننسى دورها المحوري في إقامة الكيان الإسرائيلي المغتصب في فلسطين ومدّه بأسباب القوة والنماء ، والدفاع المستميت عن إرهابه الذي يعرفه القاصي والداني ؟ ولنتذكر ما فعله أسلاف الغربيين من حرق وتنصير وتهجير مليوني ونصف المليون من مسلمي الأندلس يوم أن سقطت آخر معاقلهم في غرناطة ، وما فعله أخلافهم في البوسنة والهرسك مما أطلقوا عليه حملة التطهير العرقي ؟!

هذه الدراسة تتمركز عند حلقة فحسب من شبكة حقوق الإنسان وهي (الهدي النبوي في رعاية اليتيم) فتعالج منزلة كافل اليتيم ، ومنزلة أم اليتيم ، وثواب اطعام اليتيم ، وتربية وتعليم اليتيم ، ومسح رأس اليتيم ، والاعتداء على مال اليتيم ، وحق الكافل في مال اليتيم ، واستثمار مال اليتيم ، وزكاة مال اليتيم ، وانتهاء اليتم ... فهل تركت زيادة لمستزيد ؟ لا أظن !

وهو يختتم دراسته بنداء مؤثر ، وهو يرى حشود الأيتام تنتشر في مدن العراق ، من أقصاها حتى أقصاها ، فيقول " كونوا حريصين على الاقتداء بهدي نبيكم (عليه أفضل الصلاة والسلام) في رعاية اليتيم ، فأيتامنا اليوم بأمس الحاجة لمن يرعاهم ... هم بحاجة إلى الكلمة الطيبة والعطف والحنان والملاطفة ... أيتامنا أمانة في أعناق كل إنسان بلا استثناء ، وهذه الأمانة لن تسامح من يهمل اليتيم أو يغفل عنه ... فإن أهملنا الأيتام وتركناهم للتشرد والضياع فلا نلوم إلا أنفسنا غداً عندما تنتشر الجريمة ويسري الانحراف في مجتمعاتنا ، حينئذ نعض أصابع الندم " ...

فبارك الله للمؤلف على جهده القيم هذا ومن الله وحده التوفيق والسداد ...

(أربيل في ٢٠١٨/١٢/٢٤م)

تقريظ لكتاب (الشيخ الدكتور فيضي الفيضي وجهوده الحديثية) للدكتور زياد ناطق يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه صفحات مضيئة عن حياة الشيخ الدكتور فيضي الفيضي وجهوده الحديثية ... وهي جزء من الوفاء لهذا الرجل السمح الودود الذي يشع وجهه بوضاءة الايمان ، وقلبه بالمحبة الصادقة لله ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، وعقله بالرؤية السمحاء التي جاء هذا الدين لكي ينقل البشرية من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله (جلّ في علاه) ...

لقد سبق لي وأن تعرّفت على الشيخ فيضي منذ زمن بعيد ، فوجدت فيه ذلك العالم الجليل الذي يعكس بصدق روح هذا الدين ، بانفتاحه على الآخر ، ورفضه التشدّد والغلو ، ومحاربته البدع والخرافات ... وهو بذلك يذكرنا بذلك الخط الطويل من أعلام الأمة المتصوفة المعتدلين الذين التزموا بصرامة بالغة طرفي المعادلة الإسلامية : الحقيقة والشريعة ، ومضوا يكتبون ويؤلفون ويخطبون في الناس ، ويجاهدون الغزاة والطغاة ، دون أن ينحرف بهم الميزان ...

من أجل هذا اختاره الموساد الإسرائيلي ، يوم كان يسرح ويمرح في مدن العراق بعد احتلاله ، لكي يكون أول الشهداء ، فيصفي الحساب معه برصاصه المكتوم الذي يعرف كيف يتشظى في الجسد الآدمي فيحيله ركاماً !

رحمك الله أيها الشيخ والأخ والصديق الذي اخترمه الموت وهو في عزّ شبابه وتدفق دراساته ودروسه وخطبه ومواعظه ، ورؤيته التأسيسية التي تمخضت عبر زمن قياسي قصير عن جملة من المؤسسات والمعاهد العلمية والدعوية التي أراد لها الشيخ أن تواصل عطاءها الثرّ لمجابهة شبكة الانحرافات والميول والأهواء والمصالح التي عصفت بالعراق الجريح ...

ولكن هذا أمر الله ... وكان أمر الله قدراً مقدوراً ...

تجيئ هذه الدراسة القيّمة لمتابعة جانب من معطيات هذا الرجل الشيخ ، فتتحدث عن جهوده الحديثية ، حيث تخصصه الأكاديمي الدقيق ، فتستقصي وتلاحق وتحلل وتحقق ، ما قدر عليه مؤلفها الأخ الدكتور زياد ناطق ، بصبرٍ وأناةٍ ، جانبي التعامل مع الحديث النبوي ، مصدراً ثانياً للتشريع بعد كتاب الله ، رواية ودراية ، ويستعرض ما قدمه الشيخ الفاضل من دراسات حول الموضوع ، يسبق هذا كله بمقدمة موجزة عن حياته.

إن مصادر ومراجع هذه الدراسة ، والتي تجاوزت العشرات ، تنبئ عن الجهد الذي بذله مؤلفها ، وعن رغبته الجادة في تقديم الصورة الموضوعية العادلة عن الجهود الحديثية للشيخ الفيضي (رحمه الله).

لقد سبق في ثمانينيات القرن الماضي أن كلفني الشيخ الفيضي بكتابة مقدمة لمؤلفه القيّم عن الشيخ ابن تيمية الذي يعكس ، رغم ما يشاع عنه خطأ ، خبرةً روحيةً موغلةً تكاد تجعله أستاذاً من أساتذة التصوّف الأصيل ... كما جمعتني بالشيخ رحلة مشتركة للحج إلى بيت الله الحرام ، عام (١٩٩٨م) ، حيث كان من حظ قافلتنا أن يكون هو مرشدها الديني ... وبعدها توالت الزيارات واللقاءات بيني وبينه ، فما زادتني إلا حباً بفكره المنفتح ، وسماحته التي تعرف كيف تكسب الآخرين.

فلما تلقيت نبأ اغتياله هرعت إلى جامع الروضة المحمدية لتشييعه والمشاركة في إلقاء الكلمات التأبينية في رحيل هذا العالم الذي غاب عنا في زمن القهر والظلمات ونحن بأمس الحاجة إليه ...

ومرةً أخرى ، تجيئ هذه الدراسة لكي ترد جانباً من الدين الذي طوّق به الشيخ أعناقنا جميعاً ، وهو بحاجة إلى المزيد ...

ومن الله وحده التوفيق والسداد ...

(أربيل في ٢٠١٨/١٢/٢٤م)

تقريظ لكتاب (المنهج القرآني والظاهرة العلمية)
للمهندس حاتم فايز البشتاوي

لا أدري كيف يتشبث نفر من الذين يحملون الهم الإسلامي بأن الإعجاز الوحيد في كتاب الله (سبحانه وتعالى) هو الإعجاز البلاغي ، وينكرون الجانب الآخر من الإعجاز الذي يتعامل مع الظاهرة العلمية ... انهم ينظرون بعين واحدةٍ ، ويعتمدون الرؤية الأحادية التي لا تعرف كيف تدير المنظور على الظاهرة من أطرافها كافة.

ذلك أن القرآن الكريم يقولها بصراحة ، مؤكداً على البعد المستقبلي الذي ستقول فيه الكشوف العلمية على مستوى الكون والعالم والإنسان ، كلمتها التي تنطوي على التطابق المدهش مع آيات الله البيّنات : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(سورة فصلت : الآية ٥٣) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . . . ﴾(سورة يونس : الآية ٣٩).

إن المتمعن في كتاب الله يجده ، دونما أي تمحل أو قسر ، يغطي المسألة العلمية في جوانبها الأربعة : الفلسفة أو الأهداف ، والمنهج ، والحقائق ، والتطبيق. والذي يتابع سيل البحوث والدراسات القرآنية التي جاوزت العشرات والمئات والألوف ، تلك التي تابعت طبيعة الارتباط بين آيات الله وبين الحقائق العلمية ، لا يمكنه بحالٍ من الأحوال أن يشكك أو ينكر حقيقة الإعجاز العلمي للقرآن.

ويجيئ كتاب الأخ المهندس حاتم البشتاوي المعنون بـ (المنهج القرآني والظواهر العلمية)، في جزئه الأول ، لكي يتوج هذه الجهود بقدرة مدهشة على الاستقصاء والتحليل ومتابعة الظاهرة في أطرافها كافة : الإنسان والتسخير الكوني ، الكون والقرآن ، الله يتجلى في الكون ، الحقيقة العلمية الكبرى ، والمنهج العلمي في القرآن الكريم.

لقد أتيح لي ، لحسن الحظ ، أن أتعرف على الأخ المهندس حاتم البشتاوي عام (٢٠٠٣م)، يوم كنت أعمل أستاذاً منتدباً في جامعة الزرقاء الأهلية بالأردن ، وسلمني مسودات كتابه بأجزائه كلها لكي أرى فيها رأيي ... فإذا بي قبالة رجل عرف كيف يلّم مفردات موضوعه كافةً دون أن يترك زيادة لمستزيد. وعبر جلساتي معه كنت أعجب لذاكرته الحادة وهو يتحدث عن فسيولوجيا الكون في نشأته وتمدده واتساعه ، مستشهداً بحشود الأرقام الفلكية التي تستعصي

على الحاسبين ، فما زادني ذلك إلا إعجاباً بهذا الباحث الجليل ، وتقييماً لجهده الذي سيصب في سياق التفسير العلمي للقرآن ، ويغني بحوثه الخصبة بالمزيد من الاضاءات والمقارنات.

ولحسن الحظ فقد أتيح للجزء الأول من موسوعته العلمية هذه أن يصدر في كتاب عام (٢٠١١م) ، وهو يعد بإذن الله بصدور أجزائه التالية لكي يكتمل المشوار ، وتتلقى المكتبة القرآنية بحثاً في غاية القيمة يذكرنا بكتاب الباحث الفرنسي المعروف : (موريس بوكاي) : (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة) وغيره من الكتب التي عالجت التفسير العلمي للقرآن.

قبل عامٍ واحد سعدنا بزيارته لأربيل والجلوس معه بمشاركة حشد من الأخوة والأصدقاء ، وعلى رأسهم الأخ الدكتور محمد جميل الحبال ، صاحب المنجزات العديدة في سياق التفسير العلمي لكتاب الله ، ودخلت في حوارٍ ممتع معه وهو يتدفق في الحديث عن البنية الكونية بدءً وصيرورة وفناء ، مستشهداً بشبكة من الأرقام التي لا أدري كيف يحفظها عن ظهر قلبٍ ... وتلك منةً يمن بها الله (سبحانه وتعالى) على من يشاء من عباده ، لكي يوظفهم في الدعوة إلى هذا الدين القيم بواحدةٍ من أشد الصيغ قدرةً على إقناع الآخرين ، وتلك هي معجزة القرآن العلمية التي لا يزال البعض منا ينكرها رغم فاعليتها المدهشة في التأثير في عقول الآخرين ووجدانهم.

إن هذا الكتاب الذي يجده القارئ بين يديه هو واحد من 15 كتاباً تعالج قضية العلم والايمان في آفاقهما كافةً ، ولئن أتيح لها النشر بإذن الله ، فلسوف تكون ، كما قال عنها الأستاذ الدكتور اسحق فرحان (رحمه الله) في مقدمته للجزء الأول ، سفراً عظيماً وكتاباً نفيساً ، تعد إضافة نوعية إلى المكتبة العربية الإسلامية ومرجعاً لأهل العلم والايمان ، ولبنةً تحتاجها المكتبة القرآنية العلمية الحديثة. وإلى أنها ، كما وصفتها جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية ، عملاً عملاقاً من المعرفة الموسوعية ، وان مؤلفها هو أحد مفكري القرن الخامس عشر الهجري ، وأنه كتاب جدير أن يقرأه كل العلماء على اختلاف تخصصاتهم ، وكل الباحثين عن حقيقة أنفسهم ودورهم في الحياة ، وعن الكون من حولهم.

فبارك الله في الأخ المؤلف وزاده عطاءً وإبداعاً ... واننا بانتظار المزيد

(أربيل في ٢٠١٨/١٢/٢٨م)

رسالة إلى الأخ الأستاذ حسان الشهيد

بامتنان عميق تلقيت رسالتك القيّمة ايها الفقيه المقاصدي الذي يعد بالكثير ... فهل منا من يضيف شيئاً على ما قدّمته يداك في هذا الحقل الخصب الذي يعرف كيف يضيئ الطريق للمدلجين في الظلمات ؟ لا اعتقد ... ومع ذلك فثمة بعض الملاحظات التي أزجيها لكم لعلّ فيها إضافة ولو بسيطة.

إن الفقه المقاصدي ، فقه المصالح المرسلة ودرء المفاسد ، فقه الموازين ، فقه الواقع ومطالبه الضاغطة ... إلى آخره ... ليمثل في الحقيقة السقف الأعلى لمعطياتنا الفقهية التي تسعى لتنزيل كلمة الله وتعاليمه (جلّ في علاه) إلى مياوماتنا وممارساتنا ومؤسساتنا وأنشطتنا كافة ... لحظةً بلحظة ، ويوماً بيوم ، وتستجيب للتحديات التي تجابه الأمة الإسلامية صباح ومساء ... تضع النقاط على الحروف وترسم معالم الطريق.

ولكني أحب أن أضيف إلى هذا كله (الفقه الحضاري) ذلك الذي يعنى بعوامل وشروط انبعاث ونهوض الأمم والدول والحضارات ، وعوامل انكسارها وتفتتها وخروجها من التاريخ ... ذلك أننا في عصر ما يسمى بحوار الحضارات وصراع الحضارات وتلاقح الحضارات وضرورات الانفتاح الحضاري على الآخر ... الخ فلابدّ أن يكون المسلم على وعيٍ تام بقوانين الحركة التاريخية التي ترفع وتخفض ، لكي يكون على بينة من الأمر وهو يجتاز في زمننا هذا شبكة هائلة من الانكسارات والعقبات والمتاريس.

وأظن أنني قد قلت الكثير بخصوص (الفقه الحضاري) هذا في عدد من مؤلفاتي المتواضعة من مثل (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) و(أصول تشكيل العقل المسلم) و(دراسات قرآنية) و(محاضرات في التاريخ والحضارة) و(التفسير الإسلامي للتاريخ) و(آيات قرآنية تطل على العصر) و(أحاديث نبوية تطل على العصر) و(ملامح الانقلاب في خلافة عمر بن عبد العزيز) و(نور الدين الرجل وتجربته الإسلامية) و(دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية) ... وغيرها.

وآخرون غيري كتبوا الكثير في هذا السياق ، وبخاصة عبر العقدين الأخيرين ، لكن ما نحن في حاجةٍ إليه أن تقوم يد فقيه متمرس بالفقه المقاصدي كيدكم ويد العديد من علماء المغرب المتألقين ، بلّم هذا كلّه في سياق (الفقه الحضاري) الذي لا يقل أهميةً بحالٍ من الأحوال عن كل سياقات الفقه المقاصدي الأخرى التي أشبعت بحثاً والتي تنتظر المزيد.

وتفضلوا بقبول فائق تقديري وإعجابي واحترامي ...

أخوكم : أ.د. عماد الدين خليل

(أربيل – العراق في ٢٠١٩/١/١٥م)

تقريظ لكتاب (قراءة في كتاب الحب)

للدكتور حسن الأمراني

رحلة جبلية صعبة إذا استعرنا عنوان السيرة الذاتية للشاعرة الفلسطينية (فدوى طوقان) ... رحلة تنوء بها العصبة أولو القوة ، وتحملها الامراني وحده ، بحثاً عن الحب في فضائه الكبير وفي حفره المعتمة ، في سمائه الواسعة وفي منحدراته العميقة ... قراءة في كتابه الذي ينطوي على المضيء والمعتم ، على الأبيض والأسود ، على المستقيم والمعوج ... رحلة مترعة بالخصب في تراث البشرية من أقصاه إلى أقصاه ، من أجل وضع يده على هذه الخبرة الموغلة في وجدان بني آدم ... في عقولهم وإحساسهم ... في أرواحهم واجسادهم ... في لحمهم وعظمهم ... موغلة حتى النخاع.

إذا أردتم تناول وجبة دسمة وأنتم تتجولون في أروقة الحب المصعد إلى السماء والمنتكس في أوحال الأرض ، فلكم أن تقرأوا هذا السفر الذي لم يترك شاردةً ولا واردةً ، والذي جمع فأوعى ...

لقد أعمل الأمراني مشرطه وهو يواصل قراءته في كتاب الحب لكي يقول للناس هذا حلال وهذا حرام ، ولكي يؤشر على مظان الطهر والوضاءة ، وينزل إلى سراديب الظلام والدجنة ، عبر رحلة صبورة في حضارات البشرية كافة ، منذ عصور تشكلها الأولى وحتى اللحظات الراهنة ، حيث تتحقق نبوءة القرآن الكريم : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾(سورة النساء : الآية ٢٧). فها هنا عبر صفحات الكتاب الذي يسطره الامراني ، كم انحرفت السبل في دروب المحبة ، وكم أصبح الميل العظيم هو القاعدة وغيره الاستثناء.

فوالله لولا تعاليم الأديان ... لولا إشارات المرور المحكمة التي جاء بها خاتمها الإسلام بخصوص العلاقة بين الرجل والمرأة ، لتحولت الحياة البشرية من أقصاها إلى اقصاها ، إلى غابة ينزو فيها الذكر على الأنثى ، والذكر على الذكر ، والأنثى على الأنثى ولغدت المرأة التي كرمها الله (سبحانه وتعالى) ، سلعةً رخيصةً تباع وتشترى على شاشات الإعلان ، ولأصبحت الحياة البشرية ماخوراً كبيراً يعج بالسلوك الملتوي الذي يبحث عن لقمته السيئة ويطفئها بأحط الأساليب تماماً كما قالت به يوماً نظرية (كأس الماء) التي طرحها عالم النفس الشيوعي (الدكتور وليم رايخ) في كتابه (وظيفة الشهوة الجنسية) وهو رجل من اتباع فرويد ، والذي

يزعم فيه أن الفشل الجنسي يسبّب تعطيل الوعي السياسي لدى الطبقة العاملة ، وأن هذه الطبقة لن تتمكن من تحقيق امكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلا بإطلاق الحافز الجنسي دون حدود أو قيود !

لكن هذا كله ليس خاتمة المطاف ، فهناك عبر قراءتنا في كتاب الحب هذا يقودنا الامراني في صفحاته المضيئة إلى الجانب الآخر ... الجانب الذي يشع وضاءةً وطهراً ، فيبحث وينقب في آيات الله البينات ، وفي سنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) ، وفي التراث الفقهي الخصب للأمة الإسلامية ، وفي سلوكهم الواقعي الذي شكل تاريخهم ، وفي مقولاتهم المدهشة ، ومصنفاتهم التي تحدثوا فيها عن الحب فأحسنوا الحديث ...

إنها سنة الله (سبحانه وتعالى) في الخلق ، أن تتحقق الحياة البشرية بقدر من التوازن بين السلب والايجاب لكي تقدر على مواصلة الاستمرار ، وأن تشهد وتمارس الحب في صفائه وتألقه ، جنباً إلى جنب مع أولئك الذين سحبوه إلى الأسفل ... إلى سراديب الجنون والدجنة ، كما يقول (فاولي) في كتابه (عصر السريالية) ... وكما نشهده بأم أعيننا ونحن نتجول في شوارع باريس ولندن ونيويورك ، وغيرها من بلدان العالم الذي كتب عليه منذ لحظات نشأته الأولى ، أن يلتقي فيه عبر مسيرته المتطاولة الأبيض والأسود ، والمضيء والمعتم ، والعالي والسافل ... وذلك ما يريد الامراني أن يحدثنا عنه ، بصبره ودأبه على البحث والمقارنة والاستقصاء ...

إن كتابه هذا بحق هو صفحة رائعة في مكتبة الأدب المقارن ، إذا جازت التسميات ، وهو سيضيف إلى ما سبق وأن قيل في الموضوع صفحات أخرى مترعةً بالوقائع والشهادات.

إنه كتابُ جديرُ بالقراءة من بدئه حتى منتهاه ...

(أربيل في صيف عام ٢٠١٩م)

تقديم لكتاب السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري
للمهندس حاتم البشتاوي

هذا الكتاب لرجل خبير ، يعرف جيداً وهو يكتب ، كيف يضع بانوراما الكون والعالم والطبيعة ، والإنسان قبالته تماماً ، ويؤشر على السنن الإلهية والنواميس التي تحكمها بدءً وصيرورةً وانتهاء مستمداً رؤيته من حشود من المصادر والمراجع التي تؤكد يوماً بعد يوم مصداقية التفسير العلمي لكتاب الله ... ومع المصادر والمراجع ثقافته التي يعرفها كل من قرأ له أو استمع إليه وهو يحاضر في هذا الملتقى أو ذاك فيدهش السامعين بذاكرته الحادة التي تنطوي على العشرات والمئات من الأرقام الفلكية التي تجاوز الملايين والبلايين ، بل تتجاوز إذا صح التعبير الحساب بالسنوات الضوئية.

لقد أتيح لي أن أتعرف على هذا المفكر منذ عام (٢٠٠٣م) حيث كنت أعمل أستاذاً معاراً في جامعة الزرقاء الأهلية ، فكنت التقيه بين الحين والحين سواء هناك في عمان ، أو لدى زيارته لأربيل والسليمانية للمشاركة الفاعلة في مؤتمرات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، ولقد عرض عليّ يوماً أصول كتبه الكبرى التي يتجاوز عددها آلاف الصفحات ، فارتأيت أن يجزأها إلى أجزاء ، كل واحد منها يعالج مسألة من مسائل الإعجاز العلمي.

ثم ها هو يتحف قراءه ومتابعيه بكتابه القيم الموسوم : " المنهج القرآني والظاهرة العلمية " في مجلدين عام (٢٠١٠م) ، ويثني بآخر هو هذا الكتاب : " السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري " ، ثم هو يمضي في إعداد إصدار الكتب الآتية :

١- الإعجاز القرآني لغة العصر.
٢- الإعجاز العلمي دلالاتٍ وآفاق.
٣- الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم.
٤- الإنسان بين الكون والقرآن.
٥- الإنسان بين روحه وجسده.
٦- الأرض والثروات المعدنية.
٧- القرآن والجبال.
٨- الشمس والقمر والنجوم آياتُ إلهية.
٩- المجرات وعالم السماوات العلى.
١٠- عالم المياه والأنهار والمحيطات.

١١- الظواهر الطبيعية آيات كونية.
١٢- القرآن وعالم النبات.
١٣- القرآن وعوالم الدواب والحيوان والطيور والحشرات.
١٤- عالم الزمن.
١٥- الله في القرآن الكريم : أسماؤه وصفاته وأفعاله.
١٦- عالم ما لا تبصرون.

وكل ذلك يدلّ أن المؤلف أصبح من أعمدة التفسير العلمي للتصور الإسلامي للكون والحياة والمصير ، وسرعان ما أصبح يتولى عضوية ورئاسة العديد من الجمعيات والمؤسسات المعنية بالإعجاز العلمي والدراسات والبحوث العلمية والفلكية الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم والتأصيل الإسلامي للأدب.

وعندما كنت أجلس معه ، عبر هذه المناسبة أو تلك ، بمعية حشد من المعارف والأصدقاء ، كان الرجل يتدفق في تحليلاته المدهشة ، والتي يمضي بها بعيداً في أعماق الكون فيثير رغبتنا في الاستماع إلى المزيد ، إنه يمتلك – مرةً أخرى – ذاكرةً حادةً لا يغيب عنها رقم من الأرقام ، فهو باحث أيضاً في علوم الحساب وفي الأعداد الأولية وله نظريات جديدة لم يسبقه بها أحدٌ قبله.

وفي هذا الكتاب الذي يجده القارئ بين يديه يرحل بنا المهندس البشتاوي في منظومة السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري ، وهو ذات الموضوع الذي تعاملت معه الجامعات العربية والإسلامية في رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه ، وكتب فيه جملة من المؤلفين الإسلاميين بسبب كونه أحد معرفيات الساعة ، ولكن الموضوع يظل مشروعاً غضاً مفتوحاً لكتابة المزيد ... وها هو الأخ البشتاوي يشمر ساعد الجد فيقدم هذا المزيد من العطاء بعد رحلةٍ متطاولةٍ يتناول في الفصل الأول منها " مفهوم السنن لغةً واصطلاحاً " ، وفي الفصل الثاني " الوعي بالسنن الكونية " ، ويخصص الفصل الثالث لـ : " خلق الإنسان واستخلافه والتسخير الكوني " ، ويمضي في الفصل الرابع : " لتحليل فاعلية السنن في مجال الكشف العلمي " ، ويشير فيها إلى أقوال علماء الفلك والطبيعة والفيزياء والفضاء وغيرهم. وهو في كتابه لا يترك زيادة لمستزيد بل يفتح الآفاق لجميع الذين أوتوا العلم أن هذا القرآن منزل ممن خلق الكون والسموات العلى ووضع لذلك سنناً ونواميس لا تبديل فيها ولا تغيير ، وكل ذلك تسخيراً لهذا

الإنسان ليؤمن به رباً وخالقاً فيخشع له قلبه ويعلم أن الله هو الحق وان ما يدعى من دونه هو الباطل ، والله يقذف الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

وبمجرد إلقاء نظرة على مصادر ومراجع المؤلف العربية والأجنبية مضافاً إلى ذلك ما تستوعبه ذاكرته من حقائق وأرقام يتبين المرء حجم الجهد الكبير الذي بذله المؤلف في إنجاز كتابه هذا الذي استغرق سنواتٍ طوالاً ، سيضيف لقضية التفسير العلمي للقرآن الكريم لبنةً أخرى لعله يقنع أولئك الرافضين لهذا التفسير بمصداقية القائمين عليه.

لقد بذلت الجهات المناوئة لظاهرة التفسير العلمي للقرآن الكريم جهوداً متواصلةً لوقف المحاولة ، ولكن القائمين عليها أفراداً ومؤسسات ظلوا في طريقهم ينجزون مئات الكتب وألوف البحوث وهم يضعون نصب أعينهم منطوق الآيتين الكريمتين : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(سورة فصلت : الآية ٥٣) و ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . . . ﴾(سورة يونس : الآية ٣٩). دون أن يلقوا بالاً لهؤلاء المعترضين. وهذا يذكر المرء بالجهود المكافحة التي بذلتها كل من مؤسسة " التأصيل الإسلامي للمعرفة " عام (١٩٨٢م) التي لولاها ما كان العهد العالمي للفكر الإسلامي ، والتأصيل الإسلامي للأدب الذي تولته " رابطة الأدب الإسلامي العالمية " عام (١٩٨٥م) حيث تم برؤيتهم التي تسعى إلى رد المعرفة الإنسانية والأدب إلى أصولها الإسلامية، وتخرجها من مازقها الذي وضعتها فيه المناهج المستمدة من الفكر الغربي بجناحيه المادي والعلماني ، ووضع الأمور في نصابها الحق ، بحيث أن الحركتين اخترقتا الإعلام والأكاديمية ، وكسبت بمرور الوقت إلى صفوفها العديد من كبار العلماء والأدباء والأساتذة والباحثين.

فعسى أن يكون كتاب الأخ البشتاوي هذا لبنةً اخرى تضاف إلى مدماك التفسير العلمي لكتاب الله (سبحانه وتعالى) ، بما انطوت عليه من معطيات خصبةً وأدلةً قاطعةً على مصداقية هذا التوجه الأصيل.

ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد ...

(أربيل ١٣ تشرين الأول عام ٢٠١٩م)

تقييم لبحث (فقه الأولويات البحثية)

للدكتور فتحي ملكاوي

ها أنا ذا أطلع على بحثكم القيم في (فقه الأولويات البحثية) وسأكون من المستفيدين لما تضمنه من تحليل عميق واستقصاء دقيق وربط محكم لمفرداته كافةً.

لقد وضعت فيه النقاط على الحروف بقدر تعلق الأمر بالضرورات البحثية القصوى التي طالما أهملها ولم يلتفت إليها الباحثون وخصوصاً الأكاديميون منهم. وها أنت ذا تنبههم إذا أرادوا فعلاً تقديم خدماتهم البحثية الجادة لأمتهم ، على شبكة الشروط الضرورية التي يقود اغفال أي جانب منها إلى خلل في البحث وقد يخرجه عن أداء وظيفته الأساسية.

الإبداع والملكة النقدية والقدرة على التخيل ، التدرج المرسوم بعناية بين الباحث والتخصص العلمي والمجتمع والأمة والإنسانية ، المجتمع المعاصر هو مجتمع المعرفة واقتصاده هو اقتصاد المعرفة ، ضرورة أن يقود البحث إلى رفع شأن الأمة الإسلامية تحديداً ويخدم مجهودها النهضوي الحضاري ، ربط السعي في الدنيا بالجزاء في الآخرة ، تطوير فقه الأولويات البحثية في ضوء مقاصد الشريعة العليا ، إعانة أساتذة وطلبة الدراسات العليا على اختيار بحوثهم ، كيفية التعامل مع الأمور وفق درجة الأهمية والاستعجال.

وغيرها من الاثارات بل من التحديات التي يثيرها بحثكم في مواجهة الباحثين فيما لا يكاد المرء أن يجد أية فسحة لإضافة مفردة أخرة على ما تعرضتم له في بحثكم القيم هذا.

زادكم الله عطاءً وإبداعاً.

تقييم لبحث (الفكر المنهجي في التفكير والبحث والسلوك)
للدكتور فتحي ملكاوي

هذا هو البحث الثاني الذي ينجزه الأخ الدكتور فتحي ملكاوي في سياق الفقه المنهجي والبحثي والسلوكي ، بعد بحثه القيم الأول (فقه الأولويات البحثية) فهما والحق يقال وجهان لحالةٍ واحدةٍ نحن بأمس الحاجة إليها في زمننا المعاصر هذا الذي تفوق فيه الغربيون بمنهجيتهم التي لا يتحركون إلا على ضوئها في قضايا الفكر والبحث والسلوك.

وأسوةً بالبحث السابق فان الأخ الباحث يعالج ها هنا بأقصى درجات التركيز جملةً من المسائل التي هي أشبه بالمفاتيح التي يمكن أن تقودنا إلى حشود من المفردات التي تغذي الموضوع. من مثل ماهية الفكر المنهجي ، والفكر المنهجي في البحث العلمي ، ومفاهيم المنهج في التفكير والبحث والسلوك.

ولعل ما يميز بحثه هذا ، فضلاً عن تحديده المفاهيم الأساسية للفكر المنهجي ، انه ، كما فعل في بحثه السابق ، يضع بصماته الإسلامية من أجل أن يجعل منه لبنةً أخرى تصب في سياق التأصيل الإسلامي للمعرفة. فهو يتحدث عن الحكمة بدلالتها القرآنية ، وعن الدعوة إلى الله (سبحانه وتعالى) التي تنطلق من الفكر المنهجي ، وعن تطبيقات الفكر المنهجي في تطور العلوم المنقولة والمعقولة ، وعن الفكر المنهجي لعلماء الحديث. ثم يجيئ إلى الفكر المنهجي في البحث العلمي المعاصر الذي كادت تضيع معظم حلقاته الأساسية في سياق نشاطنا المعرفي ، ولابدّ من أن نلتزم بها إذا أردنا فعلاً أن نعيد هذا النشاط إلى أصالته وقدرته على الفاعلية والتجديد.

فالمنهج في الأساس منهج في التفكير ، ومنهج في البحث ، وهو منهج كذلك في السلوك والممارسة والعمل. ومن ثم فان أمتنا اليوم ، كما يؤكد الباحث أحوج ما تكون إلى الوعي على المنهج وبناء فكرها المنهجي وممارسته في التفكير والبحث والسلوك.

ومن الله العون والتوفيق ...

تقييم بحث (النقد الذاتي في فقه المراجعات)

للدكتور فتحي ملكاوي

يعرف الدكتور فتحي ملكاوي كيف يختار الموضوعات الأكثر أهميةً في فكرنا المعاصر ، محاولاً معالجتها بأناة واستقصاء ، مستمداً حيثياته من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وتراثنا الفقهي الخصب ، ومن معطيات الآباء والمعاصرين ، مضيفاً إليها شبكة من تحليلاته التي تربط هذا كله وتقدمه للقارئ بما يقوده إلى القناعة بما ذهب إليه أن فقهنا الإسلامي المقاصدي الخصب بفضائه المفتوح وسمائه الكبيرة يقدم لنا من أدوات العمل ما يمكننا من ملاحقة كل صغيرةٍ وكبيرةٍ في حياتنا المزدحمة. فهنالك فقه الأولويات وفقه الموازنات وفقه الوقع وفقه المصالح المرسلة وفقه المراجعات الذي ينطلق هذا البحث من ثوابته ومعطياته ، مبيناً أن ما أصاب مسيرتنا المعاصرة بتنظيماتها ومشاريعها وأحزابها ، لا ينبثق عن مقولات شريعة بهذا القدر من المرونة والاتساع وإنما هو من عند أنفسنا ، وكان لابدّ إذن من ممارسة حركة نقدية للذات من أجل تعديل الوقفة الجانحة وتجاوز الأخطاء التي قد يكون بعضها أكثر فتكاً من الجريمة ، (إذا استعرنا عبارة السياسي الفرنسي المعروف تاليران (إنه الخطأ والخطأ أكبر من الجريمة).

بعد أن يمهد لبحثه في الحديث عن (المراجعات) التي تتم في إطار الفكر الإسلامي المعاصر على مستوى الأفراد والجماعات ، وأن مسالة المراجعات هذه تقع في سياق ما يسمى (التفكير النقدي) الذي يعد ظاهرة أصيلة في الوجود البشري ، والذي ينقسم إلى أنواع عديدة ، يدلف إلى موضوعه الأساس (النقد الذاتي) الذي هو نوع من أنواع التفكير النقدي يمارسه الفرد ويمارسه المجتمع وتمارسه الجماعات العلمية في تخصصاتها وهو نقد قد يتوجه به الإنسان إلى نفسه بحثاً عن النقص ليكمله والخطأ ليصلحه.

ان نقد الذات هذا أصيل في الطبيعة البشرية ، ومن أجل تأكيد مقولته هذه يذهب إلى الاستشهاد بزلتي آدم وحواء وأنهما لم يتهما الشيطان بذلك بل بالاعتراف بأنهما ظلما نفسيهما ، وإلى تسليط الضوء على النفس اللوامة ، وإلى نقد الذات الذي مارسه الثلاثة اللذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، وإلى اعتراف موسى (عليه السلام) بأنه ظلم نفسه بقتله للرجل القبطي ، وإلى انتقاد ملكة سبأ لنفسها : ﴿ . . . قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة النمل : الآية ٤٤) وإلى قصة أصحاب الجنة ، وتساؤل المسلمين عن سبب هزيمتهم في

معركة أحد وجواب القرآن : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٦٥).

ثم هو بعد هذه الأدلة المقنعة يمضي للتنقيب في مصادر الثقافة الإسلامية التي طالما تحدثت عن حساب النفس فيما نسميه اليوم (النقد الذاتي) ، ويصل في نهاية المطاف إلى موقف العلماء والكتاب والسياسيين والمفكرين المعاصرين من مسألة النقد الذاتي ، ويجد بغيته في العديد من كتابات الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) التي يقول عنها الغزالي نفسه انها مراجعة وليست رجوعاً كما قد يتوهم البعض. ويخلص إلى تحليل موقف الحركات والتنظيمات والمؤسسات والأحزاب التي تعد التقويم الذاتي أمراً ضرورياً لإبقاء الحيوية والفاعلية والتقدم. وهو يؤكد في ختام تحليله بأن حديثه هذا عن النقد الذاتي لم ينته بعد وقد تعقبه حلقات أخرى بإذن الله (سبحانه وتعالى).

اننا هنا بإزاء رغبةً أصيلةً في التقاط الزاوية الأكثر إلحاحاً ، لكي تسلط كاميرة البحث عليها لإضاءتها ، لاسيما وأنها لا تستهدف إضافة بحث أكاديمي صرف للمكتبة المعاصرة ، وإنما وضع النقاط على الحروف في واحدةٍ من أشد المسائل إلحاحاً في حياتنا الفكرية المعاصرة، وهو ما عودنا عليه الدكتور الملكاوي في بحوثه المتعاقبة في مجلة (إسلامية المعرفة).

ومن الله العون والتوفيق ...

تقريظ لبحث (منطلقات في فهم الفكر التربوي الإسلامي بين الواقع والطموح) للدكتور فتحي ملكاوي

هناك ولا ريب إجماع على أن الفكر التربوي يعكس رؤية المجتمعات البشرية للكون والحياة والمصير ، ولمغزى الوجود البشري في العالم ... ويبدو أن مشكلتنا الأساسية في نشاطنا التربوي تتمثل منذ حوالي القرنين من الزمن وحتى اللحظات الراهنة ، في محاولة التربية الغربية بالذات أن تفرض مناهجها على أنشطتنا التربوية ، التي فعلت فعل السم في وجودنا كما يقول ليوبولد فايس محمد أسد ، في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) ، وثمة فارق كبير بين رؤيتهم القائمة على فك الارتباط بين الوحي والوجود ... بين السماء والأرض ... بين الروح والجسد ... وبين الله والإنسان ... تلك الرؤية المشبعة بالمفاهيم الحسّية ، والبراغماتية ، والتحقق باللذة والقوة، والتكاثر بالأشياء والتي تنبض فيها كما يقول غارودي (رجاء) في كتابه القيّم (وعود الإسلام) جملة من الصنميات كصنم النمو ، وصنم التقدم ، وصنم التقنية العلموي ، وصنم الفردانية ، وصنم الأمة ، بمحذوراتها ومحرماتها ، وبرموزها المقدسة وبطقوسها ، والتي اصطرعت في نسيجها الثنائيات والأضداد ... الرؤية القائمة على ثلاثية المصنع والسوبر ماركت والكباريه ... انها التربية التي تسعى إلى تحويل الحياة البشرية إلى حركة على السطح ، وتفقدها عمقها الروحي ، وتدمر يقينها الديني بحياة أخرى غير هذه الحياة ، وبحساب عادل يضع الأمور في نصابها الحق.

فارق كبير بين رؤيتهم تلك ورؤيتنا الإسلامية القائمة على لقاء الوحي بالوجود ، وتصالح الأضداد ، وتحرير الإنسان من كل صيغ الابتزاز والخضوع للصنميات بأنماطها كافة ...

فما لم نتحرر – ابتداء – من ضغوط الرؤية التربوية الغربية تحديداً ، لكي نمارس بناء منظومتنا التربوية منطلقةً من ثوابتنا الإسلامية ، فلن نكون قد فعلنا شيئاً على الاطلاق !

ويجيئ بحث الدكتور فتحي ملكاوي ، بتركيزه البالغ ، لكي يختصر جانباً مهماً من هذه الاشكالية ... وهو يتألق بتفريقه الحاسم بين الأصول الإسلامية للنشاط التربوي في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وبين التراث التربوي الإسلامي الذي أوقعت الفئات القومية العلمانية نفسها في عدم تفريقها بين المصدرين.

وكذلك يتألق الباحث في استقصائه الدقيق للمنطلقات السبعة الأساسية إذا أريد لفكرنا التربوي أن يمارس دوره المؤثر في إعادة بناء المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، بحيث أنه لم يترك – على ايجاز طرحه – زيادة لمستزيد.

ومن الله وحده العون والتوفيق ...

تعقيب على مقال (موقع البحث في التفكير البشري)
للدكتور فتحي ملكاوي

حاول المقال ، على ايجازه ، أن يستقصي جل المفردات المتعلقة بموقع البحث في التفكير البشري ... ومن أجل التحقق بتغطية متوازنة لمفردات المقال ، أجد من الضروري إضافة مسألتين في غاية الأهمية ، بما أن المقال ينطلق في التعامل مع الموضوع من زاوية الرؤية القرآنية.

فأما أولاهما فهي التأكيد على الدور الملحوظ للنص القرآني في التأسيس للمنهج الحسّي التجريبي الذي مضى به المسلمون قدماً ، فأعطوا العالم مفاتيح التعامل المعرفي مع ظواهر الوجود ، ومنحوا الحضارة الغربية المعاصرة تأسيساتها الأولى باعتراف كبار مؤرخي تاريخ العلم العالمي من مثل الدوميبلي الفرنسي وجورج سارتون الأمريكي وروم لاندو الإنكليزي وسيغريد هونكه الألمانية.

وأما ثاني الاضافات التي يمكن أن تلحق بالصفحتين 3 ، 4 من المقال ، فهي تقديم عرض أكثر اتساعاً للمنظور القرآني لمنهج التعامل مع سنن الله العاملة في التاريخ ، فيما يرتبط أشد الارتباط بموضوع المقال ، وهو منظور ينطوي على ثلاثية الفاعلية الحضارية في الأرض : الاستخلاف ، التسخير ، الاستعمار بدلالته اللغوية لا الاصطلاحية ، فضلاً عن الارتباط الصميم بين الايمان والعمل المبدع ... وهي المبادئ التي قدّمت للأمة زمن تألقها الحضاري الشروط الأساسية لمنهج التعامل الحضاري مع الحياة.

راجياً ألا أكون قد ذهبت إلى أكثر مما يجب عما يتطلبه المقال القيم من مفردات.

ومن الله (سبحانه وتعالى) التوفيق والسداد ...

تقييم لبحث (صلاح العمران وفساده)

للدكتور فتحي ملكاوي

كل المعنيين بالهم الحضاري الإسلامي يعرفون جيداً كم أولى هذا الدين في كتابه وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم) وتراثه الزاخر ، مسألة صلاح العمران وفساده ، من اهتمام بالغ سعى إلى تغطية مفردات المسألة من أطرافها كافة. ولنتذكر كيف أن القرآن الكريم وضعنا في قلب الفعل الحضاري ، أي أراد منا أن نكون أمةً متحضرةً ، وذلك من خلال مثلثه المعروف بأضلاعه الثلاثة : التسخير والاستخلاف والاستعمار (بالمفهوم اللغوي لا الاصطلاحي). فما اكثر الآيات التي تتحدث عن تسخير العالم للإنسان ، وما أكثر الآيات التي تتحدث عن استخلاف الإنسان في هذا العالم. ولعل هناك من يتساءل ما علاقة هذا كله بالنشاط الحضاري؟ والجواب هو أن القرآن الكريم يؤكد في سياق ثالث أن مهمة الإنسان المؤمن في هذا العالم المسخر الذي استخلف عليه ، هو التنمية والاعمار والبناء والتطوير ، لقوله (جلّ شأنه) : ﴿ . . . هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . . . ﴾(سورة هود : الآية ٦١) ، أي خلقكم لممارسة مهمة عمرانية حضارية تستهدف جعل العالم بيئة صالحة للهدف الأساس من خلق الإنسان ، وهو عبادة الله سبحانه وتعالى ، ليس بالمفهوم الشعائري الصرف المنعزل عن الحياة ، المنسحب من العالم ، وانما بمفهوم العبادة الإسلامي الواسع الشامل الذي يستهدف جعل كل عمل أو نشاط علمي ، وعمراني أو حضاري في نهاية الأمر ممارسة تعبدية : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴿٥٧﴾ ﴾ (سورة الذاريات : الآيتان ٥٦-٥٧).

والدكتور فتحي ملكاوي يمضي في بحثه هذا باتجاه العمق التراثي لهذه الأمة ، فيضع يديه على حشود من المعطيات الخصبة للقيادات السياسية والفقهية ، في تأكيدهما الواضح الذي لا لبس فيه على قيم العمران بنوعيه المعنوي والمادي ، وعلى مجابهة الفساد ، والتي تعد مقصداً أساسياً من مقاصد هذا الدين. فيمضي بنا وهو يقلب صفحات هذا التراث في رحلةٍ عبر هذه الشهادات ذات الدلالة الواضحة في التأكيد على العمران ورفض الفساد.

يستدعي في شهاداته جملة من معطيات الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ويثني عليها بما أورده القيرواني (ت 386هـ) في كتاب (النوادر والزيادات) ، وما أورده لطف

الله القاري في بحثه الذي تحدث فيه عن عدد من الكتب التراثية التي تناولت بالتفصيل مسائل القضاء في العمران ، والبيئة المادية للأحياء والقرى والمدن. ثم ما يلبث أن يقف طويلاً عند مقولات ابن خلدون في مقدمته الخصبة ، والتي تناول فيها جملةً من المسائل المتعلقة بالأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية والحرفية ، مع تأكيده على الارتباط الوثيق بين العمران المادي والعمران المعنوي. والحق أن مقولات ابن خلدون هذه تعد كشفاً في غاية الأهمية على ما أولاه العقل المسلم من اهتمام بالغ في قضايا صلاح العمران وفساده.

ثم ما يلبث الدكتور فتحي ملكاوي أن يجيئ إلى القرآن الكريم لكي يستمد منه شبكة من المعطيات في هذا السياق ، وهي معطيات يؤكدها الواقع المنظور لحال البشرية في زماننا هذا من صور الفساد والافساد في الأرض والذي سيمضي لكي يلوّث كل شيء في حياتنا المعاصرة، ويهلك الحرث والنسل مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (سورة الروم : الآية ٤١). ويخلص إلى القول بأن حفظ المال الذي عده علماء الأصول والمقاصد من المقاصد الخمسة للشريعة ، لا يكون إلا بحفظ البيئة المادية الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان على هذه الأرض. ولذلك فان حفظ المال بتنميته ومنع اتلافه يتطلب حفظ البيئة بصيانتها ومنع فسادها.

لقد أضاف الدكتور ملكاوي في بحثه هذا صفحات ذات قيمة بالغة ، ستضاف إلى ما كتبه الأجداد والمعاصرون من مصنفات وبحوث ، تؤكد فيما لا يقبل مجالاً للشك ، دور هذا الدين في بناء حياة آمنة سعيدة تقوم على صلاح العمران والتصدي للفساد بصورة كافة ...

ومن الله العون والتوفيق ...

تقييم لبحث (تربية القيم في عصر ما بعد الحقيقة)
للدكتور فتحي ملكاوي

عبر العقدين الأخيرين كتب الكثير عن القيم ، والتنمية ، والتنمية المستدامة ، وسبل بناء تكوين الشخصية الفاعلة ، والقيت المحاضرات ، وعقدت الندوات والمؤتمرات ، وأجريت اللقاءات التلفازية ، وألّفت عشرات البحوث والكتب ومئاتها ... وتنوعت القيم التي كان الحديث يدور حولها ما بين قيم التعامل مع أنفسنا ، وقيم التعامل مع الآخر ... قيم الانبعاث والنهوض الحضاري ، قيم الابداع والابتكار ، القيم الأخلاقية والسلوكية ، قيم الانجاز في شتى مجالاته ...

ويجيئ بحث الدكتور فتحي ملكاوي لكي يقدم رصيداً مضافاً على ما قيل وكتب ، ولعل الاضافة التي يتميز بها بحثه هذا ، هي في توزيعه العادل لدور القيم في بناء الحياة وصيرورتها ، ما بين الأسرة والمدرسة والاعلام والمسجد ، ووقوفه عند كل واحدةٍ من هذه المؤسسات وقفة عارف لما يمكن أن تمارسه في بناء منظومة القيم وتنميتها وحمايتها من التآكل. وهو في هذا كله يستمد رؤيته النافذة من الثوابت والمعطيات الإسلامية ، مضيفاً إليها شبكة من الخبرات البشرية ، لكي يقدم تصوراً واضحاً يمكن أن تمارسه الأسرة والمدرسة والاعلام والمسجد في سياق بناء القيم وتنميتها.

يضع الدكتور فتحي ملكاوي لبحثه عنواناً يحمل دلالته في لحظاتنا الراهنة : (تربية القيم في عصر ما بعد الحقيقة) حيث يشير إلى " أن الحقائق الموضوعية أصبحت أقل تأثيراً في تشكيل الرأي العام من أثر العواطف والمعتقدات الخاصة " وتأثير ذلك " على التعليم والسياسة والاعلام والحياة الاجتماعية من انتشار الأخبار الكاذبة " فنحن الآن " في عالم ما بعد الحقيقة من تآكل الثقة ولن ينتهي ذاك الأخير ".

وها نحن نرى بأم أعيننا ما يمارسه الاعلام من تضليل ، وما تفعله السياسات المتقلبة كالكثبان الرملية من تضييع للأمم والشعوب ، ومن تفكيك لمنظومة القيم التي سهرت على بنائها وتنميتها.

على أية حال ، وبقدر تعلق الأمر بمجتمعاتنا الإسلامية ، فان الباحث يمضي للحديث عن دور القرآن الكريم ، والسنة النبوية من تأكيد على تنشئة القيم وحمايتها من التآكل ... ما يلبث أن يجيئ لتحليل دور مؤسسات المجتمع المدني في تأكيدها على دور القيم في بناء حياة آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان : الأسرة والمدرسة والاعلام الهادف والمسجد ، وهو في تحليله لدور كل واحدةٍ من هذه المؤسسات يقدم اضافات ذات قيمة بالغة إلى موضوع بحثه ،

وبذلك يضع الأمر في نصابه الحق ... ولعله يريد أن يقول لنا بأن التوازن هو المبدأ الأساس الذي يحكم حياة البشرية ، فها هنا قبالة التضييع الذي تمارسه معطيات ما بعد الحقيقة ، فان هناك ما يوازيها من نشاط مستدام تمارسه هذه المؤسسات الهادفة لإعادة الإنسان والبشرية حيث أراد لهما الله (سبحانه وتعالى) أن يكونوا : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(سورة الإسراء : الآية ٧٠).

وصدق الله العظيم

تقريظ لبحث

(التكامل والتوازن بين الاتباع والابداع في الفكر التربوي الإسلامي)

للدكتور فتحي ملكاوي

ويجيئ هذا البحث لكي يؤكد هذه الحقيقة ويزيدها وضوحاً. فالاتباع والإبداع هما عصب الفاعلية الاجتماعية ، والتشكل الحضاري لكل بيئة أو مجتمع ... ولقد سبق للمؤرخ البريطاني (أرنولد توينبي) أن أكد هذه المسألة أكثر من مرةً في كتابه : (دراسة في التاريخ) واشار إلى أن القلة المبدعة هي التي تتولى زمام القيادة الحضارية ، تتبعها البروليتاريا التي تمثل جماهير الاتباع ، وبذلك تمضي عجلة الفعل الحضاري إلى الأمام ... أما في زمن التخلف والانهيار ، فان الجماهير تتبع القيادات الفاسدة التي تؤول بالحضارة إلى الدمار والخروج من التاريخ.

ها هنا في بحث الدكتور ملكاوي نتابع هذا الخط الأساسي في العملية التربوية ، بدءً من القرآن الكريم ، مروراً بمعطيات التراث الإسلامي ... لكي ما يلبث أن يقف طويلاً عند مفهوم الاتباع والتجديد بين الفطرة والضرورة ، ثم هو يمضي لتحليل الفارق بين الابداع والبدعة ، ويخلص إلى ضرورة الحاجة إلى الابداع في الفكر التربوي ، ويختم بحثه هذا بتحليل معمق للعلاقة بين الابداع والتساؤل ، مستمداً تحليله من العديد من المصادر الأجنبية فيضيئ المسألة التي يعالجها من جوانبها كافة ، ويمنح قراءه الطرائق الأكثر سلامةً في تربية أجيال متوازنة ، غير مأزومة ، قديرةً على الفاعلية والبناء ... وذلك هو هدف كل تربية أصيلة. فالحق أن التوازن الذي هو هدف بحثه هذا ، هو ذلك الذي يعتمد تعليماً فعالاً يوازن بين الصرامة والحرية ، بين المعتاد والتطوير ، بين الفردية والجماعية ، بين النظرية والتطبيق ، بين العالم الداخلي للإنسان وبين العالم الخارجي. ذلك أن من الخطأ أن يبقى بندول التعليم يتنقل بين طرفين متقابلين ... وإذا كان التعليم التقليدي يتضمن قدراً من مفهوم الاتباع ، لما عرف من نفعه وارتبط بأصول شرعية تعد من الثوابت ، فان المأمول في التعليم التجديدي أن يتضمن مساحةً من الابداع في الوسائل والتجديد في الأساليب اللازمة لحياتنا المعاصرة ، وما يواجهنا فيها من تحديات وما تمنحنا من فرص. ومن هنا يأتي الحديث عن التوازن بين الاتباع والابداع.

إن الدكتور ملكاوي لا يحقق في بحثه هذا ضرورة التوازن في العملية التربوية بين التقليد والتجديد فحسب ، ولا بين الاتباع والابداع فحسب ، بل إنه يبني معطياته على ضرورة التوازن بين عناصر الثبات والتطور والذي بدونه لن يتحقق المطلوب في جوانب الحياة كافة. وهو فضلاً

عن ذلك ينطلق في بحثه هذا – كما يدل عليه عنوانه – من زاوية رؤية إسلامية أصيلة تستمد من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وتراثنا الإسلامي الخصب منطلقها الأساسي، وبذلك يضيف بحثاً قيماً إلى مكتبة التأصيل الإسلامي للمعرفة التربوية نحن بأمسّ الحاجة إليه.

ومن الله العون والتوفيق ...

تقريظ لبحث

(نحو حضور فاعل للرؤية الإسلامية في الاصلاح التربوي المعاصر)

للدكتور فتحي ملكاوي

ها هنا أيضاً تواصلون العمل في بناء كتابكم القيّم : (الفكر الإسلامي : رؤية تحليلية نقدية) فلا تتركون فيه زيادة لمستزيد. ولكن قد تخطر على البال بعض المرئيات التي يمكن اضافتها للبحث والأمر اليكم في النهاية.

في الفقرة الأولى من صفحة رقم 1 يمكن اضافة المسائل التالية إلى ما ذكرتموه : وسيل من المؤلفات التربوية ، وتزايد حركة ما يسمى بالتنمية المستدامة التي تنصب أساساً على تكوين الإنسان الفاعل ، فضلاً عما تقدمه الفضائيات من حواريات حول الموضوع.

في الفقرة الثانية من صفحة رقم 2 يمكن اضافة ما يلي : وكذلك بسبب قلقه وعدم استناده إلى شبكة من الثوابت التي تحرسه من الانزلاق والذهاب إلى الطرف النقيض الآخر حيث يفقد معياريته بالتالي فيما اعتدناه من تأرجح الفكر والمذاهب الغربية عموماً.

في الفقرة الثانية من صفحة رقم 3 : من الضروري ايراد الآية القرآنية بنصها : ﴿ ... وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(سورة الحجرات : الآية ١٣) تلك الآية التي خرجت ولا تزال أجيالاً من المنتمين لهذا الدين ، ونفذت تاريخياً وحضارياً ما يمكن تسميته بالأممية الإسلامية ، تلك التي تلتقي تحت مظلتها العقدية والتشريعية ، الجماعات والأقوام والشعوب كافة ، ولكنها تفترق فيما بينها في عاداتها وتقاليدها وممارساتها الاجتماعية وآدابها وفنونها وحتى لغتها القومية ، فيما مكن لهذه الأممية القدرة على الاستمرار. انها أممية (الوحدة والتنوع) فيما يختلف – على سبيل المثال – عن الأممية الماركسية التي سعت إلى تنزيل فكرها الأحادي على شعوبها كافة ، مسلمين ومسيحيين ، فتعرضت للانكسار والخروج من التاريخ.

إن هذا المبدأ لو نفذناه في معطياتنا التربوية فانه سيأتي بنتائج في غاية الأهمية ... ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي ليتميز بعضكم عن بعض ... وصدق الله العظيم ...

تقريظ لبحث

(بناء الوعي بواقع الفكر التربوي المعاصر وبضرورة اصلاحه)

للدكتور فتحي ملكاوي

ثمة إضافة إلى ما عرض له البحث تتمركز عن ضرورة التفات المعنيين بالهم التربوي لتحديات المعطيات الأكثر حداثةً والتي تتمثل بالتطور المذهل لتكنولوجيا المعلومات : الفضائيات والأنترنيت وأجهزة الهاتف النقال ... جنباً إلى جنب مع العولمة التي جاءت لسوء الحظ بعد تفرّد الولايات المتحدة بالهيمنة على مقدّرات العالم ، ومحاولة فرض وتصميم ثقافتها العلمانية المادية على الأمم والشعوب.

فها هنا نجد كيف أن الجهد التربوي ، إذا لم يضع في حسابه هذه التحديات التي اخترقت الحياة الاجتماعية حتى النخاع ، ودخلت على الناس كافةً دورهم وغرف نومهم ، وجعلتهم يتشبثون الساعات الطوال بما تقدمه لهم معطيات قد يكون الكثير منها بنّاء ، ولكن معظمها سيفكك منظومة القيم التربوية التي سهرت عليها جهود الآباء والأمهات والمعلمين والدعاة ... فهي قد تهدم في دقائق معدودات ما تم بناؤه على مدى الأشهر والسنوات الطوال.

لقد تفككت الحياة الاجتماعية للأسرة ، التي هي قاعدة العملية التربوية ومحضنها الأساس، وأصبح الآباء يديرون ظهورهم لأبنائهم وهؤلاء يديرونها لآبائهم ، ملتصقين بالشاشة التي تقدم لهم أطباقاً من سندويتشات الثقافة المترعة بالغبش والفجور ... هذا فضلاً عن إبعادهم عن عالم المطالعة المتواصلة في الكتاب والتي بدونها لن يكون هناك عالم ولا مفكر ولا باحث ولا أديب ولا مبدع ... فان عشرين سنةً من الدراسة الجامعية ، ومثلها من الجلوس وراء الشاشة الصغيرة لن تخرج هؤلاء ، والذي يخرجهم هو الكتاب.

وها هي آخر إحصائيات اليونسكو ... فان المواطن الغربي يقرأ في العام الواحد مائتي ساعة بينما المواطن العربي يكتفي بالدقائق الخمس !

فما لم يبرمج الباحثون التربويون لصيغة الاستجابة الناجحة لهذا التحدي الجديد ، فلن يكون لجهودهم ، على أهميتها البالغة ، نتيجة ايجابية يشار إليها بالبنان.

ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد ...

(٤)
مقالات

بسم الله الرحمن الرحيم

قدّم هذا البحث تلبيةً لدعوة من اسطنبول حول منجزات الشيخ محمد الغزالي ولم يتح لي حضور الدعوة في (خريف عام ٢٠١٧م)

رحلتي مع الشيخ الغزالي : انطباعات

هنالك من المفكرين والعلماء والمؤلفين مع يضع بصماته على الجيل التالي ، ويسهم بشكل مباشر أو غير مباشر ، في تكوين فكره وتشكيل خطابه وهو يتوجه به إلى جماهير القراء والباحثين ... ولقد كان الشيخ محمد الغزالي (رحمه الله) أحد أولئك الذين شاركوا في تكويني الفكري والدعوي ، جنباً إلى جنب مع مفكرين كبار كسيّد قطب والمودودي والندوي ومحمد قطب، من أولئك الروّاد الذين تدفقت مؤلفاتهم علينا منذ خمسينيات القرن الماضي وطيلة العقود التي أعقبتها.

كان لقائي الأول بفكر الشيخ الغزالي عبر كتابه القيّم : (تأملات في الدين والحياة) ، وهو كما يدّل عليه عنوانه يسعى عبر مقالاته الخصبة إلى ربط الدين بالحياة بقدرته المدهشة على تغذية نسغها بثوابته ومرئياته ... لقد كانت قراءتي لهذا الكتاب الذي تتعاشق كلماته مع أسلوب الشيخ المترع بالحيوية والنداوة ، بمثابة رحلة عذبة ممتعة في رحاب الفكر الإسلامي الذي يعرف كيف يلتحم بالحياة ، ويغذي صيرورتها المتمخضة دائماً عن المزيد من التجارب والخبرات.

وفي غمرة اندهاشي واستمتاعي في الوقت نفسه بأسلوب الشيخ المتفجر بالحيوية ، كنت أتمنى أن تطول رحلتي مع الكتاب ، والا تنتهي فصوله الخصبة ، وأن أمضي لقراءة عشرات غيرها من الفصول.

كانت تلك بمثابة المحطة الأولى للقائي بكتابات الشيخ ، ولقد أغرتني بالوقوف عند محطات أخرى من فكره لا تقل تدفقاً وإبداعاً.

إن خطاب الشيخ يتميز بحيوية الطرح ، وبأسلوبه الرائع الذي يعتمد أروع ما في لغتنا العربية من معايير جمالية تضعه والحق يقال ، في مقدمة رواد الأدب الإسلامي المعاصر ، بما أن هذا الأدب ، كما اتفق عليه نقاد الإسلامية هو التعبير الفني عن التصوّر الإسلامي للحياة والوجود والمصير.

وثمة فارق كبير بين نمطين من الكتاب والباحثين ، يتشبث أحدهما بما يدعونه الأسلوب العلمي الصارم في اللغة التي يعتمدها لكتابة بحوثه ، لا تكاد تلمس فيها أية نزعة جمالية تساعد على ايصالها للقراء بأكبر قدر من التأثير والاعجاب ، بينما يمضي ثانيهما ، والشيخ من بين هؤلاء ، إلى كسر الجفاء العلمي الذي يصل لدى البعض إلى حدّ التيبس الفكري ويقودنا بالتالي إلى صرف القراء عن مواصلة القراءة ، ويمضي بما تحمله اللغة العربية الشاعرة ، إذا استخدمنا عبارة العقاد (رحمه الله) ، لكي يجذب جماهير القراء والدارسين.

وتجيئ المحطة التالية مع كتاب الشيخ الذي يحمل عنوان : (جدّد حياتك) فكأنه امتداد لسابقه من حيث ارتباطه بشرايين الحياة ومحاولة إعادة بنائها في ضوء كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وكشوف العلماء والباحثين على مدار التاريخ.

الارتباط بالحياة ... ذلك هو الخيط الذي يشد هذا الكتاب إلى سابقه ، وكلاهما يحمل في عنوانه كلمة (الحياة) ... انهما يأتيان بمثابة الردّ على الملاحدة والعلمانيين الذين طالما سعوا إلى فك الارتباط بين الدين والحياة على امتدادها ، وحصره في زوايا المساجد والخانقاهات وسحب يده بالكلية عن أية ممارسة يراد منها إعادة صياغة الحياة وفق التعاليم القادمة من السماء.

إنه الخط الفاصل بين العلمانيين والإسلاميين ... أولئك يريدونه ديناً نصرانياً يمارس طقوسه بعيداً عن الحياة عبر كل امتداداتها السياسية والاقتصادية وحتى العلمية ، وحصره بين المرء وربه ، وهؤلاء يريدونه منهج حياة يسعى لإعادة صياغتها سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعلمياً في ضوء كلمات الله سبحانه وتعالى وبرامجه في الكتاب والسنة مما لا يمكن بأية حجة من الحجج فصلها عن الحياة.

(جدّد حياتك) وهو بإيجاز شديد مضاهات لكتاب المربي الأمريكي الشهير (ديل كارنيجي) في (دع القلق وابدأ الحياة) الذي يمثل حصيلة خبرة عمر بكامله مع تجارب الناس المأزومين في الساحة الغربية الذين عايشوا الحضارة الغربية ، وذاقوا من ويلات جوانبها السلبية التي مارست طحن آلاف الناس وملايينهم تكترث بالقلق والاكتئاب ، والهم والغم ، بما أنها حضارة قطعت صلتها بالله (سبحانه وتعالى) وتشكلت وفق منظومة لا للقيم الدينية والإنسانية ، فقادت أبناءها إلى الطرق المسدودة والجأتهم إلى مراجعة عيادات الأطباء النفسانيين علهم يجدون عندهم الدواء الشافي لما يعانونه من أزمات.

كتاب (دع القلق) الذي انكب عليه جيلنا في خمسينيات القرن الماضي والتهم صفحاته التهاماً بسبب من ربط مؤلفه خبرات الناس وتجاربهم ، بشبكة مؤثرة من القصص التي تغري القارئ بمتابعتها بشغفٍ كبير.

ها هو الشيخ الغزالي يتابع هذه الخبرات ويتابع معها أساليب حلّها من قبل المربي الكبير (ديل كارنيجي) فيجد ثمة تشابه كبير ، يكاد يكون انطباقاً مدهشاً على الحلول الإسلامية لأزمات الناس ، وعلى رأسها القلق والخوف والاكتئاب ... الخ ... في كتاب الله وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام).

وما يلبث قلم الشيخ أن يتدفق بالمقارنات المؤثرة ، بأسلوبه الممتع لكي يصل في نهاية كل جولة إلى النتيجة نفسها التي خلص إليها (ديل كارنيجي).

لكأنه يريد بذلك أن يقول بأن معطيات العلم الحديث ، في سياقاته كافة ، تجيئ لكي تتطابق مع ما سبق لهذا الدين أن أكده في كتابه وسنة نبيه (عليه الصلاة والسلام) مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(سورة فصلت : الآية ٥٣).

مضيت في قراءة (جدّد حياتك) بشغف وأنا أتذكر جملة الخبرات التي قدمها لي كتاب : (دع القلق وابدأ الحياة) وأنا أردد مع نفسي : يا سبحان الله على هذا التطابق المدهش بين معطيات هذا الدين ، وبين الكشوف والخبرات العلمية في العصر الحديث ... ترى هل سيجيئ اليوم الذي سيكشف فيه الغطاء عن هذا اللقاء الحميم بعد أن يكون العلم قد مضى في الشوط إلى غايته ؟!

إنني لأتذكر هنا كتاب الباحث الفرنسي (موريس بوكاي) (التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء المعارف الحديثة) وكيف أن مؤلفه الذي يقول عن نفسه أنه دخل للبحث في الموضوع الذي استغرق منه حوالي العشرين عاماً ، بعقل علماني لا يؤمن بأي دين على الاطلاق ، وكيف أنه خلص إلى النتيجة التالية : ان تسعة من عشرة من المعطيات المعرفية في التوراة المحرفة ، بإحالتها على كشوف المعرفة الحديثة تسقط ، ويتبيّن تهافتها ، ولا يمّر سوى العشر. وكذلك الحال بالنسبة للأناجيل المحرفة. أما في القرآن الكريم فان عشرة من عشرة من معطياته المعرفية في الحقول كافة ، بإحالتها إلى المعرفة الحديثة ، فانها تمرّ وتتأكد مصداقيتها ...

ثم ما يلبث المؤلف أن يقول بأنه لا يمكن لرجل عاش قبل أربعة عشر قرناً أن ينخل من التوراة والإنجيل معظم دخلها ولا يمرّر سوى العشر في القرآن الكريم ، في ضوء خبرة معرفية

ستتشكل بعد أربعة عشر قرناً ، إلاّ أن يكون نبياً يتلقى تعاليمه وكتابه من السماء ... من مصدر علوي للمعرفة لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(خلق المسلم) كان المحطة الثالثة في لقاءاتي مع فكر الشيخ الغزالي ... وهذا هو الكتاب الثالث الذي يربط فيه الغزالي بين منظومة القيم الخلقية التي دعا إليها هذا الدين ، وبين واقع الحياة البشرية عبر تمخضها الدائم ... فكأن هذا الكتاب حلقةً مضافةً أخرى إلى الكتابين السابقين في الدعوة إلى إعادة بناء الحياة في ضوء التعاليم الإسلامية. والكتاب ، أسوةً بسابقيه ، يتجاوز العرض الفكري الصرف للموضوعات التي يتناولها بما يفتح فيه من مقارنات وتجارب وخبرات تعرف كيف تربط الفكر بالحياة ... هذا إلى أسلوبه الذي يتميز ببعده الأدبي الذي يزيده عذوبةً وحلاوةً.

أما المحطة الرابعة فكانت كتابه القيم (فقه السيرة) ... والحق يقال ، فلقد كان هذا الكتاب لجيلنا في خمسينيات القرن الماضي فتحاً كبيراً ، وجدنا فيه ضالتنا ... ذلك أنه كان من الدراسات المبكرة التي تجاوزت الصيغ التقليدية الجامدة في التعامل مع السيرة ، ورحنا نقرأه بشغف يصعب وصفه ، بعد إذ رأينا فيه من التحليلات القيمة ، والمقارنات الخصبة ، والاستنتاجات الذكية ، ما لم نجد عشر معشاره في الدراسات التي سبقته. والغزالي ها هنا أيضاً يعرف بفقهه العميق كيف يربط بين معطيات السيرة وبين الخبرات المعاصرة ، فيضع قارئه وهو يتجول في أروقة السيرة ، في قلب العصر.

ليس منهجه فحسب ، ولكن أسلوبه الذي يقطر جماليةً وعذوبةً ما يدفع القارئ إلى الارتباط الصميم بفصول الكتاب من بدئه حتى منتهاه.

لقد تجاوز الرجل في كتابه هذا تهاويل القدماء وإسرائيلياتهم المدسوسة ، كما لاحق انحرافات العديد من المستشرقين التي جاوزوا فيها موضوعية البحث ... إلا أن الغزالي ها هنا وقع في المطب نفسه الذي سيطر على دراسات السيرة التي سبقته : المتابعة الزمنية (الحولية) لوقائع السيرة وأهدافها سنةً بسنة وحقبةً بعد حقبة ، رغم أن ذلك يقطع وقائع السيرة ويخترقها بما هو خارج عن سياقها ... فهو يعرض في السنة أو الحقبة الواحدة لوقائع تتعلق بالصراع مع الوثنية ، وتخترقها بأخرى تتعلق بالصراع مع اليهود ، أو العلاقات مع الجبهة البيزنطية النصرانية ... وهو يتحدث فيما بين هذا وذاك عن جملة من الخبرات التشريعية أو الممارسات الاقتصادية أو الوقائع الاجتماعية ... وكان حريٌ به أن يعتمد بدلاً من ذلك المنهج الموضوعي الذي يتابع الظاهرة أو العلاقة ، من بدئها حتى منتهاها ، لكي تتبين للقارئ ملامحها وسبل صيرورتها ، فيمكنه من الامساك بتلابيبها.

على أية حال قد يكون الرجل معذوراً في منهجه هذا لأنه كان هو المنهج السائد في دراسات السيرة ، رغم أنه أضاف الكثير الكثير من الجديد المبتكر في فقه السيرة ووضع يده على نبضها الأصيل.

بدعوة من الأخ الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس (رحمه الله) مدير دار الصحوة في القاهرة في ثمانينيات القرن الماضي للمشاركة ببحث في فكر الغزالي ومعطياته في كتاب قررت الدار إصداره بمناسبة بلوغ الشيخ السبعين من عمره (رحمه الله) استكتب له العديد من الباحثين والمفكرين ... وقد طلب مني أن اكتب عن منهج الشيخ في دراسته للسيرة ، وقد صدر هذا الكتاب الجامع لكي ما يلبث أن يملأ فراغاً ملحاً في المكتبة الإسلامية المعاصرة.

فيما بعد أضفت إلى بحثي هذا ثلاثة بحوث أخرى تناولت مناهج كل من الندوي (رحمه الله) في كتابة السيرة والذي سبق وأن عرض علي كتابة مقدمة لإحدى طبعات كتابه عن سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن جملة من العوائق الفنية والبريدية في ثمانينيات القرن الماضي حالت دون وصول المقدمة التي سعت إلى تحليل منهج الشيخ الندوي في دراسة السيرة. وأما ثالث البحوث ورابعها فكانا عن كل من الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي (رحمه الله) والشهيد سيد قطب (رحمه الله) في معطياتهما الخصبة عن السيرة. وقد صدر الكتاب الذي يضم البحوث الأربعة يحمل عنوان : (كتابات معاصرة في السيرة النبوية) تولت دار وائل في عمان – الأردن نشره عام (٢٠٠٥م). وهو الأمر الذي دفعني عبر هذا اللقاء إلى تجاوز الحديث في الموضوع تجنباً للتكرار والانصراف لتقديم انطباعاتي عن الشيخ (رحمه الله) عبر قراءاتي لجملة من مؤلفاته القيمة.

مهما يكن من أمر فقد شدني في أسلوب الكتاب ووجدتني أقتبس منه المقطع التالي لتغذية بحث لي كنت قد أنجزته في أواخر ستينيات القرن الماضي بعنوان : (بحث في الأسلوب المقارن) صدر ضمن كتابي : (في النقد الإسلامي المعاصر) الذي نشرته مؤسسة الرسالة عام (١٩٧٢م) في عدة طبعات ثم أعادت طبعته الرابعة دار ابن كثير في بيروت قبل سنوات قلائل. وقد ورد الشاهد في سياق التحليل لجملة من الأساليب المقارنة التي سأقف عندها لحظات لتبيّن موقع الشاهد المشار إليه.

فمشكلة الأسلوب في أساسها هو تأكيد العلمانية على العقل مهملةً عالم الغيب والروح والعواطف والأحاسيس ، على العكس تماماً من الأديان تلك التي بتأكيدها على كينونة الإنسان عقلاً وروحاً واحساساً تتوسل إليه بالوسائل الحيوية ، وبالأسلوب المتوازن الشامل من أجل تربيته وتحريكه وتثقيفه وجعله أكثر إدراكاً وحكمةً وفهماً ... اسلوب حياة يسعى إلى أن يحرك كل

الطاقات والتعامل مع نتائج تلك البحوث والكشوف والتنقيبات والكتابات في حقول المعرفة الإنسانية المختلفة. وما دمنا بشراً قد خلقنا الله سبحانه وتعالى على هذه الشاكلة وبهذا التكوين الذي يضم العقل والروح والعواطف والأحاسيس ، فلماذا لا تكون معرفتنا منبثقةً عن هذا التكوين، موجهةً إليه دون اختلال أو تزييف أو إهمال ؟

والحق أنه بدون الأسلوب الديني الحيوي الذي يربط الأرض بالسماء وعالم الغيب بعالم الشهادة فان العلماني سيظل يتعثر في بحثه عن العلم الذي يوجه الحياة ، وسوف لا يجده أبداً ما دام مصراً على تشبثه بالأرضية العلمانية التي يتحرك عليها ، تلك التي تنبثق عنها بالضرورة ثنائية بين الواقع والمثال ، تذكرنا بمثل أفلاطون والقديس أوغسطين ، أو بين الفكر والحياة ... فهنالك تصورات نظرية لا رصيد لها من الواقع الحيوي ، وهناك فلسفة وجود بغير وجودٍ ملموس ... ان التجريد العقلي أو المنطقي الذي لا يهز الحياة ولا يؤثر فيها ، لا يمكن بحالٍ أن يؤتي ثماره الناضجة ، وما لم ترتبط الفلسفة بالواقع الإنساني الحيوي ، بمكنونات الإنسان الشاملة واهدافه ومطامحه ، فانها لن تكون إلا نصف فلسفة تخاطب إنساناً بلا ذراعين أو ساقين. والحل هو أن تعرض مدركات الباحثين وكشوفهم ومحاولاتهم في ميدان المعرفة بأسلوب فني يحتوي في بنيته الحيوية القدرة على إثارة الإنسان والتأثير في كيانه عقلاً وروحاً وعاطفة وإحساساً.

إن الاتجاه الأكثر حداثةً عبر لحظاتنا الراهنة هو ذلك الذي يؤكد على دخول الإنسان نفسه طرفاً في المعضلات التي يسعى العلم ، بل حتى العلم الرياضي والفيزيائي والمختبري ، إلى حلّها ... إنها رؤية العالم بالمنظور الجديد الذي فتح وسيفتح آفاقاً جديدة في ميدان الكشوف العلمية ما دام قد أتيح للإنسان أن يكسر جدران العزلة بينه وبين الظواهر العلمية ، تلك التي أقام بناءها علماء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأن يدخل هو نفسه على المعادلات المعقدة ، ولسوف يجد الأبواب تفتح بين يديه واحداً بعد الآخر ، كما أكد العديد من فلاسفة العلم الحديث : (فتكنشتاين والكسيس كاريل واينشتين وأريك فروم وستانسيو وسوليفان ... الخ).

ما الذي يريد الشاهد المذكور أن يقوله ؟ والغزالي يريد أن يعقب فيها على موقف القرآن الكريم إثر معركة أحد ، الهزيمة التي كان لابدّ منها في علم الله وقدره ، لكي يتعلم المسلمون من نارها الممحصة ، وعن طريق ما سيرتبط بها من آيات بينات ، ملامح الطريق : ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ... ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٧٩) ، فلقد " ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد ، على عكس ما نزل في بدر من آيات. ولا غرو فحساب المنتصر على

أخطائه أشد من حساب المنكسر في المرة الأولى قال : ﴿ . . . تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (سورة الأنفال: الآيتان ٦٧-٦٨) ، أما في أحد فقال : ﴿ . . . مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٥٢). حسب المخطئين ما لحقهم من أوضار الهزيمة. وفي القصاص العاجل درس يذكر المخطئ بسوء ما وقع فيه. وقد اتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطمين المؤمنين حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يغل قواهم وحسرةً تشل انتاجهم : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ (سورة آل عمران : الآيات ١٣٧-١٣٩) ثم مضى الوحي يعلم المسلمين ما جهلوا من سنن الدين والحياة ، ويذكرهم بما نسوا من ذلك ، فبين أن المؤمن مهما عظمت بالله صلته ، فلا ينبغي أن يغتر به ، أو يحسب الدنيا دانت له ، أو يظن أن قوانينها الثابتة طوع يديه ، كلا كلا ! فالحذر البالغ والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة. ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له ، وأن شيئاً منها لن يكون عليه ، وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ، فقد سار في طريق الفشل الذريع : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ . . . ﴿١٤٠﴾ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٤٠) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (سورة آل عمران : الآية ١٤٢) ، وأولو الألباب يستحيون أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه ، وهم يبدون استعدادهم بالتضحية بأنفسهم لقاء ما ينشدون. بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروع. إن الإنسان في عافيته قد يتصور أن الأمور سهلة مبسطة، وقد يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخداع ، فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ثم حادوا عنه لما جاء : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٤٣). ثم عاتب الله (عز وجل) من اسقط في

أيديهم وانكسرت همتهم لما أشيع أن الرسول مات. ما كذلك يسلك أصحاب العقائد ! انهم أتباع مبادئ لا اتباع أشخاص ، ولو افترض أن الرسول قتل وهو يكافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت وأن يردوا المصير نفسه الذي ورده قائدهم لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ... ان عمل محمد (صلى الله عليه وسلم) ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمة في فكر الإنسان وضميره ، فإذا أدى رسالته ومضى فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها ؟ لقد جمع محمد (صلى الله عليه وسلم) أصحابه حوله على أنه عبد الله ورسوله والذين ارتبطوا به عرفوه إماماً لهم في الحق وصلةً لهم بالله. فإذا مات عبد الله ظلت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٤٤) ... ولعل ما ترتب على عصيان الأوامر في هذه الموقعة درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة والجندية ... فإحسان الجندية كإحسان القيادة ، فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلى حكمة فان إنفاذها قد يحتاج إلى كبح وكبت ، ولكن عقبى الطاعة في هذه الشؤون تعود إلى الجماعة بالخير الجزيل ، ولذلك لما دهش المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بين الله لهم أنهم هم مصدرها. فما اخلفهم موعداً ولا ظلمهم حقاً : ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(سورة آل عمران : الآية ١٦٥) ... ".

وسيد قطب (رحمه الله) هو الآخر يعرض للأسلوب نفسه الذي اتبعه القرآن الكريم لدعوة الناس عامة وتربية اتباعه خاصةً في السنين الصعبة الأولى من عمر الإسلام " إنه لم يعرض عقيدته في صورة (نظرية) ولا في صورة (لاهوت) ولم يعرضها في صورة جدل كلامي كالذي زاوله ما يسمى (علم التوحيد) كلا ! لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة (الإنسان) بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل وايحاءات ... كان يستنقذ فطرته من الركام ويخلص أجهزة الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ، ويفتح منافذ الفطرة لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها ... لم يكن الجدل الذهني ، القائم على المنطق الشكلي ، الذي سار عليه في العصور المتأخرة علم التوحيد هو الشكل المناسب كذلك ... وكذلك لم يكن (اللاهوت) هو الشكل المناسب. فان العقيدة الإسلامية ، ولو أنها عقيدةً ، إلا أنها تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الأبحاث اللاهوتية

النظرية. كان القرآن الكريم وهو ينير العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة يخوض بهذه الجماعة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ، كما يخوض معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها هي وفي أخلاقها وواقعها. ومن هذه الملابسات ظهر بناء العقيدة لا في صورة (نظرية) ولا في صورة (لاهوت) ولا في صورة (جدل كلامي) ولكنها في صورة تجمّع عضوي حيوي وتكوين تنظيمي مباشر للحياة ممثل في الجماعة الإسلامية ذاتها ".

وثمة كتابان متميزان في معطيات الشيخ أتيح لي أن اقرأهما بشغف كبير في أخريات القرن الماضي بما أثاراه من قضايا في غاية الأهمية والحساسية ، وبما تعرضا له من نقد ، وبالاستنتاجات القيمة والمقارنات الخصبة اللتين انطويا عليها.

أوّل هذين الكتابين هو (الإسلام خارج أرضه) يتابع فيه الغزالي برؤية خبير من داخل التجربة نفسها حركة الدعوة الإسلامية في البيئة الفرنسية ، ويؤشر على مظان الايجاب والسلب في بنية هذه الحركة ، وبأسلوبه النقدي اللاذع – إذا صح التعبير – يلاحق جملة من الممارسات الخاطئة لدى العديد من الدعاة الإسلاميين في ديار الغربة ، والتي انعكست سلباً على مصائر الدعوة الإسلامية في الساحة الفرنسية ، رغم أن هذه الدعوة مضت تشق طريقها ، وتتداح دوائرها ، لكي ما تلبث أن تشكل تحدياً خطيراً للوجود الفرنسي ، وبخاصة ما رافقها من الزيادة الملحوظة في مواليد المغاربة هناك يقابلها تناقص ملحوظ في مواليد الفرنسيين بحيث أن أحد الاستنتاجات الإحصائية بخصوص المستقبل تقول بأنه في عام ٢٠٥٠ م ستتعادل كفة الديموغرافيا في فرنسا بين ٥٠% من المسلمين و ٥٠% من الفرنسيين ، الأمر الذي دفع الأخيرين إلى نشر إعلاناتهم المحذرة على جدران المدن الفرنسية تقول : نريد أطفالاً أيها الفرنسيون !!

ولقد دفع هذا التوجّس بعض القيادات العلمانية المتطرفة وعدداً من الصحف ودور النشر إلى تجاوز تقاليدهم العلمانية باتجاه الهجوم على الإسلام والمسلمين ، وإلى التمييز العنصري ، وملاحقة ظاهرة الحجاب الإسلامي ووقف الهجرة المغاربية إلى الديار الفرنسية ، فيما دفع عدداً من الكتاب الفرنسيين المعتدلين مثل سامي نائير وجامبي وآخرين إلى إدانة هذه الهجمة واعتبارها نقيضاً لتوجهات فرنسا العلمانية التي تسمح بحرية الأديان ، وصبّوا جام غضبهم ، بل وسخريتهم ، على سياسات الوزارات الفرنسية التي انساقت وراء هذا الاغواء الذي يضيّق الخناق على المسلمين.

والحق أن النشاط الإسلامي في الساحة الفرنسية أصبح يمثل ثقلاً كبيراً ، حدثني عن جانب منه المسؤول الأعلى عن المنظمات الإسلامية عبر دعوة على العشاء في صيف عام

(٢٠٠١م) حيث قال بأن الاتحادات الإسلامية في عموم فرنسا اتفقت على أن تعمل وفق برنامج موحد لكي توصل صوتها إلى رئاسة الجمهورية الفرنسية عن طريق هذا المتحدث ، وتعرض عليها مطالبها الملحة إذا ما أرادت الحصول على أصوات ملايين المغاربة ممن يقطنون في فرنسا ... أي – بإيجاز شديد – العمل وفق طرائق اللوبي اليهودي الذي يتحرك في دول الغرب برأي واحد وإرادة واحدة.

إن هذا كلّه يمثل ولا ريب تحدياً للقوى التي ضاقت بالوجود الإسلامي في الغرب ، فيما يفسر تلك الحملات القاسية التي تلقاها ، ليس في مسالة الحجاب فحسب ، ولا في مسالة الرسوم الكاريكاتيرية فحسب ، بل في الدعوة إلى وقف الهجرة الإسلامية إلى الديار الفرنسية ، والمضي إلى ما هو أبعد : التمييز العنصري وطرد غير الفرنسيين من الساحة الفرنسية.

هذه المعطيات ولا ريب ، أصبحت تتطلب تغييراً نوعياً في تحرك الإسلاميين هناك : بوعي أشد ، ورؤية أكثر نفاذاً ، وبتوحيد للجهود الإسلامية في مواجهة القيادات المضادة ، وبرأي موحد لتحقيق المطالب الأكثر إلحاحاً ... وبتجاوز التشتيت بالخلافيات الجزئية ، وبمرونة فائقة في تعامل الدعاة الإسلاميين مع مواطنيهم الفرنسيين.

هذا كله ، وغيره كثير ، مما قد يكون الدافع الملح للشيخ الغزالي لإنجاز كتابه القيم هذا (الإسلام خارج أرضه) ... إنه في كتابه هذا يعد ويحذّر في الوقت نفسه ... وينشر شبكة من علامات المرور (الترافيك لايت) تقول للدعاة الإسلاميين في فرنسا : مروا من هنا ... تريثوا هنا ... وتوقفوا هناك ...

وسط هذه الأفعال وردودها يجيئ كتاب الشيخ الغزالي (الإسلام خارج أرضه) لكي يشخص الداء ، ويتقدم بالدواء ، برؤية خبير عارف ببواطن الأمور.

الكتاب ممتع ، وهو فضلاً عن ذلك ، يقدم للقارئ شبكة خصبة من الخبرات التي تخدمه في تعامله مع الأنشطة الدعوية في بلدان الغرب عموماً ... وهو ينطوي بأسلوبه الأدبي الرائع ، وبالصور الكاريكاتيرية التي يرسمها الشيخ لتجسيد الأخطاء والانحرافات ، ما يدفع قرّاءه إلى ألاّ يتركوه حتى يقرأوا آخر صفحة فيه ... ويطلبوا المزيد.

ولا يتسع المجال ، وليس بمقدوري في الوقت نفسه ، ايراد جملة من الشواهد مستمدةً من هذا الكتاب القيّم تأكيداً لما ورد عنه ، ذلك أن الكتاب نفسه ، بل ان مكتبتي كلها ذات العشرة آلاف كتاب تركتها فيما تركت من أثاث داري وموجوداته وسط الحرب العاصفة التي شهدتها مدينة الموصل في الربيع الماضي.

أما الكتاب الآخر ، وهو بحق صنو سابقه هذا ، فيحمل عنوان (أهل الفقه وأهل الحديث) حيث يعتمد الشيخ (المنهج النقدي) نفسه ، فيشخص الأدواء ويعرف كيف يضع لها الدواء ، عبر شبكة من المقارنات والاستنتاجات واللمسات الذكية واللاذعة التي وجد نفسه ينساق إليها بسبب من ضغط الحالة – كما يقول المثل – وإذا ضاق الأمر اتسع ، كما تؤكد القاعدة الفقهية.

والحق أن أحد الشروخ الأساسية التي عانت منها أمتنا ، ونخبها المفكرة ، ولا تزال ، هي تلك الخنادق والجدران التي أقامها أبناء الأمة أنفسهم ، بعضهم في مواجهة البعض الآخر حيث وجدوا أنفسهم يمارسون عزلة المائة عام – إذا جازت التسمية – كل في زنزانته الخاصة ، دون أية محاولة جادة منهم ، إلاّ من رحم ربك ، لكسر جدار العزلة والانفتاح بعضهم على البعض الآخر : أهل الحديث وأهل الفقه ومفسرو القرآن الكريم واللغويون والنحويون وأرباب البلاغة والبيان !!

ومن أجل ألاّ نقع في خطيئة التعميم التي هي نقيضة البحث العلمي الجاد ، يجب أن نؤشر على جملة من دعاة الاصلاح الكبار ، والعديد من الحركات الإسلامية ، التي كسرت الطوق ، ودعت إلى المرونة والانفتاح ، وعملت تحت مظلة الدين الذي يحمل عنوان (الحنفية السمحاء) ، ومضت قدماً في طريق الفضاء المعرفي الشامل الذي يلّم سائر التخصصات والخبرات من أجل تقديم الحلول المناسبة لتجاوز الأزمة ... ولقد كان كتابا الشيخ الغزالي (الإسلام خارج أرضه) و(أهل الفقه وأهل الحديث) في هذا السياق ، ومع الشيخ الغزالي مكتبة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي التي جاوزت المائة كتاب عدداً ، والتي تؤكد كلها على هذا المنهج وتسعى إلى تطبيقه في سائر القضايا التي تهم المسلمين في كل مكان.

ولا يتسع المجال لا يراد أسماء شبكة من الكتاب والباحثين اللذين غذوا المكتبة الإسلامية المعاصرة بخبراتهم الخصبة في هذا المجال وقدموا لها العديد من البحوث والدراسات والمؤلفات القيّمة.

أما كتاب (كيف نتعامل مع القرآن) الذي كان بمثابة حوار خصب بين الشيخ الغزالي والأخ المفكر الإسلامي المعروف (عمر عبيد حسنة) ، فرغم أنه وضع النقاط الضرورية على الحروف ، وقدم للقارئ شبكة خصبةً من الضوابط والتعاليم الضرورية لكل من يريد أن يوغل في فقه القرآن الكريم ، إلاّ أن نشر الحوار كما وقع فعلاً وإخراجه على هيئته في كتاب يجعل القارئ يلاقي قدراً من الصعوبة في متابعة قراءته ... ذلك أن الخطاب الشفاهي الذي تم بموجبه الحوار، يتطلب جهداً إضافياً لتحويله إلى خطاب مكتوب ، فثمة فارق بدرجة أو أخرى بين الخطابين ،

أولاهما يصلح للسماع وثانيهما للقراءة ، وكان لابدّ إذن من خطوة أخرى يخطوها المحاور الأخ عمر عبيد حسنة في عمله هذا لتحقيق المطلوب.

***

مع هذا كله ، فلم يتح لي اللقاء بالشيخ الغزالي إلا مرة واحدة في المؤتمر الدولي للسيرة والسنة النبوية الذي عقد في الدوحة عاصمة قطر في (خريف عام ١٩٧٩م) ، ذلك المؤتمر الذي لم يحدث قبله أو بعده ، أن التقى فيه هذا الحشد الكبير من علماء الأمة ومفكريها وأساتذتها الجامعيين ... وعبر ساعات الاستراحة بين جلسات المؤتمر كنا نلتقي ونتبادل الأحاديث حيناً مع البروفيسور المفهرس الكبير فؤاد سزكين وحيناً آخر مع الدكتور جمال عطية رئيس تحرير مجلة (المسلم المعاصر) الذي واظبت على الكتابة إليها السنوات الطوال حيث طرح علي الرجل تولي رئاسة تحريرها ، لكني بسبب ظروف العراق الصعبة اعتذرت عن قبول المهمة ، وحيناً ثالثاً مع الأديب والروائي المصري المعروف الدكتور نجيب الكيلاني (رحمه الله) حيث جرى الحوار حول ضرورة إنشاء رابطة عالمية للأدباء الإسلاميين ... وحيناً رابعاً مع المفكر والباحث المصري المعروف أنور الجندي ، والناشر الإسلامي رضوان دعبول أو الأساتذة العراقيين أبناء بلدي الحاج محمود شيت خطاب والدكتور أكرم العمري والدكتور عبد الرحمن الحجي ... وثمة جلسات عديدة مع الأستاذين أحمد بهجت (رحمه الله) وفهمي هويدي مدير تحرير مجلة العربي للتنسيق بخصوص نشر مقالاتي المتعاقبة على صفحاتها ... وغير هؤلاء العديد من المدعوين من شتى أقطار العالم ... لقد كان المؤتمر بحق مؤتمراً خالصاً لزعماء الفكر الإسلامي المعاصر ، حيث بذل الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي المنسق العام للمؤتمر جهوداً متواصلة لإنجاحه والوصول به إلى جملة من القرارات ذات الأهمية البالغة في حقل دراسات السيرة والسنة النبوية الشريفة.

وعن بعد كنت ألحظ الشيخ الغزالي بخطواته الواسعة ، وحركته السريعة ، يتنقل هنا وهناك ويلتم حوله جملة من الحضور يوجهون إليه سؤلاً أو يدخلون معه في حوارٍ سريع لكي ما يلبث أن يتركهم ويمضي إلى هدفه سريعاً ...

كان وجهه يشع سماحةً ، وعيناه تقدحان ذكاء ، ورؤيته المرنة في التعامل مع الفكر والحياة ، تنطبع على ملامحه بكل وضوح.

بعدها بعامين أو ثلاثة – إذا لم تخطئني الذاكرة – دعي الشيخ لتولي جملة من المهام الأكاديمية والدعوية في الجزائر زمن رئيسها الشاذلي بن جديد ، حيث كانت تقام الملتقيات

الإسلامية التي كان مهندسها المفكر الجزائري الكبير الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) ، كل عام في احدى مدن الجزائر ، وتتولى الإشراف عليها وزارة الأوقاف الجزائرية وعدد من جامعاتها الإسلامية ... ولقد تولى الشيخ في بعض سنوات مكوثه هناك – إذا لم تخطئني الذاكرة أيضاً – إدارة الجامعة الإسلامية في قسنطينة.

وعلى أية حال فان الجهد الفكري والدعوي الذي بذله الشيخ عبر سنوات إقامته في الجزائر كان من بين أسباب رئيسية أخرى ، من عوامل تشكل الصحوة الإسلامية المباركة هناك ، تلك التي آتت بعد سنوات قلائل أكلها الطيب ، بفوز الإسلاميين في انتخابات عام (١٩٩٢م) التي اجتمعت على اغتيالها قوى العسكر والعلمانيين والفرانكفونيين ، فضلاً عن الرفض الحاد للبابوية وفرنسا وغيرها من دول الغرب.

ولقد دعيت لحضور هذه الملتقيات والمشاركة في بحوثها برسائل موجهة شخصياً من وزير الأوقاف أكثر من مرة ، وبذلت من أجل تلبية تلك الدعوات (١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥م) جهوداً صعبةً وقاسيةً للحصول على الموافقات الرسمية من الجهات المعنية في بلدي العراق ، فلم أصل إلى نتيجة ، فكنت اعتذر في نهاية الأمر عن الحضور مكتفياً بإرسال بحوثي إلى المؤتمر لكي تتلى نيابة عني. وأذكر أن أحد تلك البحوث كان (حول الاجتهاد : الضرورات والحوافز ووسائل التحقيق) الذي تحدثت فيه عن حتمية الاجتهاد في واقعنا المعاصر ، وعن طبيعة المعضلة التي تواجه هذه الدعوة ، وعن موقع المعطيات الحديثة من مسألة الاجتهاد ، وعن الحوافز العقدية والموضوعية لهذه الدعوة ، وختمت بحثي بتحليل مفصل لأهمية المنهج ، وجملةً من الاقتراحات بصدد العمل ، وختمت بحثي بالقول " بأن هذه الخطوة الضرورية لا تضمن شروطاً أكثر توفيقاً للعمل الاجتهادي فحسب ، ولكنها ستسهم في تعزيز الوحدة بين مفكري عالم الإسلام من خلال جدل دائم فعال واسهامات اجتهادية متواصلة. وهو – بحق – هدف عزيز في عصر التفكك والتباعد والعزلة حيث تعتمد الأسلاك الشائكة لكي تقطع ما بين المفكر والمفكر وتعزل الإنسان عن الإنسان ولئن لم يفعل الملتقى السابع عشر ازاء هذا كله سوى فتح الأبواب المؤصدة ، ووضع الخطوات الأولى على الطريق الصحيح فكفى به نجاحاً وتوفيقاً ".

عاد الشيخ الغزالي إلى مصر لكي يواصل عمله التأليفي الخصب ، جنباً إلى جنب مع جملة من المهام الأخرى التي كلف بها وكان قديراً على تنفيذها بأعلى صيغ الاتقان والاحسان التي عهدت عنه.

في أخريات عقد التسعينيات من القرن الماضي دعي الشيخ لحضور مهرجان الجنادرية في الرياض والذي تقيمه السعودية سنةً بعد أخرى وتدعو إليه كبار المفكرين والباحثين والأدباء ،

بغض النظر عن انتماءاتهم الفكرية والعقيدية ، بما في ذلك الملاحدة والعلمانيون وحتى الماركسيون ... الأمر الذي أدخل الشيخ في مناقشة حامية مع أحدهم ، يبدو أنه – حرصاً منه على الدفاع عن الثوابت الإسلامية – انفعل وهو يجابه أضاليل ذلك المتحدث ، ثم ما لبث أن فارق الحياة إثر أزمة قلبية حادة جاءت كفاءً لحياة مشحونة مترعةً بالعطاء ، وبالردود المتواصلة على ادعاءات الملاحدة والعلمانيين.

يكفيه شرفاً وفخراً أن يذهب ليوم الحساب وهو يحمل رصيداً ضخماً في خدمة الدعوة إلى منهج الله سبحانه وتعالى ، عسى أن يكون جواز سفره إلى الجنة ...

مجرد وجهة نظر : حول النص وقراءاته

عندما صمّم الناقد الفرنسي المعروف (تين) منذ زمن بعيد نظريته النقدية القائمة على قراءة النص الأدبي وفق أبعادٍ ثلاثة " الزمان ، والمكان ، والعنصر " هل كان يتوقع أن يجئ اليوم الذي تكتسح فيه تيارات النقد الحديث نظريته تلك وتقلبها رأساً على عقب ، وتلغي أبعاده الثلاثة في قراءة النص ، وتعتقل الناقد والمتلقي معاً داخل النص ، وفق داله ومدلوله ، بعيداً حتى عن مؤلفه الذي أعلن عن موته ؟

وهل كان مؤسسو الحركية البنيوية في النقد الحديث ، عبر ستينيات القرن الماضي يتوقعون أن تشهد حركتهم تلك انقلاباً عليها من التفكيكيين ، وهؤلاء من السيميائيين ، وأولئك من دعاة مختبر تحليل الخطاب الذي حول النقد إلى مشرط صارم في بيولوجياته وكيميائياته وفيزيائياته ؟

وتلك هي ميزة العقل الغربي ومأساته في الوقت نفسه ... إن قادته وهم يكشفون جانباً من الحقيقة ... جانباً مهماً ... يحاولون أن يمطوا كشفهم هذا لكي يحاولوا أن يفسروا به كل مظاهر الحياة والوجود ، ثم ما يلبث الرداء الذي ضاق بها أن يتعرض للتمزق فيما يضطرهم لاستبداله بأثواب جديدة.

وهكذا دخل تاريخ الفكر الغربي في كشوفه المتألقة ، وفي انطفاء تلك الكشوف ، لكي ما تلبث أن تحل محلها كشوف جديدة ، لن يكون بمقدورها الخروج هي الأخرى من الدوامة التي تلفّ في طياتها المفكرين جميعاً ... بل أحياناً حتى المفكر الواحد ... فهذا (أوغست كونت) ، واضع أسس الفلسفة الوضعية ، يتخذ ، بسبب مواقفه الذاتية التي لا تقوم على أساس موضوعي، موقفين متناقضين من المرأة. ففي رسالةٍ له بعنوان : (رسالة فلسفية في التذكار الاجتماعي) ، يبعث بها إلى محبوبته (كلوتليد دوفو) ، يغير رأيه في المرأة ومكانتها الاجتماعية تغييراً تاماً. فقد كان أشهر يكتب إلى تلميذه (ستوارت مل) ، فيرى أنه ليس في المرأة أمل ولا خير ، أما الآن فهو يرى المرأة عنصراً أساسياً في الاصلاح الاجتماعي الذي وقف نفسه عليه !

والسبب في هذا الانقلاب الفجائي من النقيض إلى النقيض هو أنه كان في الأولى يحب امرأة قبلت الزواج منه ، ولكن خدعته فدفعته إلى محاولة الانتحار والالتحاق بمستشفى المجانين حيناً من الدهر ، وفي الثانية أحب فتاةً لم يتح له الزواج بها ، لكنها منحته نفسها وأحبته حباً صادقاً !

وهذا (هيغل) ، مؤسس النظرية المثالية في تفسير التاريخ ، يبدي إعجابه بمبادئ الثورة الفرنسية ويصور نابليون بونابارت بالبطل على حصان أشهب سرعان ما ينقلب على موقفه هذا ويتحول إلى واحد من أشد المؤيدين والمنظرين للعسكرية الألمانية التي تقف على الطرف النقيض من مبادئ الثورة الفرنسية !

ومعروف موقف لينين ، مؤسس الماركسية اللينينية ، من حرية الاتصال الجنسي التي دعا إليها المنظر الماركسي وليم رايخ ، مؤسس معهد (السياسة الجنسية) ، وأصدر تحت تأثير مالينوفسكي كتاباً سماه (وظيفة الشهوة الجنسية) ، أكد فيه على أن الطبقة العمالية لن تتمكن من تحقيق إمكانياتها الثورية ورسالتها التاريخية إلا بإطلاق الحافز الجنسي ، دون حدود أو قيود ... وقال بنظرية (كأس الماء) التي تزعم أن العملية الجنسية ليست أكثر خطراً وأثراً من عملية إطفاء العطش بكأس من الماء. ولكن لينين إذ رأى أن أولاد الروس سيتحولون جميعاً إلى لقطاء وأبناء حرام ، انقلب على مقولات المانفيست الشيوعي ، من الطول إلى الطول ، وهاجم نظرية كأس الماء ، ودعا إلى العودة إلى الالتزام بمفاهيم الأسرة ، من أجل تجنيب بلاده قطف الثمار المرة لمقولات المانفيست ! ... وغيرُ كونت وهيغل ولينين كثيرون ممن مارسوا لعبة استبدال الثياب القديمة !

مهما يكن من أمر ، فإن الأسباب تقود – كما هو معروف – إلى نتائجها ، وإن الإلحاح على تجريد النقد من عناصره الخارجية التي تعين على إضاءة النص ، قاد العملية برمتها إلى الأنفاق المقفلة التي وضعت بين النص والمتلقي شبكة من الأسلاك الشائكة ، ودفعت الكثيرين منهم إلى الرجوع إلى زمن النقد الذاتي الذي كان يمارسه في ثلاثينيات القرن الماضي وأربعينياته ، نقاد يقف طه حسين على رأسهم في مؤلفات من مثل (بين بين) ، و(خصام ونقد) و(كتب ومؤلفون) ... الخ. حيث تتكسر الحواجز بين النصّ والمتلقي ، ويجد القارئ متعةً بالغةً وهو ينساب مع أسلوب واضح مشرق ، في قراءته للنص ، رغم ما ينطوي عليه ذلك من جملة من المآخذ التي لابدّ أن تجد طريقها في نقد منفلت كهذا من الضوابط والمعايير الصارمة ... وهكذا!

إن تيارات الحداثة – في المقابل – قدمت كشوفاً في غاية الأهمية في اختراق النص من الداخل ، والايغال في دلالاته وانزياحاته ، والتأشير على نقاط القوة والضعف في بنيته ، بعيداً عن أيّ مؤثر خارجي على الاطلاق ! وهذه الرؤية البنيوية التي بدأتها الحداثة المعاصرة ليست بالأمر الجديد الذي يقتصر على العقل الغربي وحده ، فلقد سبقها بها ناقد خصب كالجرجاني في

كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) ، حيث عرف كيف يحقق الترابط الوثيق بين المبنى والمعنى داخل مفردات النص المقروء.

وهنا لابدّ من وقفة سريعة – قدر ما يتسع له مقالٍ كهذا – عند أولئك المأخوذين من النقاد المشارقة بتيارات الحداثة في ديارنا ، والذين لا يزالون متشبثين مقولاتها رغم تخلي الغربيين أنفسهم من بُناتها الأوائل عنها ! أو – على الأقل – تخليهم عن بعض حلقاتها الأساسية.

إنهم لا يعرفون على وجه التحديد ماذا يريدون ... لقد بهرتهم النار اليونانية المقدسة فسرقوها ، ولكن كانوا أصغر من استيعابها وتوظيفها ...

لا أقصد أبداً مسألة الفهم والإدراك ، ولكني أقصد عدم القدرة على حمل الوقر الثقيل والسير به إلى نقطة محددة ... توظيفه من أجل هدف تكتيكي أو استراتيجي أكثر أصالةً في صراعنا الثقافي ومعطياتنا الأدبية ... لقد اندفع بعضهم بسبب من هذا الذي ناءت به الكواهل ... اندفع بأكثر مما يجب صوب الطرف الآخر ، فتغرب وضاع هناك. ومن يدري ؟ فلعله اقتنع في نهاية الأمر بتفوق الثقافة الغربية فأعلن استسلامه لها وفق طريقة مقنعة. لكن ليست المسألة صعبةً على أية حالٍ ، ويمكن اكتشافها بسهولة.

آخرون أرادوا التوظيف ، بعضهم في سياق الماركسية المقهورة ، وبعضهم الآخر في سياق الليبرالية واللا دينية والإلحاد في منظوره الغربي ... ما درى هؤلاء أنهم يقومون بعملية حسابية مستحيلة ، وأنهم يجمعون التفاح والبرتقال للوصول إلى رقم مستحيل في منطوق الحساب ... إنهم يريدون إرغام ثقافتنا وتراثنا وتاريخنا ، بل حتى عقيدتنا ، ورؤيتنا للحياة ، على المرور من المنظور الحداثي الذي يرفض الثوابت ويمضي ، في حمّى النزوع التنظيري ، متجاوزاً الكثير من المؤسسات الحضارية والعقدية والاجتماعية حيناً ، رافضاً الكثير من التأسيسات اللغوية والثقافية حيناً آخر.

التقاطهم للحركات التخريبية (إن جازت التسمية) تأتي في هذا السياق ... تدمير الثوابت والجري وراء المتغيرات حتى ولو قادت إلى الخراب ... حتى ولو ارتطمت بالمعطى الحضاري المتفق عليه. مهما يكن من أمر فإن هذا لا يجب أن يدفع الأدباء الإسلاميين ، بردّ فعلٍ غير مدروس ، إلى الطرف النقيض الآخر ... إلى رفض التعامل مع تيارات الحداثة وكشوفها ومناهجها التي تنطوي ، ولا ريب ، على قيم معرفية في غاية الأهمية والفاعلية ... إنهم بهذا يفرطون في فرصة جيدة للتوظيف ... للإضاءة ... لتعميق المسيرة الأدبية في جانبيها ، النقدي والإبداعي – الدراسي.

أشياء كثيرةً يمكن أن تقال عن موقف شعرائنا ونقادنا وأدباءنا الحداثيين ، أو المحسوبين على اليسار كما كانوا يسمّون أنفسهم يوماً ، ولكن الأهّم من هذا ألاّ نشغل أنفسنا بهم ، والا تعيقنا أخطاؤهم عن التبصّر الجاد في ما يقدمه العقل الغربي من كشوفٍ ومعطيات.

في اعتقادي أن أحد المطالب الأساسية للحظة الراهنة هي محاولة سبر هذه التيارات وإدراك نقاط السلب والايجاب فيها ... إنّ هذا سيمنح الأدب الإسلامي فرصةً جيّدةً ليكسب عمقاً إضافياً هو بأمّس الحاجة إليه ، فضلاً عن أنه سيعين هذا الأدب على أن يكون في قلب العصر ، وعلى أن ينسج خطابه الإبداعي والنقدي من المفردات التي يتعامل بها المثقف المعاصر.

ليس كلّ ما يجيئنا من الغرب شراً ... هذه رؤية خاطئة وقع في دائرتها الكثيرون عبر القرنين الأخيرين ، فقادتهم إلى مزيد من العزلة وتضييع الفرص المناسبة للتوظيف.

والحداثة ليست جهداً مبسّطاً ، وإنما هي معمار ذو طبقات وأدوار ... من بين هذه الأدوار ما يرتبط برؤية الحداثيين وتصورهم للكون والحياة والإنسان ... للوجود والمصير ، ولمغزى الظاهرة البشرية في العالم ، وهو تصوّر ينحرف في معظم الأحيان عن سوّيته ، باتجاه ما أطلق عليه (والاس فاولي) وهو يتحدث عن السرياليين في كتابه : " عصر السريالية " الجنون ، والظلام ، والدجنّة ...

لقد وقفت عند هذه المسالة طويلاً ، في العديد من مؤلفاتي ، وبخاصةً : " فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر " ، و " أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار " ، فلا أريد أن أعيد القول فيها.

إن الحداثيين يندفعون ، كعادة العقل الغربي ، إلى المدى ، ثم ما يلبثون ، كعادة هذا العقل أيضاً ، أن يتراجعوا أو يعلنوا تبرؤهم مما كانوا فيه ... إنها إذا استخدمنا المفردات القرآنية : الأهواء ، والظنون ، والأسماء التي لا سلطان لها : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (سورة النجم : الآية ٢٣).

واللهاث وراء الحداثيين في هذه اللعبة سيجعلنا كمسلمين نخسر مرّتين : مرّةً بتجاوز رؤيتنا السامقة المتميزة للكون والحياة والإنسان وتصوّرنا العالي المتفرّد للوجود ، ولمغزى الوضع البشري في العالم ... ومرةً أخرى بقبولنا لترّهات الخصم وأباطيله وأوهامه وظنونه.

ثمة دور آخر لتيار الحداثة ، أقرب إلى التقنيات المحايدة التي يمكن توظيفها ، وبخاصة في مجال النقد التطبيقي ، إنّها – والحق يقال – بمثابة كشف في غاية الأهمية ، يمكن إذا

أحسن التعامل معه التحقّق بإضاءة أشدّ للمعطيات الإبداعية ... شرط أن نكون حذرين ، لأنَّ هذا الجانب نفسه قد يتجذر في التصوّر والرؤية ... فإذا استطعنا أن نحقَّق قدراً من فكّ الارتباط بين القطبين كان التوظيف أكثر جدوى.

على مستوى الإبداع ليس من المعقول أن تظلّ الأنواع على قوالبها القديمة المنحدرة عبر القرون ... صحيح أنّ هذه القوالب والتقاليد الجمالية هي حصيلة خبرة خصبة ومحاولات متواصلة للتحسين والانضاج ، إلاّ أنّها – في نهاية الأمر – ليست قدراً نهائياً ، وتجديد آلياتها وأنساقها وبنيتها الجمالية بين الحين والحين قد يمنحها إثارةً ما ، ويعطي المبدع فرصةً أوسع للاكتشاف والتجريب ، شرط ألا تنحرف به شهية التغيير صوب تدمير الثوابت والمرتكزات وتمييع المطالب الأساسية للنوع الأدبي. ولنتذكر – على سبيل المثال – الأعمال الابداعية التجريبية الموزونة التي نفذها أدباء كبار كنجيب محفوظ في (السمّان والخريف) ، و(اللص والكلاب)، وغابرييل ماركيز في (مائة عام من العزلة) ، و(خريف البطريق) ، ونجيب الكيلاني في (عمر يظهر في القدس) ... بغض النظر عن اتفاقنا أو عدم اتفاقنا معهم في المضامين.

بإيجاز شديد ، فان على ادبائنا ألا يهرعوا بالكلية لكي يرتموا في تيار الحداثة ، وأن يكونوا أكثر أصالةً وصدقاً مع الذات ، ليس برفض خبرة الآخر وكشوفه التي قد تنطوي على قدرٍ كبير من الأهمية ، ولكن باعتماد رؤية انتقائية مدروسة لا تمرّر إلا بما ينسجم مع ثوابت المنظور الرؤيوي وشبكته المعقدة.

جرّبت أن أصير سريالياً !!

قررت يوماً ، وقد انتابني الضيق والسأم ، أن أصير سريالياً ، فأكتب كما يكتبون ... بعيداً عن مواضعات العقل المتفق عليها منذ مئات السنين وألوفها ... بعيداً عن ضوابط اللغة التي صنعتها الأجيال تلو الأجيال ... ان أكسر حاجز العقل ... أن أخنق لغة التواصل بين الكائنات، وأن أمضي بعيداً باتجاه عالم الجنون والدجنة ... أن أوغل في عالمي الباطني الخفي ... أن أفجر تداعيات لا واعيتي التي ترفض الترابط المنطقي بين الأشياء ، وأن أمضي بعيداً باتجاه أغوار النفس البشرية التي يصير فيها الحلم والكابوس ، لغتها المتداولة ... أن أدمّر كل اعراف الناس وتقاليدهم القادمة منذ مئات السنين وألوفها ... وأن أتمركز هناك فيما وراء مدركات العقل والمنطق والإرادة بحثاً عن اللغة المناسبة ، اللغة غير التقليدية ... اللغة التي تشكل مفرداتها الغرائبية بنفسها ، حيث ينسحب العقل نهائياً من نسيج خيوطها ... لأجعلها تقول ما تشاء ... أن ألجأ إلى تهاويم السحرة والمعزّمين ... إلى الغازهم ومعمياتهم ، فلعلها بذلك وحده تتحرر من سيطرة العقل والمنطق الذي عرف كيف يكبلها بحجة ضرورة التواصل بآلية اللغة بين الإنسان والإنسان !!

أي تواصل هذا والإنسان نفسه مجرد ذرة تائهة في ملكوت هائل لا أول له ولا آخر ؟ أي تواصل هذا والإنسان نفسه ضائع ضائع ، لا يعرف شيئاً عن سرّ وجوده في هذا العالم وعن المصير الذي سيؤول إليه ؟

فلأفجر إذن اللغة المتعارف عليها ، وأمضي بها لكي تقول هي ما تشاء ، بعيداً عن قبضتي ، فلعلها بذلك ، وبذلك فقط ، تمنحني الجواب الملح عن كل ما يعتمل في ذاتي من أسئلة محيرة تتطلب جواباً خارج نطاق الشكليات والمواضعات المتداولة والمستهلكة !!

هل ابدأ إذن بتفجير القنبلة الموقوتة لكي أجعل أداة التعبير حطاماً ؟ فمن يدري لعلي بذلك أجد فرصتي الضائعة ... فرصتي الوحيدة للعثور على ما أتوق إليه ، وأتمناه ، وأعشقه ؟ ومن يدري فلعلي بذلك وحده أتلقى الجواب !

سأبدأ رحلتي السريالية معكم ، فهل تسمعون ؟ لقد تخليت عن عقلي ولغتي الاعتيادية ، بل حتى عن انزياحي بدلالاتها المتعارف عليها ، وسأخاطبكم بشيء آخر ... شيء آخر تماماً ، فهل ستتجاوبون معي ؟

لا يهمني ذلك ، فلقد اخترت طريقي ولسوف أمضي فيه إلى حدوده القصوى ، سواء أدركتم ما أقول أم وضعتم في آذانكم شمعاً أحمر ... فلأمض ... امض ... لأمض ... فبذلك وحده يكون تحرري وخلاصي من قيودكم الصدئة التي نخرها السوس !

يا فاتنتي الرائعة

يا ذا الكرش المنتفخ كأنه يوشك على الانفجار

أتذكرين يا خائنتي زمن طفولتنا السعيد ؟

يوم كنا كظفرين حادين انشبا مخالبهما في اللحم الطازج

هل آتيك أيها الرجل بشيء مما تشتهيه ؟

هل آتيك بشيء من الكباب النيئ والمعلاق المتعفن ؟

آهٍ منكم أيها السادة الارستقراطيون !

تطلبون مني ما لا يمكن تنفيذه

تريدون مني المستحيل

دعونا من هذا كله ولنخرج في رحلة ربيعية مشتركة فلعلنا نعثر هناك على الأشياش الطازجة والمحمرة ...

دعوني أيها السادة الكبار أغرسها في بطونكم

افقأ بها عيونكم الكسولة التي لا تعرف سوى ازدراد الحشيش ومضغه بتلذذ

ماذا أقول يا فاتنتي المتوحشة

والأنياب الحادة

أهكذا تنقلبين علي في لحظةٍ واحدة ؟

وتتحولين إلى قط مشؤوم ... كلب أجرب ... عقرب سام ... أفعى ينز اشتهاء ... فلماذا؟

أتدثر بمعطفي السميك وأنا أتجول بلا مبالاة في شوارع لندن وباريس ...

ماذا أرى ؟

عليك اللعنة أيتها المدن العامرة بالفسق والفجور

ناطحات السحاب والأبراج الهائلة في ارتفاعها ... نعم

ولكن ما الذي يجري في داخلها سوى الفساد الذي يزكم الأنوف

لقد أحببتك بنقاء

فلماذا تخونينني أيتها الغادرة

الذئبة العرجاء

النعجة الحولاء
سأبقر بطنك المنتفخة لكي أخرج منها الكرشة التي أعرف كيف احشوها بالرز المفلفل باللوز والكشمش ... ولحوم الضفادع والفئران ...
انني أكاد اتقيأ فكيف الخلاص ؟
أدور على نفسي بحثاً عن نقطة الارتكاز التي تجعلني أعرف من أنا
فمن أنا ؟
أيها المخبولون الذين تخلوا عن عقولهم وأصبحوا كالطرشان ...
قولوا لي من أنا ؟
هل من نذل حقير فيكم يجيبني على سؤالي هذا الذي يعذبني ... من أنا ؟
اللعنة عليكم ولكنني سأعرف كيف أرشيكم بقطعة طازجة من الجبن المملح ...
ألا يكفيكم هذا ؟
يا فاتنتي المنشطرة
تعالي معي لكي نتجول في أحياء نيويورك وواشنطن
أقسم لك أنها رحلة مشوقة
لأنك سترين هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ...
إذن لأذهب وحدي أيتها الخائنة
أيتها الحاقدة التي امتلأ قلبها بفصوص اللالئ والحصى !
لأذهب وحدي فلعلي أجد هناك من يعينني على التجوال
آهٍ أيها الأصدقاء ، انكم لا تفهمونني ، وبالتالي لا تعيروني أسماعكم
اللعنة عليكم ... لسوف أعرف كيف أسوقكم كما تساق الأنعام
بحفنة من الحشيش الطازج أدفعه في حلوقكم المنتنة ...
أيها الطرشان !
ولسوف أرجع من رحلتي تلك لكي أحكي للناس ... لكل الناس
ما الذي فعلته بي نيويورك وواشنطن
علي أن أتدثر بلحافي السميك فالبرد لا يحتمل
ولكن ماذا لو طلعت الشمس على حين غفلة ؟
ألا يمكن أن تحيلني إلى كتلة من نار ؟
تتقاذفها أقدام الصبيان في الشوارع والحارات ؟

هم يدّعون حماية حقوق الإنسان
ولكنهم يسعون إلى تكسير طبقة الأوزون لكي يحرقوه
عليهم اللعنة ...
إنهم يلوّثون الهواء ويضعون في المقابل الأدوية التي تنقذ الإنسان من الاختناق !
وآهٍ من التلوّث بعشق الدرهم والدولار
أليس كذلك يا فاتنتي العرجاء ؟
ألم أقل لك يوماً بأننا نسير في حياتنا الراهنة على حدّ السيف ؟
فأين هو عنتر لكي يرفع سلاحه في مواجهة أمريكا المتعجرفة ؟
أين هي عبلة التي لا تخدع ولا تخون كما فعلت أنت أيتها المرأة المترعة بالقذارة !
ولكن لا بأس
فلأرحل عن هذا البلد ... لأنزع مني جلدي المتصلب وأعرض لحمي الطازج للهواء الطلق ...
فعله يعرف كيف يتنفس
وآهٍ من اللا أبالية التي تمسك بخناق الإنسان
وتسوقه إلى أسواق التبن والحثالات
آهٍ من اللا أبالية التي تجعله يتجرع السمّ وهو يتصور أنه يداوي نفسه بالعسل المصفى ...
آهٍ يا عقدتي السوداء التي اخترقت جملتي العصبية
لماذا تمارسين تعذيبي ؟
لسوف أسحقك حتى العظم
وأخرج ما في داخلك من عقارب وحيّات
حينذاك ... حينذاك فقط سيجيئ الفارس الذي يحمل الراية البيضاء
فيحررني منك ... ينقلني إلى الضفاف البعيدة
التي ما حلم بها إنسان
أهٍ يا عقدتي المتأصلة في الشرايين
متى ستخرجين وتواجهيني بشجاعة ... متى؟
وجهاً لوجه ... لكي أعرف كيف ألقنك درساً قاسياً
الملاكم العنيد القادم من وراء البحار يجيئ إلى مدرستنا متحدياً
ومعلّم الرياضة يستجيب لتحديه

ونقف نحن التلامذة الصغار نصفق لمعلمنا الذي وعدنا بأنه سيهرس الملاكم العنيد !
لكنه ما لبث أن تلقى ضربة قاسية أفقدته الوعي
جعلته يترنح ويسقط أرضاً
والملاكم العنيد يرفسه بقدمه بوقاحة
ونحن نصفق لمعلمنا المسكين
أيتها اللعنة القادمة من عصور ما وراء التاريخ
يا ذات الأجنحة الهائلة السوداء
متى تكفين عني ؟
متى تكفين عن رفسك إياي بقدميك المثخنتين بقتل آلاف الأبرياء ؟
هل أنا برئ مثلهم ؟ أم أنني أحد أولئك القتلة الذين غرسوا سكاكينهم في أجساد المغفلين ؟
أيها الخبيث الماكر ... يا ذا الوجه الأصفر الذي ينفث مكراً
ما الذي تريده مني ؟
قل لي ... اسألك بشرفك ... ما الذي تريده مني ؟
السماء تقطر زرقةً
والشمس الساطعة تتجول في أحياء مدينتي
تطلب من أصحاب الدكاكين والمحلات أن يقفلوا الأبواب !
تصرخ فيهم : أقفلوا الأبواب يا أبناء العاهرة
ويرد عليها مجنون فقد عقله منذ آلاف السنين
أخرجوا في تظاهرة كبرى ولقنوها درساً لن تنساه
فيتجمهر الناس وينطلقون في شوارع المدينة وهم يصرخون
بعواء كعواء الذئاب الجائعة
يا ذات الروح السحرية يا سحلية
فما تلبث الشمس الساطعة أن تتفكك وتذوب خجلاً
وأنا هارب لا ألوي على شيء ...
أجدني في مدينة أصفهان ...
لماذا أصفهان ؟ لا أدري
وأنا أجتاز أنفاقها المعتمة واحداً بعد الآخر
لعلي أعثر على نقطة الضوء التي أبحث عنها ...

أتصبب عرقاً وأنا أركض هنا وهناك
صارخاً : كيف الخلاص ؟
تنهال علي من سقوف الأنفاق أكداس من الرمل الأسود
تسحبني شيئاً فشيئاً إلى الأعماق
وأنا مستسلم لا حول لي ولا قوة ...
أحسّ بأني اختنق ... فأبحث عن جرعة هواء أغسل بها رئتي المحترقة
ولا من يجيبني ...
لقد انتهيت !
فماذا تقولين بعد هذا كله يا فاتنتي العذبة ؟
ويا عقدتي السوداء ؟
قولي تكلمي ... اجيبيني ... اصرخي في وجهي
فمن يدري لعلي أرجع إلى صوابي فأكف عن عشقي وعن غرامي
وحينذاك ... حينذاك فقط اخرج من تلك البئر العميقة التي أوقعتني فيها
أتسلّق جدرانها الصدئة إلى فوق
إلى السماء الزرقاء التي لا يكدرها شيء
لا يكدرها شيء على الاطلاق !
فهناك فقط قد أعثر على ذاتي الضائعة التي يعتصرها الحنين إلى زمن البراءة الأولى
أتحرر من سطوتك أيتها الامرأة الغادرة !

***

فهل اقتنعتم أيها الأخوة القراء بقصيدتي السريالية هذه ؟ أما أنا فلم اقتنع ، لأنني اعتبرها سخفاً ... تفاهةً ... هراء ... وانني وأنا أكتبها قد مارست الانفلات من ضوابط العقل ، وآليات اللغة التي أريد لها أن تحقق التواصل بين الناس ... فأي تواصل هذا ؟ وأية عقلانية في قصيدتي التافهة هذه ... قصيدتي المترعة بالعبث والجنون وتجاوز ما تعارف عليه الناس ، وألفته الأجيال تلو الأجيال ؟

أي تواصل وأية عقلانية ؟!

أجيبوني أيها السرياليون !!

حول ثنائية الدنيا والآخرة

كتاب الله وهو يتحدث ويشرّع ويرسم المعالم لحياتنا الدنيا ... فجأة ، ودون سابق إنذار يدير المنظور صوب اليوم الآخر ... ليس مرةً أو مرتين أو عشرين مرةً أو ثلاثين ، وانما على مدى كتاب الله من بدئه حتى منتهاه ... نجد أنفسنا ازاء هذه النقلة المفاجئة من الدنيا إلى الآخرة !

ليس هذا فحسب ، بل هو يضغط الحياة الدنيا في أضيق مساحة ، ويمدّ في مساحة الحياة الأخرى ... فيجعل الأولى ساعة من نهار ، عشرة أيام ، حفل تعارف ما يلبث الذين انفضوا عنه أن ينسوا أسماء وملامح الوجوه التي تعرفوا عليها ... بينما هناك في المقابل يغدو اليوم الواحد كألف سنة مما نعد ... أكثر من هذا يغدو ثمانية عشر وخمسين ألف يوماً أرضياً : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (سورة المعارج : الآية ٤).

ليس استهانة بالحياة الدنيا التي طالما أكّد في مشروعه الحضاري على ضرورة إعمارها لكي تكون البيئة الصالحة لعبادة الإنسان ، ليس بالمفهوم الطقوسي أو الشعائري وانما بالمفهوم الحضاري الذي تصير فيه كل فاعلية عمرانية يمارسها الإنسان عبادةً يتقرب بها الإنسان إلى الله (سبحانه وتعالى) ... ليس هجراً وتحقيراً للحياة كما يفعل بعض المتصوفة ، والبوذيون والهندوس ورهبان المسيحية ... وإلا ما وضع هذه المنظومة الخصبة من آياته البيّنات التي تسعى إلى بناء الحياة الدنيا وإعمارها وتنميتها ... ليس رفضاً للحياة الدنيا ونفياً لها ، وهو طالما أكّد على ضرورة الالتحام بها ، والكفاح لحماية منجزاتها ، والمضي بها قدماً إلى الأمام ...

ليس هذا أو ذاك ، ولكنها الرؤية الإلهية الشاملة ... رؤية العليم الخبير التي تطل على المنظور من فوق ، فترى الحالة بحجمها تماماً ... دونما زيادة أو نقصان ، فتضع النقاط على الحروف وترسم أقدار الدنيا والآخرة بما يستحقه الطرفان.

وأين نحن الذين قدرت أعمارنا بالخمسين والستّين والسبعين سنة ، والتي اختزلت آجالنا عبر هذا المدى الزمني الضيق المحدود ، المترع بالثقوب السوداء ، من أعمارنا الأبدية هناك حيث تزول العقبات والمتاريس ، ويكف الموت عن اختطاف أرواح الناس ، ويمدّ لهم في البقاء إلى أبد الآبدين ؟

أين نحن الذين امتلأت حياتهم الدنيا بالدمامل والقروح ... بالكدح المتواصل ... بالأوجاع والآلام ، وبالقلق والهم والخوف ، وبالمصائب التي تنقض علينا على حين غفلة منا ، من تلك الحياة الوضيئة التي لا يعتصرها الهم والكدر ... الباقية الخالدة ... المترعة باللذائذ والمسرّات ؟!

وكيف ستغدو المدن العامرة ، والأبراج الهائلة ، والمصانع الكبرى ، والشوارع والمتنزهات الفارهة ، والمؤسسات والبنوك والمصارف ، والصناعات التي لا أوّل لها ولا آخر ؟ كيف ستغدو الدول الكبرى والامبراطوريات العظمى التي تحكم نصف العالم ؟ كيف سيغدو الحكام والطواغيت والأباطرة والملوك والأمراء ؟ كيف سيغدو الأغنياء والمترفون الذين تكدست في خزائنهم تلال الذهب والفضة ، وملأت جيوبهم وبطونهم أكداس الدراهم والدنانير ؟ وكيف ستغدو التكنولوجيا الهائلة بكشوفها المدهشة ومعطياتها التي تقدم كل يوم جديداً ؟ وكيف ستغدو آليات الحرب والقوة والقتال والتدمير من صواريخ عابرة للقارات ، وطائرات عملاقة ، وأقمار فضاء ، ومدافع بعيدة المدى ، وأسلحة فتاكة ؟ بل كيف ستغدو القنابل الذرية والهيدروجينية التي تجعل الأخضر هشيماً ؟ كيف ستغدو السوبر ماركات المترعة بالبضائع ، والملاهي السكرى بالملذات ، والنوادي التي يتعرى فيها الإنسان ، وحانات الخمور ، وصالات القمار التي تحرق فيها آلاف الدولارات وملايينها ؟ كيف ستغدو الأزياء المتجددة ، ومسابقات الجمال التي تستهدف تعهير المرأة وتحويلها إلى أداة رخيصةً للمتعة ؟ أين ستغدو مؤسسات الإعلان التي جعلت من المرأة وسيلتها الفاجرة للربح والاتجار ؟ أين ستغدو المؤسسات الاعلامية الكبرى من تلفزيون وسينما ومسرح وفضائيات تعرف كيف تنفث السم الزعاف في جسد البشرية المترع بالثقوب السوداء ؟ أين سيذهب هذا كله في لحظة المصير ، في ساعة الحسم الكوني عندما يصدر الأمر الإلهي ببدء الحساب العسير ؟

لنقرأ في كتاب الله (سبحانه وتعالى) بعض ما يتيسر لنا لكي يتبين لنا حجم الهول النازل من السماء والذي سيحيل هذا كله إلى أنقاض وركام ... إلى هباءٍ منثور ... إلى دمارٍ شامل لا يكاد يبقي على شيء من هذا كله ولا يذر ... لنقرأ بعيون مفتوحة ، وأفئدة واعية ، وعقول ذكية ، وآذان تعرف كيف تلتقط صوت النذير : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ (سورة الفرقان : الآية ٢٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴿٨﴾ (سورة الكهف : الآيتان ٧-٨) ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

صُنْعاً ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴿١٠٥﴾ (سورة الكهف : الآيات ١٠٣-١٠٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ (سورة الحاقة : الآيات ٢٥-٣٢) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً ﴿١٠﴾ (سورة المعارج : الآيات ٨-١٠) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ (سورة الانشقاق : الآيات ١-٥) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ (سورة الزلزلة : الآيات ١-٥) ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ (سورة القارعة : الآيات ١-٥) ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة الحديد : الآية ٢٠) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة يونس : الآية ٢٤).

كل هذا العمران ... كل تلك المؤسسات الكبرى ... كل ذلك الكم الهائل من الكشوف والاختراعات ... كل تلك الملاهي والمنتديات ... كل تلك الشوارع الفارهة وناطحات السحاب العملاقة ... كل تلك الأسلحة الفتاكة التي لم ترحم الأمم الضعيفة والشعوب المستعبدة ... كل

ذلك الغرور والصلف البشري والتباهي بالقوة الخارقة ... كل هذا سيغدو في لحظةٍ واحدةٍ هباءً منثوراً !!

فليستنفر أولئك الطواغيت الكبار يوم القيامة كل ما يملكون من قوة ، من جيوش ومخابرات ورجال أمن وجماهير ... من أسلحة ومن قنابل ومدمرات ، ولسوف يرون من المنتصر هناك يوم الحساب العسير.

الله (جلّ في علاه) أم هم ؟ ﴿ ... وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾(سورة البقرة : الآية ١٦٥) ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴿ ١٥ ﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿ ١٦ ﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿ ١٧ ﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿ ١٨ ﴾ (سورة العلق : الآيات ١٥-١٨) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴿ ٦٨ ﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ﴿ ٦٩ ﴾ (سورة مريم : الآيتان ٦٨-٦٩).

يا الله على هذه القدرة المطلقة التي لا يقف أمامها شيء ... أي شيء على الاطلاق ... يا الله على هذه اليد العليا التي ستعرف كيف ترى طواغيت البشرية الذين امتد بهم الضلال إلى ما لم يتخيله الإنسان ، مصيرهم الذي ينتظرهم عما قريب : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... ﴾(سورة الزمر : الآية ٦٧).

فكيف بنا ازاء هذه الحقيقة التي طالما أكدها كتاب الله ، رددها بين الحين والحين ، أعاد القول فيها من زوايا مختلفة منبهاً الناس إلى ألاّ يغتروا بزخرف الحياة الدنيا وزينتها ... وألاّ يلهيهم متاعها الزائل عن الحقائق الكبرى التي تحكم السماوات والأرض ، وتحقق قيم الحق والعدل في الكون ؟

إننا إزاء هذه الثنائية التي تمسك بصيرورة الحياة الدنيا وتسوقها إلى مصائرها ... ثنائية الدنيا والآخرة ، يجب أن نعيد الحساب كمسلمين ، مرةً ومرتين وثلاثاً ، في طبيعة سلوكنا البشري في العالم ، وأن نحسب الحساب الذكي المتبصّر الذي يضع نصب عينيه المعادلة بطرفيها لكي لا يجنح بها الضلال ويسوقها الشيطان إلى ما يريده هو ويتمناه ، لا ما نريده نحن ...

ومرةً أخرى ، وثانيةً وعاشرةً ، يتحتم التأشير على حقيقة أن هذه الثنائية تضع للمنظور الإسلامي للدنيا ألف حساب ... تنزل لها الشرائع ، وترسم لها الصراط ، وتدفعها وتحفزها لأن تحيا حياةً سعيدةً آمنةً مطمئنةً يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ... أن تحمي نفسها ، بما وسعها

الجهد ، من عدوان المعتدين ، وأن تبني الحياة بمشروعها الحضاري الذي وضعت آيات الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) تأسيساته ، وتمضي به قدماً إلى الأمام لكي تنشئ حضارةً قدّر لها أن تسوق العالم لعدة قرون ، وهي قديرةً على أن تنبعث وتتجدد في كل عصرٍ تشمر فيه الأمة عن ساعد الجد ، وتعرف كيف أن مهمتها في الأرض هو البناء والتنمية والعمران ، شرط ألاّ تجعل ذلك هدفاً بحدّ ذاته ، وانما وسيلةً لجعل الحياة بيئة صالحة لعبادة الله (جلّ في علاه) ، ومرةً أخرى ، ليس بالمفهوم الشعائري أو الطقوسي ، وانما بالمفهوم الحضاري ، حيث تصير كل فاعلية ، بما فيها الكشوف والاختراعات والنشاط المختبري الصرف ، عبادةً يتقرب بها الإنسان إلى الله (جلّ في علاه) ...

إنه الرفض الحاسم لمقولة : (الدنيا قنطرةً فاعبروها ولا تعمروها) واستبدالها بمقولة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) !!

إنه التوازن المدهش الذي ترسمه يد الله سبحانه وتعالى ، العليم الخبير ... التوازن بين الفناء والخلود ، بين الانصرام والأبدية ، بين مطالب الحياة الدنيا وضروراتها ونعيم الآخرة ... التوازن الذي لا يميل ولا يجور ، وانما هي الرؤية العادلة التي تضع الأمور في نصابها الحق ، وتسيرها لصالح الإنسان ... سعادة الإنسان وكرامته في الدارين على السواء : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(سورة الإسراء : الآية ٧٠).

إن نقطة الارتكاز المحورية في المنظور الايماني للحياة الدنيا هي الآخرة ، ويجيئ العمل للدنيا تمهيداً لتلك الغاية ... فالثنائيات كافةً في المنظور الإسلامي تتوافق وتتناغم ولا تتقاتل وتصطرع ... فليس ثمة تناقض على الاطلاق بين الطرفين ، ذلك أن بناء الحياة الدنيا وتنميتها وعمرانها ، وفق منظومة القيم التي ترضي الله (جلّ في علاه) ، هي الطريق إلى الآخرة ، وعلى الإنسان أن يكدح ويواصل العمل حتى يدس أنفه في التراب ... ولسوف يلقى نتيجة عمله في الدنيا والآخرة معاً ، حيث لا يظلم الإنسان مثقال حبةٍ من خردل ازاء سعيه الدنيوي هذا ... وإلاّ فهو الضياع في الدنيا والآخرة ، وهو باطل الأباطيل ، وقبض الريح ، وحصاد الهشيم !!

إن آيات القرآن الكريم ، بسبب تدفقها هذا ، بسبب إلحاحها على تلك النقلة المفاجئة من الدنيا إلى الآخرة ... من اللحظة العابرة إلى الخلود ... بسبب تأكيدها المتواصل على ضرورة أن نفتح وعينا وبصائرنا على هذه الحقيقة ... انما توجه خطابها للمؤمنين والكفار على السواء ...

هؤلاء لكي يزدادوا عطاءً وعملاً وإبداعاً ، وأولئك لكي يكفوا عن سكرتهم التي أعمت عيونهم عن رؤية المعادلة والتعامل معها بطرفيها معاً.

فيا أيها الناس ... أيها السكارى ... أيها النائمون ... أيها الغافلون ... أفيقوا ... انتهبوا ... فان يوم القيامة على بعد خطوات منكم : ﴿ ... وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ (سورة الأنبياء : الآية ١٠٩) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾(سورة النازعات : الآية ٤٦) ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴿ ١٠ ﴾ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴿ ١١ ﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴿ ١٢ ﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴿ ١٣ ﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴿ ١٤ ﴾ (سورة النازعات : الآيات ١٠-١٤) ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴿ ١٠٣ ﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴿ ١٠٤ ﴾ (سورة طه : الآيتان ١٠٣-١٠٤).

أيها المتكالبون على المناصب والسلطات ، المتقاتلون على حفنات من الدراهم والدنانير ، ما الذي تبقى من أعماركم سوى سنوات قلائل ... لحظاتٍ من عمر الزمن ... ستلقون بعدها الحساب العسير ...

أيها الملتصقون كالعناكب والذباب والصراصير والفئران على فتات الحياة الدنيا ... تعضون عليها بالنواجذ ، وتدوسون في سبيل الحصول على المزيد منها القيم والأعراف والمقدسات ...

أيها الحكام ... أيها الطواغيت ... أيتها الإلهة المزيفة التي استعبدت شعوبها ، وأعملت في رقابها السكاكين الحادة ، واجاعتها وأفقرتها وشردتها في الأرض ... في سبيل سنواتٍ تافهةٍ مضافةٍ إلى تسلطكم ... سنواتٍ لا تعدو أن تكون دقائق ولحظات في عمر الزمن ، ولكنها حملتكم مسؤولية تقشعر لهولها الأبدان ... ولسوف تلقونَ جزاء ما صنعته أيديكم ... ما ساقتكم إليه شهوتكم للحكم والسلطان ...

أيها الأثرياء ... أصحاب الملايين والمليارات التي اغتصبوها من أفواه الجائعين ... ما الذي ستقدمه لكم أكثر من ثلاث وجبات في اليوم ، وعدداً محدوداً من الملابس والمراكب ... وداراً واحدةً لسكناكم ... ثم ما تلبثوا أن تتركوها لذرياتكم التي تعرف كيف تبعثرها بالإغراق في الملذات والفساد ، فتحملكم المسؤولية مضاعفةً مرتين !!

انتبهوا أيها الأغبياء الذين وضعوا أنفسهم التي كرمها الله سبحانه وتعالى تحت أقدام المغريات التافهة التي لا تساوي شروى نقير إذا ما قورنت بوعد الله (جلّ في علاه) ...

اصبحوا عبيداً لها ، تسخرهم ولا يسخرونها ، تسوقهم إلى ما تريده هي لا ما يريدونه هم ، حتى تجعلهم في نهاية الأمر حطاماً ...

أيها المستعبدون للصغائر والتفاهات ... أفيقوا قبل فوات الأوان ... وإلا والله إنها الصفقة الخاسرة بكل المعايير ...

أيها الغائبون عن حقائق الأشياء ... أفيقوا !

رحلة دينار !!

اعتصرني بيده الخشنة حتى كاد أن يمزّقني ... أن يحوّلني إلى أشلاء وهو يردد مع نفسه: ها قد وقعت في يدي أخيراً ، بعد أن جهدت في العثور عليك ساعات النهار كلّه حتى آذنت الشمس بالمغيب ... أيها المارق لماذا عذبتني طويلاً قبل أن تقع في يدي ؟ ولكن لا بأس فها هو ذا حلمي قد تحقق ، أصبح مراً واقعاً ، أن أقبض على دينار بتمامه وأن أمضي به إلى سوق اللحم والفواكه والخضار ، تلك التي لم تدخل بيتي منذ أكثر من شهر ... وعائلتي وهي تنظر إليّ بلهفةٍ لدى دخولي الدار مساء كل يوم مؤملةً أن أحمل إليها شيئاً ، ولكنها بمجرد أن تراني خالي الوفاض ينتابها حزنٌ عميق ... إنه الجوع أيها السادة ... أيها المتخمون ... الجوع أيها المترفون ، أتعرفون ما الذي يعنيه الجوع ؟ أتدركون معنى أن ينتظر الأطفال عودة أبيهم في المساء وهو يحمل إليهم ما يسد به رمقهم بعد انتظار الساعات الطوال فلا يعثرون على شيء وينامون مرغمين على بطون خاوية ... ولكن لا بأس فها أنا ذا قد ألقيت القبض عليك أخيراً بعد كدح الساعات الطوال وأنا أتجول في الأزقة والأحياء منادياً على بضاعتي البائسة من الخيار قبل أن يدلف إلى الشيخوخة والذبول فلا تمتد إليه يدُ أحدٍ من الناس ... أحد على الاطلاق ... وها هو أخيراً يجيئ من يشتري مني كماً كبيراً وينقدني ديناراً بتمامه ... فلما مددت إليه يدي لكي أعيد إليه بقية ديناره ذاك مضى لا يلوي على شيء وأنا أدعو الله أن يرزقه ، وأن يحيطه بعنايته ، وأن يحميه من كل أذى أو سوء !!

دينار بكامله ؟ يا الله على هذه المنحة التي هبطت علي من السماء ، فلأمض لكي أعبئ الأكياس بما سأشتريه لأسرتي التي ملّت الانتظار ... ملّت الجوع الذي اعتصرها طويلاً ... ملّت عودتي بوجهي الكئيب وملامحي الخائبة التي كانت تقولهم أثر كل عودة ... لا شيء ... لا شيء أيها الأولاد ... لم أبع من بضاعتي شيئاً على الاطلاق !!

وها أنا ذا اعود إليهم وقد أنفقت الدينار كله ... محملاً بكميات طيبة من اللحم والفواكه والخضار ، فإذا بزوجتي تستقبلني وعيناها تفيضان بالدموع ، وأنا أقول في نفسي : انها دموع الفرح فلا بأس ... وإذا بالأولاد يتقافزون بين يدي وهم يتصايحون : لسوف نعرف كيف نملأ أجوافنا هذا المساء بما لذ وطاب ، ولسوف نستلقي على جنوبنا من شدة الشبع اللذيذ فلا تؤرقنا اشباح الجوع الذي لا يرحم !!

فأين ذهب الدينار الذي لم يبق منه درهم واحد في جيبي ؟!

لعلّه مارس رحيله اليومي هو الآخر ... من يد لأخرى ، حتى استقر أخيراً في خزائن تاجر كبير ذي ثراءٍ فاحش سهر على جمعه بالحلال والحرام ... فلساً فلساً ودرهماً درهماً ودينارا ديناراً ... ها أنا ذا أسقط في يده المترعة باللهفة والشوق للقبض على دينار أكثر ينمّي به خزائنه المشبعة ... نظر إلي بقدر كبير من الامتنان ، وراح يسوي نتوآتي برفق وهو يقول في نفسه : لقد وقعت في يد من يعرف كيف يقدرك حق قدرك ، فيريحك من عناء التجوال أيها الغالي ، ويعرف كيف يدخرك في خزائنه المحكمة فلا تمتد إليك يد ولا يسوقك إلى الكدح اليومي بائع جوال.

وضعني وهو يمسد علي بحنان كما لو أنه اكتشف كنزاً ثميناً ، مع رفاقي من أكداس الدنانير التي تملأ خزائنه ، وأقفل علي الباب ... وللحظة أحسست بأني أكاد اختنق وأتمنى لو أن لي جناحان أطير بهما إلى الفضاء الواسع ... إلى سماء الله الكبيرة ، وأتنفس الهواء الطلق ... أن أتعب من ممارسة التجوال ... لا يهم ... أن ينالني الارهاق من كثرة التقلب في الأسواق ... لا يهم ... أن أتعرض للتلف والتمزق ... لا يهم ... فالذي يهمني هو شيء واحد ، أن أتحرر من هذا السجن الضيّق الذي وضعني فيه ذلك التاجر الجشع الذي لا يعرف كيف يفرق بين دينار ودينار !

ثم ما لبثت يوماً وأنا أصيخ سمعي لما يدور من أحاديث خارج معتقلي ، فإذا بصاحبي يعقد صفقةً كبرى مع أحد التجار ، وإذا به يفتح بوابة الخزانة فيخرج منها عدة حزم من النقود فيسلّمها للمشتري ثم يعود إلى إقفال الخزانة من جديد !

تملكتني فرحةً طاغيةً وأنا أجدني محشوراً في رزمة من النقود التي أخرجت من الخزانة وقلت في نفسي : ها قد جاء الخلاص ... ولكن في يد من ستكون هذه المرة ؟!

فجأةً وجدتني محشوراً في صفقة أخرى أسفرت عن تسليمي ورفاقي ليد رجل لم أعرف من هو ، وما هي طبيعة عمله ، فرحت أتلصّص عليه واسترق السمع لعلي أرى ما ستخبئه لي الأقدار فإذا به يدفع بي وبمجموعة كبيرة من رفاقي إلى ما يسمونه إدارة المخابرات ... تسلمتني يدٌ خشنةً وراحت تفركني بقسوةٍ بالغةٍ ، ثم ما لبثت أن ألقت بي في أحد المجرات مع مجموعة من زملائي ... انتهزتها فرصةً لاسترق السمع إلى ما يدور في إدارة السوء تلك ، فما لبث أن تبيّن لي حجم الويل الذي تنذر به أحاديث رجال يروحون ويجيئون وهم يتحدثون إلى الضابط الكبير الذي يتصدر الصالة إياها ... كانت أحاديثهم تنصب على أحد المتهمين الذين رفضوا الاعتراف بما أرادوه منه ، وكيف أنهم مارسوا معه من فنون التعذيب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !! وهو مصر على الصمت ، رغم أن جسده المثخن بالجراح

كان يئن من الأوجاع التي تعجز الكلمات عن وصف شناعتها ... لا حول ولا قوة إلاّ بالله ... رحت أردد مع نفسي وأنا أتساءل كيف سينتهي الأمر بهذا الرجل الذي تحمل من الآلام ما تتفتت له الأكباد ... وقبل أن أتلقى شيئاً عن مصير الرجل الذي خمنت أنه قد قضى بين أيديهم وأرجلهم وهم يصرخون فيه أن يعترف ، امتدت يد الضابط الكبير إلى المجر الذي اعتقلت فيه مع رفاقي ، وصاح بأحد المأمورين أن يخرج بنا إلى البقالة المجاورة لكي يشتري علبة سكائر وشيئاً من البسكويت يشبع به جوعه ... تنفست الصعداء وأنا أرى نفسي أغادر هذه الصالة التي كتب عليها أن تتلقى أمواجاً بشعةً من ظلم الإنسان للإنسان ، وانطلق إلى الفضاء الواسع ذي الهواء النقي الذي ارتشفته بقوة لكي أغسل ما علق برئتي من سخام التحقيق الأسود ومصائبه ...

تسلّمني البقال وعدد من القطع النقدية الأخرى ، بعد أن استعاد عدّها لكي يتأكد من دقة الحساب ، دقائق وإذا به يعود لكي يمد يده إلى أسفل المائدة التي وضع عليها صنوفاً من السكاكر والبسكويتات وعلب السيكائر ، ويدفع بي وبمجموعة من رفاقي إلى يد رجل لا أدري ما الذي دفعه إلى المجيئ لذلك الدكان ، ثم تبين لي أنه سلم صاحبه مجموعة كبيرة من علب السكائر وتسلّم في المقابل ما يعادلها من نقود.

انطلق البائع بي عبر شبكة من الشوارع والأحياء ... كانت السعادة تغمر روحه ، وهو يمسد بيده الخشنة على الرزمة النقدية التي تلقاها من زميله ومضى لا يلوي على شيء ... ثم ، فجأةً ، إذا به يتوقف لحظات عند بوابة حانة لشرب الخمور ، يعاين لافتتها ويتردد قليلاً ، ثم ما يلبث أن يحزم أمره ويدخل ... وبعد أن آجال عينيه في زوايا المكان ذي الإضاءة القليلة اختار مكاناً في زاوية الحانة وصفق بيديه منادياً على النادل ، فإذا بهذا يهرع إليه ويتلقى طلباً بقنينة من الخمر الزحلاوي الذي يعرف كيف يهرس الأمعاء قبل ان يقدّم مفعوله في التحليق في سماوات الأحلام ... راح صاحبي ذاك يرتشف القنينة بشغف وهو يلوي فمه من قسوتها ، لكنه ما لبث أن غاب عن الوجود وراح يهذي بكلام متقطع لا يربط بين فقراته أيما رباط على الاطلاق ... ثم إذا به يخرج (.....) ويتبول حيث كان يجلس دون أن يحاسبه أحد على فعلته تلك ... أحسست بالاختناق نفسه الذي أمسك بخناقي في صالة التحقيق التي غادرتها قبل ساعات ، وأنا أقول في نفسي : إن الويل الذي يتلقاه الإنسان في هذه الحياة ليس لوناً واحداً ولا طعماً واحداً وانما هو ألوان وطعوم شتى ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

ما لبث السكير أن غادر المكان بعد أن دفع الحساب لصاحب الحانة ، ولكني لا ادري لماذا لم أكن من بين ما دفع إليه من نقود ، وظللت في جيب السكير الذي مرق بي عبر شبكة من الأحياء وهو يتوقف بين حينٍ وآخر لكي يفرغ ما في جوفه من آثار الخمر ...

أخرجت نفسي قليلاً من جيبه لكي أطالع وجهه المحمر من كثرة ما مارسه من تقيؤ فانتابني التقزز والغثيان ... ما هذا الذي يمارسه الإنسان مع نفسه ؟ وكيف يتحول إلى ما يشبه الحيوان الذي لا يفرق بين ما يتقبله الناس وما يرفضونه ويحتقرونه ؟ ولكن لا بأس فلابدّ أن يداً ما ستخرجني من محنتي هذه مع هذا السافل المترع بالقذارة ... تنتشلني من جيبه الذي اختلطت فيه النقود بالأوساخ ...

وما لبث الخلاص أن جاءني ، فوجدتني في صبيحة اليوم التالي أغادر هذا العفن إلى التحرر والانعتاق حيث تسلمتني يد رجل ذي لحية بيضاء تشع وضاءةً وطهراً ، وراح يمسد علي كي يسوّي نتوءاتي التي سببها اعتقالي في جيب ذلك الزنديق ، ويضعني جنباً إلى جنب مع رزمة من الدنانير ثم يلقي بنا في محفظته ويمضي لا يلوي على شيء ...

تساءلت بيني وبين نفسي : إلى أين سيذهب بنا هذا الرجل ؟ وهل سيكون مصيري ومصير زملائي أن تتلقفنا أيدي السوء التي لا ترعى فينا إنسانية ولا ضميرا ؟ أم أنه سيحافظ على كرامتنا فلا يسمح بأن تمتهن أو تداس بالأقدام ؟

طالت مسيرة الرجل وهو يتنقل بنا من شارع إلى شارع ومن حارةٍ لأخرى ... وإذا به يتوقف فجأةً أمام بناية عريضة فارهة ... سرحت رأسي من جيبه لأقرأ على لافتتها الكبيرة عبارة : (دار الأيتام) ... يدلف الرجل إلى الغرفة المجاورة للباب ويدخل في حوارٍ سريع مع موظف يجلس خلف مكتبه ، فما يلبث هذا أن ينهض قائماً وهو يبش في وجه القادم ويمد إليه يده مصافحاً ويتسلم منه رزمةً من المال كنت أنا من بين أفرادها ، ثم ما يلبث أن يغادر المكان !

يا الله ، قلت في نفسي على هذا التحول من التعاسة والبؤس إلى الأيدي المتوضئة التي تعرف كيف تضعني وزملائي في المكان المناسب ، فها أنا ذا أساهم ، بقدر طاقتي ، في تقديم خدمتي المتواضعة لمجموعة من الأيتام الذين أرغمتهم الظروف على خسارة آبائهم وأمهاتهم ، فغدوا على حين غفلة بلا عائل أو معين ... فالحمد لله ...

تناولتني يد أحدهم الذي راح يحدّق في والفرحة الطاغية تغمر وجهه ، ثم ما لبث أن قرّبني من فمه وراح يطبع علي جملة من القبلات ثم يطويني ويضعني في جيبه ... وتساءلت ... يا ترى ماذا ينوي أن يفعله بي ، لكنه ما لبث أن أعطاني الجواب ... لقد غادر بناية الميتم إلى أقرب مطعم لتناول وجبةً طالما اشتهاها ، وحدثته بها نفسه حيث لم يكن بمقدوره أن يمدّ يده إليها ... وها هو ذا يلتهمها التهاماً ويتقدم بي إلى صاحب المطعم دون أن ينتظر ردّ بقية المبلغ إليه ... لقد أشبع جوعه المزمن إلى اللقمة الطيبة ... وهذا يكفي.

وضعتني يد صاحب المطعم في مجره فوق أكداس من الدنانير ، فقلت في نفسي : ترى ما الذي سيخبئه لي الغد ؟ وعلى يد من سأكون ؟ وهل ستسوقني الأقدار إلى البؤر المعتمة المترعة بظلم الإنسان للإنسان ، وظلمه لنفسه ، وإلى الحانات القذرة التي يهرب إليها الناس من بؤسهم وتعاستهم إلى ما هو أشد بؤساً واكثر تعاسةً ، أم إلى الأيدي الحانية التي تعرف كيف تسوقني إلى ما يرضي الله (سبحانه وتعالى) والإنسان ؟

لسوف يطلع علي نهار الغد وسوف نرى ما سيكون !!

رسالة إلى النائمين

أيها النائمون في هذه الدنيا أفيقوا

أيها التائهون عن الحقيقة الكبرى ... انتبهوا

أيها الذاهبون بعيداً وراء المناصب والدراهم والدنانير ... استيقظوا

أيها الغافلون عما ينتظرهم من حسابٍ عسير ... افتحوا أعينكم جيداً

أيها السادرون وراء الملذات التافهة ... الراكضون خلف الشهوات الحقيرة ... أصيخوا غلى صوت النذير ...

أيها العميان ... أيها الطرشان ... أيها المصابون بعمى الألوان ، افتحوا أعينكم وآذانكم جيد لصوت النذير ...

أيها الحكام ... أيها الطواغيت ... أيها القتلة ... أيها السفلة ... ما الذي تبقى من اعمار كل واحد منكم ؟!

عشرون أو ثلاثون أو حتى أربعون عاماً وستدس أنوفكم بعدها في نار جهنم ورمادها ...

أيها المفتونون بالسلطة ، يريدون لعشقهم لها أن يورّثوها لأبنائهم ... وأحفادهم ، ثم ما يلبث الأبناء والأحفاد أن يضيّعوها ويضيعوا معها من اغتصبه آباؤهم من مال ، في كل ما يخطر وما لا يخطر على البال من سفالات ...

أيها المغرمون بتكديس الثروات بالحلال والحرام ، ما الذي تعنيه لكم سوى أنها رزم من الأوراق المحشورة في الخزائن والمجرات ... تتركونها وتدلفون إلى القبور غير آخذين معكم سوى الأكفان !

أيها التافهون من المحققين والجلادين الذين تحوّلوا إلى أظفار حادة بيد سادتهم يغرسونها في أجساد المظلومين ...

ما الذي ستحصدونه من سيّال العذاب والدماء التي سفكتموها ، والسياط التي لسعتم بها ظهور المضطهدين ، سوى أن تركتم أقدام الطواغيت التي وضعتم أنفسكم تحتها تهرس رؤوسكم؟

أيها الغارقون في شهوة الهروب من متاعب الدنيا ، بالخمر والحشيش والأفيون وكل صنوف المغيبات ، لسوف تستفيقون بعد دقائق أو ساعات على جبال الهموم والاكتئاب ثم تحاسبون على ما فعلتموه بأنفسكم ...

أيها المنتحرون الذين تجرؤا على خلق الله فقتلوا أنفسهم ، لسوف يعاقبكم الله سبحانه وتعالى بأن يجعلكم بعد مماتكم تمارسون الانتحار دقيقةً بدقيقة وساعةً بساعة إلى أبد الآبدين ...

أيها المخدوعون بزخرف الحياة الدنيا وزينتها ، لسوف تجدون أنفسكم بعد فترة لن تدوم طويلاً وقد غدوتم حطاماً ...

أيها الأغبياء الذين لم يملكوا أي قدر من الذكاء يجعلهم يميزون بين ما هو أسود وما هو أبيض ، فيساقون ، دونما إرادةً منهم صوب وديان العذاب السحيقة في الدنيا والآخرة ، لأنهم لم يعملوا عقولهم التي وهبهم الله (سبحانه وتعالى) إياها ...

أيها المسوسون الذين فقدوا القدرة على التمييز بين الخير والشر واندفعوا ينهبون ويسرقون ويقتلون دونما حساب لما يمكن أن يتلقوه نتيجة جنونهم هذا ...

أيها الناس انتهبوا ... فان حياتكم الدنيا لا تعدو أن تكون دقائق معدودات ... يوماً واحداً ... عشرة أيام ... ثم تغادرونها إلى القبور حيث يبدأ الحساب العسير ...

انتهبوا ... وأنتم تشيعون هذا الميت أو ذاك ، إلى انكم ستلحقون به بعد دقائق أو ساعات ... فعلام هذا كله ؟ علام التشبث بالسلطة ، والمال ، والانتفاخ والكبرياء ، وهي كلها لا تعدو هباءً من عمر الزمن ؟!

أيها العميان ... أيها الطرشان ... أيها الذين أقفلوا على عقولهم وأفئدتهم الأبواب ... الم تحاولوا يوماً أن تستعيدوا شيئاً من قدرتكم على السمع والإبصار ؟ من خفقان افئدتكم ونبض عقولكم لكي تروا بأم أعينكم أنكم ازاء معجزة الخلق ، وقدرة الخالق المطلقة التي إذا أرادت شيئاً فانما تقول له كن فيكون ! وإبداعه الموصول الذي يفجر في اللحظة الواحدة ألف لون ... ألف صيغة ... ألف إنجاز مما يغطي بانوراما الحياة ، فيزيدها غنىً وتنويعاً وإبداعاً وإحكاماً : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(سورة لقمان : الآية ٢٧) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾(سورة الكهف : الآية ١٠٩).

ألم تحاولوا أن تستعيدوا شيئاً من عقولكم وأفئدتكم ، شيئاً من سمعكم وأبصاركم لكي تجدوا أنفسكم وجهاً لوجهٍ أمام قدرة الله (جلّ في علاه) التي ما لها من حدود ؟

انظروا على معجزة الأمطار التي تنبني حلقاتها الثمانية بعضها على بعض ، حيث ينتفي منطوق الصدفة ، أو سخافة القول بأن الطبيعة تسيّر نفسها ... أو تفاهة الاعتقاد بالمتغيرات النوعية التي تترتب على المتغيرات الكمية ... فها نحن الآن أمام استحالة رياضية وفيزيائية لدور الصدفة ، في تحقيق هذا التوافق عبر مراحله الثمانية : الخزين الاستراتيجي الهائل من الماء في خمسة أسداس الكرة الأرضية ، وشكمه عن الطغيان على اليابسة وإغراقها ... وتمليحه لكي لا

يتعرض للفساد الذي يدمر الحياة ، وتسليط قدر مناسب من الحرارة القادمة من الفرن الذّري : الشمس ، عليه كي يتبخر ويفك ارتباطه بملوحته ويصعد إلى السماء ... ثم تشغيل دشالي الرياح لتحريك السحب المتشكلة في سماء المحيطات إلى أنحاء العالم : من موسمية إلى تجارية إلى عكسية .... ثم تلقيح السالب بالموجب لإعادة الحالة المائية إلى البخار وجعله يتساقط على الأرض ... ثم توزيع هذا الكم الهائل النازل من السماء ، كي لا يذهب هدراً إلى ثلاثة أقسام : أحدها يذهب لتغذية الأنهار التي شقتها إرادة الله (سبحانه وتعالى) بكل اتجاه : شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ... وثانيها يذهب إلى باطن الأرض ... إلى المخازن الجوفية التي غلفتها الإرادة الإلهية بثلاثة أسيجة محكمة لا تنفذ منها قطرة من ماء ... وثالثها بتعرضه للتجميد في اعالي الجبال لكي ما يلبث في مواسم الصيهود أن يمارس دوره في تغذية الجداول والأنهار ... وإلى تقديم عروضه الجمالية المدهشة عبر الشلالات التي لا ينفد تدفقها !

فأية صدفة هذه التي قامت على التسلسل المحكم الذي أريد منه ايصال القطرة العذبة إلى أفواه الزرع والضرع والإنسان ؟ وماذا لو بعدت الشمس قليلاً عن موقعها من الأرض ، ألاّ يقود ذلك إلى تجمّد الحياة في دقائق ولحظات ؟ وماذا لو اقتربت قليلاً ... ألاّ يؤدي ذلك إلى احتراق العالم ؟ من الذي وضعها في المكان المناسب تماماً ؟ ثم من الذي جعلها تمارس دورها في تقديم هذه الوجبات السخية من الطعام للإنسان والحيوان ؟ عن طريق ضوئها الذي يتعامل مع ثاني أوكسيد الكاربون وخضرة النبات فيمكنها من التكاثر وإنتاج الفواكه والأثمار ؟

ألم تنتبهوا أيها النائمون الذين أغفوا على اقفال عقولهم وأبصارهم عن رؤية معجزة الخلق التي هذه احداها فحسب ؟ ثم ماذا عن معجزة العين ذات الآلاف من الحجيرات التي تتعامل مع فيزياء الضوء فتعدل الصورة المقلوبة ، وتمنح الإنسان القدرة على التمييز بين الأشياء والألوان والموجودات ؟ ومع معجزة العين ، التي قال عنها دارون ، زعيم ما يسمى بالإلحاد العلمي ، في إحدى لحظات صحوته من نومه العميق عن حقائق الخلق : كلما فكرت في تركيب العين البشرية هزتني قشعريرة ، أنا لا أعتقد بعدم وجود إله قدير يصنع هذا كله !

وماذا عن معجزة السمع بصناديقها الثلاثة المحكمة ؟ واللسان بقدرته المدهشة على التذوق والنطق الذي به يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى ؟ وماذا عن معجزة السوائل المالحة لتعقيم العين ، والمرة لمنع الأذن من استقبال المواد المؤذية ؟ والعذبة لترطيب اللسان والفم ؟ ماذا لو انعكست الآية فأصبح العذب مراً ، وأصبح المر مالحاً ؟ من الذي أحكم هذه الصنعة المدهشة في خلق الإنسان ؟ أهي الصدفة التي صنعت هذا كله ؟ أم هي الطبيعة العمياء التي لا تبصر ولا ترى ؟!

وماذا عن تخلّق الجنين في رحم أمه ؟ ماذا عن الهندسة الإلهية المعجزة لوظائف الإنسان: الهضمية والتنفسية والعصبية ؟ ماذا عن طبيعة عمل العقل والفؤاد في قيادة حركة الإنسان وضبطها وتوجيهها ؟ ماذا عن إخراج الحليب الصافي العذب من بين فرثٍ ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ؟ ماذا عن خلق هذا الجمال المدهش الذي لا حدود له في دنيا النبات والحيوان والطبيعة ؟ ماذا عن الزهور ذات الروائح والألوان ؟ والحدائق ذات البهجة ؟ أهي الصدفة التي صنعت هذا كله ؟ أم الطبيعة العمياء ؟ أم تحكم الكميات بالنوعيات حسبما تقول به النظرية الديالكتيكية البائدة ؟

أجيبوني أيها الكسالى والنائمون ، أيها الغائبون عما يحيط بهم من معجزات الخلق ؟ أيها الملاحدة والفجرة والكفار ؟

ثم ماذا عن الوزن المدهش المحسوب للجاذبية التي لو ازدادت قليلاً لتباطأت حركة الإنسان واقتضت منه زمناً متطاولاً وهو يتنقل بالسلو موشن من مكان إلى مكان ؟ ماذا لو خفّت قليلاً فاستحال على الناس أن يثبتوا أقدامهم على الأرض ؟ ماذا عن الكتل الهائلة من الجبال والتي وزعت بشكل عادل على قارات الدنيا ألست لكي تمسك الكرة الأرضية من التأرجح الذي تستحيل معه الحركة والحياة ؟

ماذا عن منظر الشفق في أطراف السماء ، والقمر إذا اتسّق بعد رحلته الشهرية ؟ والغيوم المتراكمة عند حافات الأفق بألوانها الزرقاء والأرجوانية والرمادية والبرتقالية والسوداء ، من الذي وهب العالم هذا القدر الهائل من الجمال ؟ من الذي نوّع في خلق الحيوانات أسماكاً وحيتاناً وبرمائيات وحشرات ولبائن ؟ و ... و ... بألوانها المدهشة ، وحركاتها البديعة ، ودورها المرسوم في تحقيق التوازن المطلوب من أجل استمرارية الحياة ؟

من الذي صنع هذا كله سوى قدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة التي ما لها من حدود ... إرادته التي لا راد لها ... كلماته التي لا نفاد لها ... قوله للأشياء : كوني فتكون ؟!

أين الصدفة أيها الأنعام ؟ أم الطبيعة العجماء التي لا تفقه ما تعمل ... أم المتغيرات النوعية التي تترتب على التراكمات الكمية حسبما تقول به أسطورة المادية الديالكتيكية التي عفا عليها الزمن ؟

وأنتن أيتها النساء اللواتي اخترت أن يدخلهن نفق الغيبوبة عن الحقائق ... دهاليز الدجنة والظلام ، فرفضن الالتزام بالتعاليم الإلهية التي ارادت منهن أن يتغطين ، وإلاّ يعرضن لحومهن للرائحين والغادين بثمنٍ يخس ... أن يتحولن إلى أدوات رخيصة للربح والإعلان ... أن يصبحن مكباً لنفايات الرجال ... أيتها النساء اللواتي امسك الشيطان بقرونهن وساقهن إلى حيث يريد هو

لا ما يردن هن ... ما الذي ستحصلن عليه من تبرجكن ؟ من عريكن ؟ من كشف أثديتكن وأفخاذكن ... وإلى أن تصبحن أدوات ... مجرد أدوات لتفريغ شهوات الرجال ، ومهما طال بكن المطاف ، فان مصيركن بعد لحظات من عمر الزمن هو الشيخوخة وغياب الجمال ، وتحولكن إلى البشاعة التي ينفر منها أقرب المقربين إليها ؟!

ودائماً كنت أقول لطالباتي في الجامعة : انكن تمارسن أكثر من خسارة وأنتن تمارسن هذا العشق للتهتك ، وربما للفجور ... خسارة الوقت ... وخسارة النقود على مواد التجميل ... وخسارة النضارة التي منحكن الله سبحانه وتعالى إياها ... ثم ... وهذا هو الأهم ... خسارة أولئك الباحثين عن الزوجات الصالحات ... فان الإنسان ، حتى لو كان فاسقاً ، يفضل وهو يبحث عن شريكة حياته تلك التي يطمئن على تحصنّها من اختراق الغرباء ، وسلامة الذرية من أية شبهة قد تحيق بأولئك الذين اندفعوا للزواج بالمتبرجات ...

ثم أنكن وأنتن ترششن حفنات من العطور على وجوهكن وأجسادكن لكي يتلذذ بها المحرومون ، ستحرمون من رائحة الجنة ... ستبعدون أنفسكن عنها لمسافة سبعين ألف خريف ... وتلك هي الخسارة الكبرى ...

أيها النائمون ... أيها الغافلون ... أيها العميان ... أيها الطرشان ... من الرجال والنساء ... استفيقوا قبل فوات الأوان ... انها فرصتكم الأخيرة في حياتكم الدنيا ، ولن تكون بعدها توبة أو غفران ...

٣ + ٣ = ٦ وأنتم أيها السكارى والنائمون تختزلون الرقم الصحيح فتقولون حيناً سبعة وحيناً خمسة ، فتقعون في الخطأ ... أتدرون لماذا ؟ والجواب انكم قد أقفلتم على عقولكم الأبواب فأصبحتم كالأنعام ... بل أضل من الأنعام !

أيها النائمون ... أيها الغافلون ... أيها العميان ... أيها الطرشان ... رجالاً ونساءً ... استفيقوا قبل فوات الأوان ... تلك هي صيحة الرسل والأنبياء والمصلحين على مدار التاريخ ، وذلك ما أكد عليه كتاب الله وأعاد القول فيه المرة تلو المرة ، لعلكم تفيقوا قبل فوات الأوان وضياع فرصة التوبة والغفران : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً ﴾(سورة النساء : الآية ٢٧).

وصدق الله العظيم ...

شكوى إلى الله ... !

يا الله ... يا الله ... يا الله !
أيها القادر على كل شيء بكلمة (كن فيكون)
يا حي يا قيوم يا من لا تأخذه سنةٌ ولا نوم
يا مالك السماوات والأرض
يا مسيّر المراكب في البحار
ومفجّر الضوء من الشمس
وباعث النور من القمر
ومفجر الأرض اليابسة بالخضرة والجمال
يا خالق الورد والفلّ والياسمين
وملوّن الأسماك في البحار بألف لون ولون
يا مخرج الإنسان من ظلمات الأرحام
وواهب السمع والبصر والفؤاد
يا مرسي الجبال في الأرض
وباعث الحياة من قلب التربة الصمّاء
يا منزل الأمطار
ومفجر العيون
ومجري الأنهار
يا خالق الليل والنهار
والذكر والأنثى
ومسيّر المجرات الكبرى في الكون
والذرات التي لا ترى في مسالكها المخفية عن الأنظار
يا مداول الأيام بين الناس
وداسّ أنوف الطواغيت والأرباب في التراب
أيها الحاكم الذي لا رادّ لكلماته
ولا حدّ لخلقه وإبداعه
ولا نهاية لتصاريفه في الكون والحياة

يا الله ... يا الله ... يا الله !

أيها القادر على كل شيء بكلمة (كن فيكون)

جئت اشتكي إليك

يا من لا ملجأ منه إلاّ إليه

جئت وقد انكسر ظهري ، وشاب شعري

وتآكلت صحتي وعافيتي

مما تعانيه أمتك عبر الزمن الراهن من مصائب وهزائم وويلات

من سوء تصرّف الكثرة الساحقة من أبنائها

من ضلال العديد من قياداتها

إنهم لم يعودوا يقرأون كتابك العظيم بعيون مفتوحة

وبصائر تعرف كيف تغوص في دلالاته ومعانيه ومقاصده

بعضهم أصيب بالإحباط وترك العمل لدعوتك ودينك

مرفوعاً بردّ فعل خاطئ لما فعلته ما يسمى (بالدولة الإسلامية) !

بعضهم الآخر تشبث بفكرة المؤامرة في كل صغيرةٍ وكبيرةٍ

وبعضهم الآخر تركها جملةً وتفصيلاً

آخرون بالردّ الخاطئ نفسه ألغى فكرة الجهاد

وأنكر مفاهيم الدولة الإسلامية

أحدهم عكف على إنجاز دراسة للماجستير يؤكد فيها عدم وجود شيء في شريعتنا اسمه الدولة الإسلامية !

فأين نذهب إذن بدولة الإسلام في المدينة التي سهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه الكرام على تأسيسها وحمايتها ؟

وأين نذهب بمحاولة الخليفة عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكي؟

دعاة كبار أخذوا يلقون المحاضرات لتبرير ظاهرة الجهاد الإسلامي

وحصره فقط بالدفاع عن الذات !

انهم يريدون أن يصنعوا إسلاماً أمريكياً منزوع الأظافر لا يعرف حتى كيف يدافع عن نفسه !

فئة ثالثة تخلت عن دينها وانتمت للضالين والفجّار

أشكو إليك تكالب العالم من أقصاه إلى أقصاه على أمتنا

وتآمر قوى الاستكبار علينا وتمزيقنا إلى طائفتين متحاربتين تسعى إحداهما للانقضاض على الأخرى وإخفائها !

لقد حوّلونا – كما تنبأ رسولك العظيم – غلى قصعةً يولم عليها المولمون من مشارق الأرض ومغاربها

إنهم يتهموننا بالإرهاب الذي أخذ يطال كل من يقول لا لتفرد الرجل الغربي بحكم العالم ..

واستنزاف خيراته ... وتفكيك دوله ... وسوق شعوبه كالأنعام

ويتناسون ما تفعله بورما بمسلميها ... وما تفعله الصين ...

يتناسون ما فعلته أمريكا في فيتنام وأفغانستان والعراق وفلسطين

وما يفعله حكامنا الذين أصبحوا أدوات مكشوفةً بيد الخصوم

لذبح طلائع الأمة من الوريد إلى الوريد

كل من يقول لا لإسرائيل

وكل من يعترض على التطبيع مع أعداء الله والإنسان

أشكو إليك المبضع الشرس الذي مزق أمتنا إلى طوائف متناحرة

يقتل بعضها بعضاً

ويفترس بعضها البعض الآخر

أما ما فعلوه في تغيير ثوابت عقيدتنا وشريعتنا وتحويلها إلى خرافات وأساطير

فان الحديث يطول

يا الله ... يا الله ... يا الله ...

أيها القادر على كل شيء بكلمة كن فيكون

دلّنا على الطريق

أخرجنا من هذه الورطة الكبرى التي تتخبط فيها أمتك

كالأسماك في المستنقعات التي جفّ ماؤها

ألست أنت جلّ جلالك القائل : ﴿ . . . وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ؟ . . . ﴾.

ألست جلّ جلالك القائل : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ؟

لم نلتفت لخطابك هذا في كتابك العظيم

فضعنا في هذا العالم

وأصبحنا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية
بينما طريق الخلاص واضح بيّن ...
ولكننا اخترنا أن نضع على أبصارنا وبصائرنا شمعاً أحمر لكي لا تراه
إنه العودة للالتحام بالخطاب القرآني
وإدراك سنن الله (جلّ في علاه) العاملة في التاريخ
والتعامل الواعي مع مطالب اللحظة التاريخية
واستجاشة قدراتنا التي منحنا الله إياها في وتائرها العليا
العقل في أقصى حدود الاحتمال
والعمل بروح الفريق
فان الذئاب لا تأكل من الغنم إلا الشياه القاصية
هذه المبادئ التي تخلينا عنها ...
فكان هذا الذي كان
من هذه السياط الكاوية التي تلسع ظهورنا يوماً بعد يوم ودقيقةً بعد أخرى
من عودة زمن الرقيق الذي يتحول فيه المهزومون إلى قطع شطرنج يتلهى بها الأقوياء ...
من إمساك اليد الغربية بنا من أعناقنا وسوقنا إلى ما تريدها هي لا ما نريده نحن
من تسلّط الطائفية على مقدراتنا ومصائرنا
من تحوّلنا إلى قطيع من الأغنام يسوقها الجزار إلى المذبحة !
وهذا الذي يحدث انما يحدث بسبب مما صنعته أيدينا
ولقد نبهتنا يا رب السماوات والأرض إلى هذا الذي يحدث
بقولك في كتابك العظيم : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ... ﴾ .

وقولك : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ... ﴾ .

ووجهتنا إلى المفتاح لكي نمسك به جيداً فبه وحده طريق الخلاص :
﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ .
فما لم نقم بمداخلة جراحية كبرى لاستئصال جذور التبرير والهزيمة والهوان في أنفسنا ...

ما لم نقف في مواجهة طواغيت العالم بكلمة (لا) وبأعلى صوت
فلم يكون لنا مكان على خرائط الدنيا
ولسوف نظل نعاني من المذلة والهوان العقود وربما القرون الطوال ...
متناسين ثمة شبكة من الآيات القرآنية التي تعد الأمة الإسلامية بالانتصار
وتؤكد أن المستقبل لن يكون إلا لهذا الدين !

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

﴿ . . . لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

﴿ . . . وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ؟ . . . ﴾ .

﴿ . . . وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ! !

وها هي الخبرة التاريخية تعلمنا بما لا يقبل مجالاً للمماحكة والشك ...
انه ما من دولة أو امبراطورية أو حضارة أو مبدأ شمولي
قدّر لها الاستمرار على مدار التاريخ
وأننا إذا كنا قد وضعنا رؤوسنا تحت أقدام الآخر بما صنعته أيدينا
فسيدور التاريخ دورته ويضع أقدامنا على رؤوس الآخرين
وان الذي يحكم العالم هو الله (جلّ في علاه) ...
وليس هذا الطاغوت أو ذاك ...
أبداً ... ليس هذا الطاغوت أو ذاك !!

قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل وفق تصنيفها الموضوعي

أولاً : الأعمال التاريخية :

أ – محور المنهج والفلسفة :

١- التفسير الإسلامي للتاريخ (٦ طبعات) (دار السلام – القاهرة).
٢- حول إعادة كتابة التاريخ الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣- ابن خلدون إسلامياً (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤- في التاريخ الإسلامي : فصول في المنهج والتحليل (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٥- المستشرقون والسيرة النبوية : بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر (مونتغمري وات) (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٦- دليل التاريخ والحضارة في الأحاديث النبوية الشريفة (بالاشتراك مع المهندس حسن الرزو) (طبعة واحدة) (دار الرازي – عمان).
٧- المنظور التاريخي في فكر سيّد قطب (طبعتان) (دار القلم – بيروت).
٨- التاريخ والسنن التاريخية في كتابات النورسي (طبعة واحدة) (دار المأمون – عمان).
٩- مدخل إلى التاريخ الإسلامي (التأصيل الإسلامي للتاريخ) (خمس طبعات) (مفكرون للنشر – القاهرة).
١٠- في المشروع الحضاري الإسلامي (مدخل إلى الحضارة الإسلامية) (خمس طبعات) (مفكرون للنشر – القاهرة).

ب – محور : السيرة والتراجم :

١١- دراسة في السيرة (١٨ طبعة) (دار النفائس – بيروت).
١٢- كتابات معاصرة في السيرة النبوية (طبعة واحدة) (دار النفائس – عمان).
١٣- ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
١٤- عماد الدين زنكي (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

١٥- نور الدين محمود : الرجل وتجربته الإسلامية (٣ طبعات) (دار السلام – القاهرة).

جـ – <u>محور : البحوث والدراسات :</u>

١٦- دراسات تاريخية (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

١٧- المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي : عصر ولاة السلاجقة في الموصل (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

١٨- الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام : أضواء جديدة على المقاومة الإسلامية للصليبيين والتتر (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

١٩- الوحدة والتنوّع في تاريخ المسلمين (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٠- خطوات في تراث الموصل (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢١- محاضرات في التاريخ والحضارة الإسلامية (دار السلام – القاهرة).

٢٢- رحلة في التاريخ الإسلامي (قيد النشر).

٢٣- مائتان سؤال وجواب (قيد النشر).

د – <u>قضايا في التاريخ المعاصر :</u>

٢٤- ملامح مأساتنا في إفريقيا (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٥- لعبة اليمين واليسار (٥ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٦- أضواء جديدة على لعبة اليمين واليسار (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٧- الرؤية الآن : الرؤية الآن : في هموم فلسطين والعالم الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٨- أولى ملاحم القرن (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٢٩- مذكرات حول واقعة الحادي عشر من أيلول (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٣٠- أمريكا مرة أخرى (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

ثانياً : الأعمال الفكرية :

أ – محور : المنظور الإسلامي للمعرفة :

٣١- أصول تشكيل العقل المسلم (حول إعادة تشكيل العقل المسلم) (٦ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣٢- مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣٣- العلم في مواجهة المادية : قراءة في كتاب (حدود العلم) لسوليفان (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣٤- مدخل إلى إسلامية المعرفة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣٥- تهافت العلمانية (٨ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

ب – محور : المنظور الغربي للإسلام :

٣٦- قالوا عن الإسلام (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٣٧- القرآن الكريم من منظور غربي (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٣٨- المرأة والأسرة المسلمة من منظور غربي (٣ طبعات) (دار السلام – القاهرة).
٣٩- الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٤٠- غربيون يتحدثون عن الإسلام (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
٤١- نظرة الغرب إلى حاضر المسلمين ومستقبلهم (طبعة واحدة) (دار النفائس – بيروت).

جـ – محور : البحوث والدراسات :

٤٢- مع القرآن في عالمه الرحيب (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤٣- حوار في المعمار الكوني : وقضايا إسلامية معاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٤٤- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤٥- مقال في العدل الاجتماعي (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤٦- متابعات إسلامية في الفكر والدعوة والتحديات المعاصرة (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٤٧- كتابات على بوابة المستقبل (بالاشتراك مع الدكتور عبد الحليم عويس) (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٤٨- الله أو الطاغوت : مسائل أساسية في التصوّر الإسلامي (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
٤٩- رحلة في عالم الكتاب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٥٠- محاضرات إسلامية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٥١- أخطاء في حياتنا الإسلامية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٥٢- دراسات قرآنية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٥٣- حواريات إسلامية (قيد النشر).
٥٤- تأملات في الدين والحياة (قيد النشر).
٥٥- مدخل إلى منظومة بناء الكون والعالم ونهاية التاريخ في المنظور القرآني.

د – محور : المقالات الإسلامية :

٥٦- مقالات إسلامية (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٥٧- آفاق قرآنية (٥ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٥٨- مؤشرات إسلامية في زمن السرعة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٥٩- في الرؤية الإسلامية (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٦٠- في دائرة الضوء (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
٦١- من النافذة الإسلامية (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).
٦٢- العالم ينتظر البديل (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٦٣- آيات قرآنية تطل على العصر (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٦٤- أحاديث نبوية تطل على العصر (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

ثالثاً : الأعمال الأدبية :

أ – محور : الدراسات الأدبية والفنية :

٦٥- الطبيعة في الفن الغربي والإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٦٦- الفن والعقيدة (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
صدر الكتابان الأخيران في غلاف واحد تحت عنوان (في الفن التشكيلي والمعماري).

٦٧- فوضى العالم في المسرح الغربي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٦٨- قراءة في كتابات النورسي : رؤية جمالية (الكلمات) (طبعة واحدة) (دار سوزلر – القاهرة).

ب – محور : التنظير :

٦٩- في النقد الإسلامي المعاصر (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٠- مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٧١- حول ستراتيجية الأدب الإسلامي (الغايات المستهدفة للأدب الإسلامي) (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٢- متابعات في دائرة الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٣- من يوميات الأدب الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

محور : النقد التطبيقي :

٧٤- محاولات جديدة في النقد الإسلامي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٥- في النقد التطبيقي (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٦- في النقد التطبيقي الإسلامي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

محور : الإبداع :

أ – المسرحيات :

٧٧- المأسورون (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٨- الشمس والدنس (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٧٩- المغول (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٨٠- الهم الكبير (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٨١- التحقيق (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).
٨٢- معجزة في الضفة الغربية (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٨٣- خمس مسرحيات ذات فصل واحد (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٨٤- العبور (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).
٨٥- المداولة (قيد النشر).

ب – الروايات :

٨٦- الإعصار والمئذنة (٤ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٨٧- السيف والكلمة (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٨٨- مذكرات جندي في الرسول (صلى الله عليه وسلم) (طبعة واحدة) (دار وائل – عمان).

جـ – القصص :

٨٩- كلمة الله (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٩٠- رحلة الصعود التي لا نهاية لها (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

٩١- المطر الأسود (قيد النشر).

٩٢- السكين في الظهر (قيد النشر).

د – الشعر :

٩٣- جداول الحب واليقين (٣ طبعات) (دار ابن كثير – بيروت).

٩٤- ابتهالات في زمن الغربة (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

هـ – أدب الرحلات :

٩٥- من أدب الرحلات (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

و – أدب الحوار :

٩٦- ريبورتاج : حوار في الهموم الإسلامية (طبعتان) (دار ابن كثير – بيروت).

٩٧- الطريق إلى فلسطين (طبعة واحدة) (دار وائل – عمان).

٩٨- لقاءات صحفية (طبعة واحدة) (دار السلام – القاهرة).

ز – السيرة الذاتية :

٩٩- من مذكرات طالب جامعي (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

١٠٠- لا إله إلا أنت : سيرة ذاتية (طبعة واحدة) (دار ابن كثير – بيروت).

الفهرست

(١) تأملات في الدين والحياة.
(٢) محاضرات.
(٣) تقاريظ ومقدمات.
(٤) مقالات :
رحلتي مع الشيخ : انطباعات.
مجرد وجهة نظر : حول النص وصراعاته.
جرّبت أن أصير سريالياً !!
حول ثنائية الدنيا والآخرة.
رحلة دينار !!
رسالة إلى النائمين.
شكوى إلى الله.
(٥) قائمة بالأعمال الكاملة للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل وحسب تصنيفها الموضوعي.
الفهرست.